

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام لله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فهذا الوعيد سيتحقق ، لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل اللهاية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فد والله ملك السماوات والأرض ، تدل على أن الله حين يوعد فهو سبحانه - قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبداً . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سر أعداء الدين في فورة توهم الفوز ، فالمؤمن يفتن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾
(سورة المسد)

وهذه السورة قد نزلت في عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول في البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواء ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبي جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذي كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » من كان يدرى محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدرى أن أبا لهب لن يأتى ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول : إننى سأصلى نارا ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، من كان يدرى أنه لن يفعل ، مثلما فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذى أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافراً .

وكان الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأن أنا « أحد صمد » ، ولا أحد يعارضني في هذا الحكم ؛ لذلك يقول في سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فيأدام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم » ، « والله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « والله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تظل ، والأرض ثقل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فإين تذهبون ؟ « والله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك الملك الذي لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن لله الملك وله القدرة .

« والله على كل شيء قدير » ثم يأتي بعد ذلك إلى تصور إيماني آخر ليحققه في النفوس بعد المقدمات التي أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيماني على جذور ثابتة في النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذي يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحداً

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب في الميدان ليلا لوقف ليلال : ما الحكاية ؟
فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذي يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يحىء في سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يحل لنا قضية الإيمان
بالفكر الإنساني ، فلا تنتظر الواعظ فقط الذي يأتي بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج
المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل : لو
أن إنساناً وقعت به طائفة في صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناساً ولأنه
مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبل أن يمد يده
لينتفع بها ، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن
جاء بها قبلها يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحو عيونهم
فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد
قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحداً لم يدع صنعه . هذا الكون
الذي نراه جميعاً بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إنني صنعته ؟ لا ،
إذن فالذي قال : إنني صنعته تسلم له الدعوة ، حتى يأتي واحد آخر يقول : أنا الذي
صنعت . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله
تعالى :

﴿ أَتَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كان الحق يقول : إن لم أكن أنا الذي خلقت فمن الذي خلق إذن ؟ ولم يجروا أحد
على أن ينسب الكون لنفسه ، لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شيء تافه من
عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذي تركه الله ولم يخلقه على الصورة التي هو عليها ،
كما يصعبون ليفهموا أن كل شيء تم خلقه - سبحانه - ككوب الماء هذا شيء تافه أتروا
الحياة . وقبل أن يتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شجر يفرح ويشم الكوب بل
صنعه إنسان أراد أن يتفرد بالحيد . فإذا كان هذا الشيء الصغير له صانع جبال في
نواحي عنوم شيء وفي المادة . ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التي عندما تصهر
تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فنجرب في عناصر الأرض فلم نجد إلا الرمل (١) .

(١) قبل أن رمل سيناء من الفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذي قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت في جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيميائية ، فما بالكنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إنني صنعتها ، فيقول الحق : من الذي صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذي خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط في إجابته ثم في النهاية لا يجد إلا الله .

وكان السائل لا يطرح هذا السؤال إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذي يأكل هو الذي يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لا بد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يقيد في الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ وَفَاتَّخِذْنَا مِنْهُ خَضِرًا

تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ
وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيَّانِ مُنْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم
يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أَيْتَنَى اللهُ عَلَى الْخَلْقِ وَيُعِيبُ عَلَيْهِمْ أَنْ
يَعْدِلُوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو
الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسي ،
ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسي في موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَسْكُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا
فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيْنِ ﴿١٤﴾

(سورة فصل)

فليأذا باركت يا الله ؟ بارك الله في الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع
به في استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً في

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون في الوديان ، والوادي هو المكان الذي يكون بين جبليْن . ولماذا يكون الوادي خصباً بين جبليْن ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتي بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحي . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغرين أو الطمي ، كالذي كان يأتي لنا من الحبشة ، والذي أحدث خصوبة وادي النيل .

إذن فالجبال هي مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيل واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا أنتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتي الجذب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنسان تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادي ، ونعرف أن ضيق الوادي يكون في أدناه، واتساع الوادي في أعلاه ، والجبل عكس الوادي . فضيق الجبل يكون في القمة واتساعه في القاعدة أي أن قمة الجبل أقل اتساعاً من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادي ، فيرفع من مستوى سطح الوادي ، وتتسع مساحة الوادي . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التي بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومي الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله يتابع في الأرض ، فالإنسان يحفر في مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفي موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطنى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لانتا نجد أن الماء العذب يأتي من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتنصب في البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطنى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يوتى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزروع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء في بطن الأرض أو في البحار ، وتأتي من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذباً . والقدر الذي خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان في جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت في فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يخزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنساني به حوالي تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَنْتُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذي استنفد أسباب بشرته ولم يدرك ما يحفظ به حياته
ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ
مَرَّكَانَ لَذَّةَ عَنَّا إِلَىٰ ضُرِّ مَسٍّ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾
(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق في موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْفُضْرُ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًُا فَلَمَّا نَجَّيْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى
الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التي أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف
بأن هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكَ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكَ فِي ظُلُمَاتٍ أَلَسَّ بِالْظُّلُمَاتِ أَلَمَّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ
الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعنى أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتى بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعنى اختلافهما أى كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل فى أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكان الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما فى الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ، لأن الله إمداداً حين خلق من عدم ، وإمداداً حين أمد من عدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذى أخذ نعمة الله التي سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتى منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

إنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَنْ خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذي يجرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَّفْنَاهُمَا بِخَلْقٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كَلَّمَا ابْتَغَيْنِ سَائِمًا أَكَلَهَا وَلَمْ تَقْلِمِ مِنْهُ شَيْعًا وَفَجَّرْنَا
خِلْفَهُمَا نَهْرًا ۝ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
أَبَدًا ۝ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا
مُنْقَلَبًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

فإذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ
سَوَّكَ رَجُلًا ۝ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝
فَقَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُوَفِّيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ
صَعِيدًا زَلَقًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

فكان يجب ألا يفتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم
وهذا يوضح لنا معنى قول الحق :

﴿لَنْ شَكْرُكُمْ لَا زِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيتكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه
سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء
فتكون حسرة عليك .

إذن فمن هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق :

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

إنهم يقولون :

«ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ،
ووضعت لها نواമيسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التي خلقتها لنا
بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال :
إن المؤمن الصادق في بني إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله
بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من
هؤلاء يسير تظلمه غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلمه ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئاً فَرَطَ منك . فقال لها : يا أمه لا أذكر . فقالت له : لملك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذي يأتيك من ذاك . وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير في الله دائماً .

ويروى عن سيدنا الإمام عليّ - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ في الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضاً هو تأمل في حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفتن إلى علو الخالق . ولذلك فالعرب الذي استلقى على ظهره نائماً ، واستيقظ ففتن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لي . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبد الله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدي جلده . ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لي الليلة في عبادة ربى ؟ » (١) .

لقد استأذن منها رسول الله في حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذنت لك .

لقد احتاطت الإحتياط الجميل ، فهي تحب الرسول ، وتقول : « وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المنتظمين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

(١) رواه الترمذي عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبراني عن معوية .

لكنها عائشة - رضي الله عنها - ردت على ذلك من قبل أن يقال . فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هوانك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذي يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن يشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة في العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعاً ، أو صامت تطوعاً لا بد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فيها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم .. خيركم لأهله وأنا خيركم لأهل »^١

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصاً إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراد الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة في عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجع لمثل هذا الأمر . لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابي جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابي للزوج : يا هذا ستفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة في عبادة ربه ، فهذا مفعاه درس للأزواج أن يخسروا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناساً لا يستأذنون أهلهم لا في العبادة ، ولا حتى في سهرات المعصية . وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولاً عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه في المقهى أو في مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس في مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضي الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قرية فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أتني على الله وحده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فراه يبكي . فقال : يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ قِيَمًا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥١﴾

رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٥٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا

سَمِعْنَا مَنَادًا بِأَنَّ الْإِيمَانَ أَنَّ ءَامِنُوا بِرَبِّكَ فَهَلُمَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَكْفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبِرَارِ ﴿١٥٣﴾ رَبَّنَا وَهَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُوكَ وَلَا

تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٥٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي

لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذِكْرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَأَلَّذِينَ

هَابَرُوا وَآخَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَآوَدُوا فِي سَبِيلٍ وَقَتَلُوا وَقَتَلُوا لَأَكْفِرَنَّ

عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دِخْلُ هُمْ جَنَّتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ

اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٥٥﴾ لَا يَغْفِرُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ

﴿١٩٥﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا أَلِهَادٌ ﴿١٩٦﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ
لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا زُلَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ بَرَّارٍ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْكُرُونَ بِمَا بَلَّغْتَ إِلَيْهِمْ قَلِيلًا
أَوْ كَثِيرًا لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٨﴾ بِتَأْيِيدِ الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٩﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فويل لمن قرأها ولم يتذكر فيها ، وويل
لن لاكها بين فكيه ولم يتأملها) (١).

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله في أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التي
تبدأ بقوله تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) .

إن في تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره
على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله
قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت
هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن المطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى
جنوبهم . وقال بعض العلماء في تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قاتما يصل
قاعدا . . ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

(١) رواه البخاري في المنهج ورواه مسلم والترمذي في الصلاة والنسائي في فهم الليل وابن ماجه في الاكلمة والإمام

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقِمْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكَ وَلَا تُنَازِعْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَّا يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ لَيَعْبَلُونَ عَلَيْكُمْ مِثْلَهُ وَاحِدَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أََعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١١٥ ﴾

(سورة النساء)

وحق لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هي التي يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيْمَا وَقَعْتُمْ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ١١٥ ﴾

(سورة النساء)

أى إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كان ذكر الله أمر متصل واجب في الصلاة ، وفي غيرها ، وبعدها بتفكير المؤمنون في خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلا . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سَبِّحْكَ قَبْلَ عَذَابِ النَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ١٩٦

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزي الله لمن دخل النار . وكان الخزي مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذي أعطانا كل هذا الفضل ، إنه - سبحانه - أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لتتفكر في خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذي يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزي والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أى وليس لهم أنصار ينعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَتَأْمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ١٩٧

فكان الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يحىء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما في الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة في ذهنه . ما هي ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هي الزلزلة التي وقع فيها الفلاسفة ، لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادي قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقي يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التي لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ في مدرسة مع تلميذ آخر في مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل في هذه النتائج . فالذي يدخل التجربة العلمية في المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذي يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد في العلوم المادية فارقا بين علم شيوعي روسي ، وعلم أمريكي رأسمالي ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذي لا يفطن له الخلق المفرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادي ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التي لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادي .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز في الأهواء ولكن في العلم المادى يتحولون إلى لصوص .
فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العدا مع
مذاهب الغير في الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم في العلم المادى يسرق بعضهم
بعضاً ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى - كما قلنا - يتبع
الحقيقة العملية التى لا تحامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة .
وقد عرفها العرب بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا
يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدل على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف .
إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا
مرسل من ناحية هذه القوة ، وأن اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس
عليه ؛ لأنه سيجعل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا رَبَّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كان ذهن كل واحد فيهم كان مشغولاً بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك
يقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فالول حاجة فكروا فيها هى دره المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم
بالتقصير دائماً ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شئ ، و « السيئة » شئ
آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة
اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن بما وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

للحُث في اليمين ، أما الأشياء التي تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهي الذنب ، والسيئة هي الأمر الذي يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية في أمر بينك وبين الله فأنت لم تسوء إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتي بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهي سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .

ومن الذي هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذي علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالسا بين أصحابه فأخذته سيئة من النوم ، ثم استيقظ فضحك .

فمن أنس رضي الله عنه قال : « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيته ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتي بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لي مظلمتي من أخي . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يارب : لم يبق من حسناتي شيء ، قال : يارب يحمل عني من أوزاري . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يتحمل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لآي نبي هذا ؟ لآي صديق هذا ؟ لآي شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » (١) .

(١) رواه أبو يعلى والحاكم وصححه ورواه السيوطي في الدر المنثور وابن كثير في التفسير .

هذا هو معنى التكفير أى أن نتحمل ؛ لذلك نقول فى الدعاء كما علمنا : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عني » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبدا .

والعباد المؤمنون يقولون : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختتم لنا سبحانه هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك بقى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَايَاتُنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ١١٤

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذِكْرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَاذْهَبُوا وَتِلْكَ أَوْدُؤُنَا فِي سَبِيلِ الْقِتْلَةِ وَأَقْبَلُوا لَئِيْلَ الْكَافِرِينَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴾ ١١٥

ولنر اللفتة الجميلة في الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أن لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ويخشون خزي الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على السنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه : استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال : « أن لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنزوع العمل ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلا بد له من العمل . إن التفكير في بديع صنع الله لا يغني عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكير فيه وأنت تعمل في أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٥﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هي نزع وجودي ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك في سبيل الله . أي ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا في سبيل الله وتحملوا الأذى وقتلوا - هؤلاء - ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التي تنضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بجماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما مضى الإنسان بهذا كله في سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكف بنفسه بل جاهد في سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هي أن الفكر وحده لا يكفي وإذا قال واحد : إن إيماني حسن فلا تأخذني بالمسائل الشككية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس في حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمم الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله في الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله في الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرُّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

وإذا ما سمعنا كلمة « تقلب الذين كفروا في البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون في مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان : « فلان نشاطه واسع » أي أن البيئة التي يجيأ فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم في رحلات خارجها . لذلك قال الحق :

﴿ لَا يَغُرُّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا ينشأ عن : قدرة وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتي لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان في الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

فسبحانه هو القائل :

﴿وَمَا الْخَيْرُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية . أما الذي يريد أن يُصَعَّدَ النعمة ويصعد النفع فهو يفعل العمل من أجل حياة لا تنتهى . والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الأجلة التى لا تنتهى .

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى : لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقاءه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فهال ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقارنها بقولك : إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك . وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فما بالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا سن ولا يرتبط بسبب أو بزمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن فعمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها . ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة رَبِّكَ وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور . ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحق من هذا ؟ إن الذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعلينا أن نقارن الثقل فى البلاد بما أعد الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة . .

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :



﴿ مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾

والمهاد هو المكان الذي ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم في جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شئ ، شأنهم في ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهدده حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا

عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

والتزل هو المكان الذى يعد لتزول الضيف ، والتزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر وفي إحدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية .

قلت لهم : هذا ما أعدده البشر للبشر ، فكيف بما أعدده الله للمؤمنين ؟

وعندما نرى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧)

(سورة الأنعام)

ويقول - سبحانه - :

﴿ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَاسٌ مِمَّا كَانُوا يَمْعُرُونَ ﴾ (١٨)

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة . والعذاب يأتي مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة . إنه يأتي بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له في أى لحظة . ويأتي جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم في فزع ورعب .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا

يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنْ كُنَّ اللَّهُ سَرِيعَ

الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغبة ، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود في النعيم المقيم ، وما دام سبحانه يقول : اصبروا فلا بد أن يكون هذا إيذاناً بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدي إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها في ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها في ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما في ذات النفس مفصلة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضي أن تصبر على تنفيذ أمر الله في فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه في ترك المعاصي وإن كان ذلك يمتنع عن لذة شهوة تحبها فإنك نصبر عن تلك الشهوة التي تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التي نهى الله عنها ، والأشياء التي تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة في النفس يصبر عليها ، والأشياء التي يصبر عنها من النواهي هي الشهوات والمتع التي يحرمها الله .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إنني خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التي في الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة في ذاتك ، اصبر عليها ، إذن ففي الأوامر صبر على تنفيذها ، وفي المناهي صبر عن إيقاعها ، هذه كلها في الذات ، وبعد ذلك إذا تعدت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجي فالحق يقول :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٧٧)

(من الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين في » ، فعندنا : « صابر على » ، « صابر عن » ، « صابر في » ، « الصابرين في البأساء » التي تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف نصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن منهج الحق سبحانه لا يصبو إلى الخطأ في حركة المجتمع ، والخطأ في حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرضون جاهدين أن يصدوا من يريدون تثبيت منهج الله ، إذن فهم لا يصبرون في إيذائهم ، وفي السخرية منهم ، وفي إتيانهم وفي حريمهم ، وهذا صبر في البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضا على إيدائك ، فعليك أن تصابره .
ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك مستصير عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيدائك ، وصار عنده جلد ليقف أمامك هنا ،

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى على الصبر عليه ، أى أن تجيء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة « فاعل » هكذا .

مثال ذلك : عندما تقول : فلان نافس فلانا . والمنافسة تكون بين اثنين يحتاجان ويقصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد أن يصل بحرص ، فإن كان معانذك يحرص عليها بخطوة فاحرص عليها أنت بخطوتين ، هذه هى المنافسة ، فالمنافسة مغالبة على الفوز ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو : إطالة النفس حين يغطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - قال للعباس - رضى الله عنه - : أتنافسنى ؟ أى عرض عليه أن يتزلا معا تحت الماء ، ويرى من منها أطول نفسا . إذن فاللفظ الكيس هو من يتمرس على هذا العمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من الثانى ، أما الذى يغطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير فقط ، « فنافسنى » تعنى أن نغطس فى الماء معا لنرى من منا أطول نفسا . أى أنه قادر على أن يحتفظ بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا إذا أخذت شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ، ولذلك فالطبيب عندما يريد أن يفحص حالة الرئة يقول للمريض : خذ نفسا طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته .

إذن فالمصابرة تعنى إن كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت .

أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفُورٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

أى أنك إذا رأيت أخا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف في مصابرة فتحته على المصابرة وقل له : إياك أن تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد باتى لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار يتفخ بالعزيمة فيمن يخور فقال الحق : « تواسوا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا . « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موجيباً ، ومرة موصي ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فوصي ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار توصي ، فكل واحد موصي في وقت ، وموصي في وقت آخر ، ولا تتواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا تواسينا أولاً على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائماً للقاءه ، هذا هو معنى الرباط . والحق يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَنْحَلْتُمْ يَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ۝١ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

إنها خيل مربوطة للجهاد في سبيل الله ومستعدة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم محسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »^(١) .

أى أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهية ننتقل لمواجهة . ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك

(١) رواه مسلم في الإمامة وابن ماجه في الفتن ورواه أحمد .

عالمًا بأنك مرابط له ومستعد للحركة في أى وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنت في استرخاء وغفلة ، فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنت لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتى بالمداخمة ، ولكن تكون أنت مستعدًا لها في كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيال للعدو المهاجم هجومًا ماديًا ، بل المراقبة تعنى : الإعداد لكل ما يمكن أن يَؤدَّ عن الحق صبيحة الباطل ، فمن المراقبة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفد ، لماذا ؟ .

لأن المسألة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدَّة ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذاً لا بد أن تكون أيضًا في الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تفد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ونسوا أن لنا دينًا يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتى رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول : إن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترباط ، ونقول له : فى أى سنة نشأت الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتى سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامى جاء منذ أربعة عشر قرنًا بحقوق الإنسان ، وقرأوا القرآن . فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث فى القرن السابع عشر لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنًا جاء الإسلام بهذا المبدأ والتفت إلى الاساءة فى استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدى بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق فى منهج الله .

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلاني باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة ممددة من الله ، لا تقل : إن الطبيعة أمدت . إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا ، فخصوم الإسلام قد يشعرون أن ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذرون لأنهم لا يعلمون منهج الله فى دين الله . إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى .

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن ننبه الناس إليها ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنا للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التى تشدقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمرابطة أن توضح أمور دينك توضيحا يقف أمام أى وافدة قبل أن تغد بالعنوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادئ ، ولذلك قال الحق : « اصبروا » . « صابروا » . « رابطوا » ، وجماع كل ذلك « الصبر على » وه الصبر عن « وه الصبر فى » ، والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمة ، ويختم الحق الآية بقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ونعرف أنه حين قال لك : « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أى اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية . ما هى الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هى الطاعة ؟ أن تنفذ ما أمر ، وأن تنتهى عما نهى . فالذى يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذى

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذي يفسرها بالآخرى يفسرها بالغاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من جنود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتق الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيهِ ، فما هى الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله ؟ إنها الطاعة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية .

وقلنا فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الآخرة . فى الدنيا : بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلکم ولا يجعلکم أحد تابعين له . هذا لون من الفلاح ، ولكن على فرض أنهم فلقوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن فثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يمكن للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك نحمد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَذَّبْتُمْ قَالُوا لَيْسَ بِيَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِيتُمْ فَأَبَعْتُمُو أَحَدَكُم بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ونلاحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجمكم » هذه واحدة ، « أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

إن كانوا يرجمونكم فسيقتلهم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن



ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة ، إذن فعناصر الفلاح المرادة
للإنسان ، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما معا. إن عناصر الفلاح أن ننفذ أوامر
الله في قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .



سُورَةُ النِّسَاءِ
مَدَنِيَّةٌ

عرضنا - فيما سبق - خواطرننا حول تسمية السور ، وهنا تأتي سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الإنساني ، ونلاحظ أن الحق لم ينزل سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها « سورة النساء » وتتعلق بها أحكام كثيرة ، وأيضا سيتكلم في سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم في سورة الأحزاب عن النساء ، وأيضا سيتكلم في سورة المتحنة عن النساء ، وفي سورة المجادلة عن النساء وفي سورة الطلاق ، وفي سورة التحريم عن النساء ، إنها أحكام منصوص عليها في القرآن عن حقوق المرأة ، وهذه الأحكام جاءت لتتكلم عن الوعاء الحاضن للنفس البشرية .

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا في الحياة مع الجهاد في العمل ، ومع الحيوانات يربي ، ومع الزرع يزرع . إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هي : جاد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وبجمال الإنسان الرجل هو العمل مع الجهاد ومع النبات ومع الحيوان ، أما جمال المرأة فمع الإنسان ، أيجاد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟ انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة ، هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أياما ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين - وهذه طفولة الشجر المعمر - لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهي فترة حضانة طويلة ، ولماذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان في الحياة جلييلة . إذن فطفولته تحتاج إلى عناية ، وفي مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نضج ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون في حضن أمه فهو في حضن المرأة ، بينما يكده والد في الحياة ، ويأق لها بالرزق ، ويسكن عند الزوجة .

فالمرأة عندما قاضت الرجل وخاصته أمام القاضي وهو يريد أن يأخذ ابنه منها ، قالت للقاضي : لقد حمله خفًا ، يعني حمله في ظهره خفيًا لا يدري به ووضعه شهوة ، ولكنني حملته كرها على كره ؛ لذلك فبعد أن أنزل الحق في آل عمران سورة وهم قدوة الاصطفاء في الرسائل وفي التكاليفات ، ومنهم جاء لنا ببعض الرسل ، وجاء منهم بمنفذين لمنهج الله مثل امرأة عمران ، فلم تكن هي ولا مريم عليهما السلام نبيه ولا رسولة ولكن نفذت كل واحدة منها ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتي لنا الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الذين آمنوا فانتظروا منه تكليفًا . ساعة يقول : « يا أيها الذين آمنوا ، فافهم أنه يريد أن يكلفك . وسبحانه يوضح لك : أنا لا أقتحم عليك اختيارك ، ولا أكلفك إلا بما كلفت أنت به نفسك لأنك آمنت بي ، وما دمت آمنت بي ربا إلها فادرا حكيما فاسمع مني .

إن الله لم يدخلك في الإيمان فأنت الذي دخلت باختيارك في الإيمان فيجب أن تستمع إلى من آمنت به ، وقلنا : « والله المثل الأعلى - الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاج ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرفها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يجتال على أي واحد يسافر للمخارج ليأتي بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا : « يا أيها الناس » إنه لا يطلب من الإنسان أي تكاليفات ، لكنه يطلب منك أيها الإنسان أن تؤمن . فيوضح « يا أيها الناس » . إنه ينادي الناس : تعالوا إلى جانبي كي تتروا أيؤمن بي أم لا يؤمن بي ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ،
وماذا أفعل لاتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلها ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه - سبحانه - يعرض لك
القضية العقلية للناس فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل : اتقوا
الله ، لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواه ، لم يصل الحق
بالناس لهذه بعد ، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية ، والرب هو : المتولى تربية
الشيء ، خلقا من عدم وإمدادا من عدم ، لكن أليس من حق المتولى خلق الشيء ،
وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل
مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذى صنعه قانون صيانة ، بالله أينخلق
سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم :
اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع
دستور الدعوة للإيمان فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » كان خلقه ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له : إنك لم تخلقنا - والله المثل الأعلى .

أنت تسمع من يقول لك : أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فانت مقر بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فانت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام . إذن فقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكان خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد - سبحانه - أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنبه بالشئ الذى نؤمن به جميعا وهو أنه - سبحانه - خلقنا إلى الشئ الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب » ولم يقل : « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من عدم ، وتعهد وهو المولى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَضِرَ الشَّجَرِ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ ﴾

﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ٥١

(سورة العنكبوت)

إذن ففضية الخلق قضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها : مادمتم آمتمم بأنى خالفكم فل قدرة إذن ، هذه واحدة ، وريبتكم إذن فلي حكمة ، وإله له قدرة وله حكمة ، إما أن نخاف من قدرته فترهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لو لم يقل الحق : « وجعل منها زوجها » لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد :

﴿ وَمِنْ كُلِّ نَفْسٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٥٢

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة . هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وأناس قالوا : لا ، « منها » تعني من جنسها ، ودللوا على ذلك قائلين :
حين يقول الله :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من
جنسنا البشري ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل ، لأن خلق حواء قد انطمست
المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتساويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار
إنسانا ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ،
وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه : « خلق منها » أي من جنسها ،
خلقها من طين ثم صورها إلخ ، ولكن لم يعد علينا التجربة في حواء كما قالها في
آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أي من الضلع ، وهذا شيء لم نشهد أوله ،
والشيء الذي لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون بمن شاهده ، وسبحانه أراد أن
يرحمنا من مآفات الظنون في هذه المسألة ، مسألة كيف خلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها ، فالذي خلقك هو الذي يقول لك فاسمع
كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبي ، ولذلك عندما جاء « دارون » وأراد أن
يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه ، قالت النظرية الحديثة
لدارون : إن الأمور التي أثرت في القرد الأول ليكون إنسانا ، لماذا لم تؤثر في بقية
القروء ليكونوا أناسا وينعدم جنس القروء ؟ وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون ،
لذلك نقول : هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع ممن فعل ، والحق سبحانه يقول :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَخَذًّا

الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥٦﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحدا لا يأتى
بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجيء بادعاء علم فيقول : « وما كنت متخذ
المضلين عضدا » ، معنى مضلين أنهم سيضلونكم في الخلق . كان الله أعطانا مناعة

في الأقوال الزائفة التي يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، فقد أوضح لنا طبيعة من يضللون في أصل الخلق وفي كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يجربوا البشر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذي يقول كيف خلقتكم وعلى أي صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المضللون ، وه المضللون ، هم الذين يفتونكم عن الحق إلى الباطل .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين وانتهى ؟ لأنه عندما بُردَ الشيء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة ، أما عن نظرية « دارون » وما قاله من كلام فقد قبض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتموا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسي « مونييه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التي يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال : أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكرا » ثم توجد المصادفة شخصا نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثاني ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنسلم أن المصادفة خلقت آدم . فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفي جارف وهو أعنف الغرائز ، ثم ينشأ منها تلقح يُنشئ ذكرا كالأول أو أنثى كالثاني ؟ أي مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، سموها مصادفة ونحن نسميها الله .

لقد ظن « مونييه » - هده الله إلى الإسلام وغفر له - أنه جاء بالدليل الذي يرد به على دارون ، نقول له : إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هي

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا أنشأ الله منهما رجالا ونساء . إذن فهو عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة ، إذن فقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » . هذه جاءت بالدليل الذى هُدى إليه العالم الفرنسى « مونييه » أخيرا .

« وبث منها رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن الخلق يجب أن يتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من خيرات الله فى الأرض جميعا .

وه « النشر » معناه تفريق المنشور فى الحيز ، فهناك شئ مطوى وشئ آخر منشور ، والشئ المطوى فيه تجمع ، والشئ المنشور فيه تفريق وتوزيع ، إذن فحيز الشئ المتجمع ضيق ، وحيز الشئ المبثوث واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منها » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حفل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكرا أو اثنين .

إذن القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب الازنقا . فإذا قال الله : « وبث منها رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيرا ، فإذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الالفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله : « وبث منها » أى من آدم وحواء وهما اثنان « رجالا كثيرا ونساء » . فتكون جمعا وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ، فهو « بث منها رجالا كثيرا ونساء » والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبت منه أكثر . . وبعد ذلك يبت من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثا ، وكلما امتدنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما تنظر لاي بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من
تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن
قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرنا كان أقل ، إذن
فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد ، لأنه سبحانه يث من الذكورة والأنوثة رجالاً
كثيراً ونساءً وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر .

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة في السكان ، ونحن نرى ذلك في الأسرة
الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن نرى منها
أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله في عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد
الأحفاد . إذن كلما تقدم الزمن بالتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضي
يقل ؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى
يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم
وحواء .

فعندما يقول الحق : إنه خلق آدم وحواء ، ونحاول أنت أن تسلسل العالم كله
سترجعه لهما ، ومادام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاء ؟ الحق سبحانه
يوضح لنا ذلك بقوله : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم
الإحصاء . وكان من الضروري أن تأت هذه الآية كي نحل لنا اللغز في الإحصاء ،
وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضي قل التعداد إلى أن يصير
ويشبه إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتي منه تكاثر ، فالتكاثر
يأتي من اثنين ومن أين جاء الاثنين ؟ لابد أن أحدا خلقهما ، وهو قادر على هذا ،
ويعلمنا الله ذلك فيقول : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها
رجالا كثيرا ونساء » وناخذ من « بث » ، « الانتشار » ، ولو لم يقل الله هذا لكأنت
العقول الحديثة تنوء وتقع في حيرة وتقول : نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ،
والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن لابد أن نؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير
شيء .

« وبث منها رجالا كثيرا » لأن النسر في الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ،
فالحق يقول :

﴿ فَأَنْشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

والحق يقول :

﴿ فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

والأنثى تجلس في بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك في هذا الكون ، وهي بذلك تؤدي مهمتها .

وبعدما قال : « اتقوا ربكم » يقول : « اتقوا الله » . لقد قدم الدليل أولاً على أنه إله قادر ، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البت في الكون المنشور الذي يوضح أنه إله ، فلا بد أن تتلقوا تعليماته ، ويكون معبوداً منكم ، أي مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل ، وأنزل الحق القرآن كمنهج خاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذي تسألون به » .

انظر إلى « القفزة » ، للخلق الجاحد ، إنه - سبحانه - بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرناكم التي تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم .

وأت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، نقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظم ، إذن فتعظيم الله أمر فطري في البشر ، والمطموس هو المنهج الذي يقول : افعل ولا تفعل . والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو ، ويطلب حاجة تهمه من آخر ، فهو يقول له : سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال : سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هي أن الله هو الحق ، وأنه هو الذي يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يجيب رجاء من سأل .

إنه في الأمور التي تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسالون أيضاً بالارحام

وتقولون : بحق الرحم الذي بيني وبينك ، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لي هذا الأمر ، ولماذا جاءت الأرحام ، هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية في الفكر ، فهاذمت أنا وأنت من رحم واحد ، فيجب أن تقضي لي هذا الشيء . إذن فمرة نسألون بالله الذي خلق ، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر في الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين اللذين هما السبب في إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذي أوجدهما ، وأن يُصعد الأمر قليلا ليعرف أن الذي أوجدهما هو الله سبحانه .

ويختتم الحق الآية بقوله : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال : « مرقب » ، ونجد مثل هذا المرقب في المنطقة التي نحتاج إلى حراسة ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كي يراقب . ومكان الحراسة يكون أعلى دائما من المنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيب » تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وأتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول : « إن الله كان عليكم رقيبا » . فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً - والله المثل الأعلى .

نحن نجد الإنسان قد يبصر مالا غاية له في إبصاره ، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان في باله . والحق سبحانه رقيب علينا جميعا كما في قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١١ ﴾

(سورة الفجر)

ويعد أن تكلم سبحانه عن خلقنا أبا وأما وأنه بث منها رجالاً كثيراً ونساء ، أراد أن يحمي هذه المسألة وأن يحمي الميثوث . والميثوث قسمان : قسم اكتملت له القوة وأصبحت له صلاحية في أن يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية في أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ؛ لذلك لابد أن ينظر القادرون في المجتمع إلى القسم الضعيف في المجتمع . ومن القسم الضعيف الذي يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم اليتامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكدح والام تحضن ، ويربيان الإنسان التربية التي تنبع من الحنان الذاتي ونعرف أن الحنان الذاتي والعاطفة يوجدان في قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والام أكثر من الكبير ، وهذه عدالة في التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، تجد الأكبر أحظهم زمناً مع أبيه وأمه والصغير أقلهم زمناً ، فيريد الحق أن يعرض الصغير فيعطى الأب والام شحنة زائدة من العاطفة تجاهه ، وأيضاً فإن الكبير قد يستغنى والصغير مازال في حاجة ، ولذلك قال سبحانه في أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِيهِمْ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أي أنهم أقرباء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقرباء . وهذا الظن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصابة لذلك كان قلبه مع غير العصابة ، وهذا هو الأمر الطبيعي ، فهم جاءوا بالدليل الذي هو ضدهم .

إذن فحين يوجد الناشئ الذي يحتاج إلى أن يُربى التربية التي يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأتي لليتيم الذي فقد مصدر الحنان الأساسي ونقنن له ، ويأتي الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنساني قطاعات ، ويحمل كل واحد القطاع المباشر له ، فإذا حمل كل واحد منا القطاع المباشر له تتداخل العائلات في القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتتجمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله في تكافل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية في كل نفس ، ومادام اليتيم يقيم معنا كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم فرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « حرة يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى الإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا : اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام طلوقة تلحق الذكور فيها الإناث وتنتهى . والأم هى التى تربي وترضع ، فإذا جاء أحد آخر يحسها تنفر منه .

أما اليتيم فى الطير فمن فقدهما معاً « فالطير عادة الزوج منها يألف الآخر ، ولذلك يتخذان عشا ويتناوبان العناية بالبيض ويعملان معاً ففيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر الضعف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقنن له فقال :

﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

وكيف نؤق اليتيم ماله وهو لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، ونخشى أن نعطيه المأ ، فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا نفعل ؟ هل ندفع لهم الأموال ؟ الحق يوضح أنك ساعة تكون وليا على مال اليتيم فاحرص جيدا أن تعطى هذا اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نضجه

كاملا ، فأنت حفيظ على هذا المال ، وإياك أن تخلط مالك بماله أو تبدل منه ، أى تأخذ الجميل والتمين من عنده وتعطيه من مالك الأقل جمالا أو فائدة .

إذن فقوله : « وآتوا اليتامى أموالهم » أى أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للقيم عليه أن يتصرف في هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وابتلوا اليتامى » فهناك أناس يريدون أن يطيلوا أمد الوصاية على اليتيم ، لكي يتنفع الواحد منهم بهذا المال فيوضح سبحانه : لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول نظره ، لا . أنت تدربه بالتجربة في بعض التصرفات وتنظر أسبحسن التصرف أم لا ؟

إن قول الحق : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطاعوا فاطمئنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحلم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش في قصور عمرى ، وهو سبحانه يفرق بين اليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يعانى من قصور عمرى بل من قصور عقل ، وعندما تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فهل هم أموالكم ؟ لا . فحين يكون المرء سفيا فاعلم أنه لا إدارة له على ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف في المال تصرفا حكيما ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف . لكن لما يبلغ اليتيم إلى مرحلة البائة والنكاح والرشد يقول الحق :

﴿ فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة في الوصاية : « أموالكم » وفي العطاء يقول : « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح . احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأنها مالك ؛ لأنه مادام سفيا فمستولية الولاية مطلوبة منك ، والمال ليس ملكا لك . خذ منه ما يقابل إدارة المال وقت السفه أو اليتيم ، وبعد ذلك يأت الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القائمين على أمر اليتامى أو على أمر السفهاء الذين لا يحسنون إدارة أموالهم فيقول :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

اجعلوا الرزق مما يخرج منها ، وإياكم أن تبقوها عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك ووصايتك وقيامك على أمر السفهاء أو اليتيم ؟ إنك تثمر له المال لا أن تأكله أو لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا . «وارزقوهم فيها» ، وفي « هنا للشيبة ، أى ارزقوهم بسببها ، ارزقوهم رزقا خارجا منها .

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » والخبيث هو الحرام والطيب هو الحلال ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء جميل ، فيأخذه الوصى لنفسه ويستبدله بمثل له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال اليتيم فرس جميل ، وعند الوصى فرس قبيح فيأخذه ويقول : فرس بفرس ، أو جاموسة مكان جاموسة ، أو نخلة طيبة بنخلة لا تثمر ، هنا يقول الحق : « ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » .

وقوله سبحانه وتعالى : « ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم » يعنى إياكم ألا تجعلوا فرقا بين أموالكم وأموالكم فتأكلوا هذه مع تلك ، بل فرقوا بين أكل أموالكم والحفاظ على أموالكم لماذا ؟ تأتى الإجابة : « إنه كان حوبا كبيرا » أى إثما فظيحا .

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتيم ، وضعف النوع : ضعف اليتيم سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كانت أنثى فالبلوى أشد ؛ فهي قد اجتمع عليها ضعف اليتيم وضعف النوع ، طبعا فاليتيمة عندما تكون تحت وصاية وليها ، يجوز أن يقول : إنها تملك مالا فلماذا لا أتزوجها لكى آخذ المال ؟ وهذا يحدث كثيرا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَاطَابَ
لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرِيعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ ۖ أَلَّا تَعْمَلُوا ۚ ﴾

هنا يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى . فاليتيم مظنة أن يُظلم لضعفه ، وبخاصة إذا كان أنثى . إن الظلم بعامة محرم في غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الضعيفة كبير ، فهي لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها . وقوله الحق : « وإن خفتُم ألا تقسطوا » من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تختلط الأذهان فيها ، وه القسط مرة يطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

فـ « قَسَطَ » ، « يَفْسِطُ » ، « قَسَطَا » ، وه قُسُوطًا ، أى ظَلَمَ بفتح القاف في « قَسِطَ » ، وضمها في « قُسُوطَ » .

والقِسط بكسر القاف هو العدل . . والقِسط بفتح القاف - كما قلنا - هو الظلم . وهناك مصدر ثانٍ هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتُم ألا تقسطوا » من أقسط . أى خفتُم من عدم العدل وهو الظلم . وهناك في اللغة ما نسميه همزة الإزالة ، وهى همزة تدخل على الفعل فتزيله ، مثال ذلك : فلان عتب على فلان ، أى لامه على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : أعتبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب .

ويقال : محمد عتب على علي . فهاذا كان موقف علي ؟ يقال : أعتب محمداً أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب . فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجماً ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وغموضه . كذلك « أقسط » أى أزال القسط والظلم . إذن « القسط » هو العدل من أول الأمر ، لكن « أقسط » إقسطاً ، تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه . والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قسط بكسر القاف . وإن جاء بعد جور تمت إزالته فهو إقسط . فحين يقال « أقسط » و« تقسطوا » بالضم ، فمعناها أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد يقول :

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا من القسط - بالفتح - ومن القسوط بالضم ، أى من الجور والظلم ، ونجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝١٦﴾

(من الآية ١٦ سورة المائدة)

أى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلماً أزالوه وأحلوا محله العدل .

الحق هنا في سورة النساء يقول : « وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى » أى إن خفتن ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى ، ومعنى أن تخافن من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل . أى فإن خفتن أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليس كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجوز على اليتيمة فبظلمها . وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء .

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح وارداً ، فهو لم يقل : اترك واحدة وخذ

واحدة ، لكنه أوضح : اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات . إذن فقد ناسب الحال أن نجيء مسألة التعدد هنا ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولي عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن ، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعيفة ؛ لأن النساء غيرها كثيرات . « وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

وقوله الحق : « ما طاب لكم من النساء » أى غير المحرمات فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْنًا
وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٣﴾

(سورة النساء)

وفى قوله سبحانه :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُ النِّسَاءِ الَّذِينَ أَرَضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ
نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي جُحُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَلَمَّا زَلَّ
تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٢٤
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ۝٢٥﴾

(سورة النساء)

إذن فما طاب لكم من النساء غير المحرمات من اللاتي يحلن للرجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيمانكم ذلك أدنى ألا تعملوا ، وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص ، ولماذا جاء بالثنى والثلاث والرابع هنا ؟

إنه سبحانه يريد أن يُزهدَّ الناس في نكاح اليتيمات مخافة أن تأتى إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالماً لها ، فأوضح سبحانه : اترك اليتيمة ، والنساء غيرها كثير ، فأمامك مثنى وثلاث ورباع ، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعاً في مالها أو ناظراً إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها ولي يقوم على شأنها غيرك .

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ما معنى مثنى ؟ يقال « مثنى » أى اثنين مكررة ، كأن يقال : جاء القوم مثنى ، أى ساروا في طابور وصفٍ مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الجانية .

ويقال : جاء القوم ثلاث ، أى ساروا في طابور مكون من ثلاثة ، ثلاثة . ويقال : جاء القوم رباع . أى جاء القوم في طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى .

ولو قال واحد : إن المقصود بالثنى والثلاث والرابع أن يكون المسموح به تسعة من النساء . نقول له : لو حسينا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملاً لغير ما قصد الله ، فالثنى تعنى أربعة ، والثلاث تعنى ستة ، والرابع تعنى ثمانية ، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يخاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول : « وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

فلذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أيعنى هذا الأمر أن يأق واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً .

وعندما يقول المدرس : أخرجوا أقلامكم . أى على كل تلميذ أن يخرج قلمه .

وعندما يقال : اركبوا سياراتكم ، أى أن يركب كل واحد سيارته . إذن فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً ، وقوله الحق : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » هو قول يخاطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخرين ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء .

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرع مرة إيجاباً ومرة يشرع إباحة ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ، وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والزواج نفسه حتى من واحدة مباح . إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل . وحين يبيح الله لك أن تفعل ، ما المرجح في فعلك ؟ إنه مجرد رغبتك .

ولكن إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد في الأرض ، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس في حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أخذت التعدد ، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل ، فالناس تمنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذاً لحكم الله في التعدد وتركاً لحكم الله في العدالة .

والممنهج الإلهي يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا تكره الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيرته وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلا بد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى .

إن الذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضاً في العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد ، وسيقال : انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله في شيء ولا تأخذ إلزامه في شيء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك الناس في حكم الله ، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله - والسطحيون في الفهم يقولون : إنهم معذورون ، وهذا منطق لا يتأن .

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذي يأخذ حكماً عن الله لا بد أن يأخذ كل منهج الله .

هات إنساناً عدل في العشرة وفي النفقة وفي البيتوتة وفي المكان وفي الزمان ولم يرجع واحدة على أخرى ، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئاً فهي لن تجد حيشة لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيشة للاعتراض ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله في إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله في عدالة المعدد . والعدالة تكون في الأمور التى للرجل فيها خيار . أما الأمور التى لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول : إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل . نقول لهم : بالله أهذا تشريع ؟ ، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ

فَتَذَرُوهُمَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ١٥٩ ﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة في العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يُلغِه ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له في حركة حياته عضين بمعنى أنه يأخذ حكماً في صالحه ويترك حكماً إن كان عليه . فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ؛ لأن أى انحراف في فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فاذ واجبك . والذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضاً في العدل ، ولا أعطوا خصوم دين الله حججاً قوية في إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .



والعدل المراد في التعدد هو القسمة بالسوية في المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفي الزمان ، وفي متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئاً له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتي مثلاً بيجامة « منامة » صوف ويضعها عند واحدة ، ويأتي بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا . لا بد من المساواة ، لا في متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذي تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهم في النعال التي يلبسها في بيته ، فيأتي بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد ، وذلك حتى لا تبدل واحدة منهم على الأخرى قائلة : إن زوجي يكون عندي أحسن هنداماً منه عندك . والعدالة المطلوبة - أيضاً - هي العدالة فيما يدخل في اختيارك ، لأن العدالة التي لا تدخل في اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت في المكان ، وفي الزمان ، وفي المتاع لكل واحدة ، وفي المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ، لأن ذلك ليس في مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذا فيقول : عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ، يعني القلب) .
إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ نَعْدِلَوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْنَا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك أشياء لا تدخل في قدرتك ، ولا تدخل في اختيارك ، كان ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تبدل واحدة على واحدة . وإذا كان هذا في النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة - بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لا بد أيضاً من العدالة .

والذى يفسد جو الحكم المنهجي لله أن أناساً يمدون رجلاً عدداً ، فأخذ إباحة الله في التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين ، فياخذون من ذلك حجة على الإسلام . والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا في قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، التباين الشديد الذى يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى في المأكل والملبس والتعليم !

إذن فالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له . فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شطط ، لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله ، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هى الشيء الذى يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور ، لا ، الثغرة هى الفجوة حتى فى القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام .

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسُد كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع فى العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عند قدرته ، وإن وقف به عند اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر فى بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه فى أيامهن فأخذ قدرة الغير . وكان إذا سافر يقرع بينهن ، هذه هى العدالة .

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع فى الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليزِم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوج واحدة ، هل انتفتت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يحمل الرجل زوجته . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتى إليها وهى واحدة وليس لها ضرائر ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها أى أعطها الفتوى .

قال الصحابي : لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

ذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكات ثلاثا ، فهي تستحق الليلة الرابعة .
وَمَرَّ عَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنَ الصَّحَابِ ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ كَيْفَ يَفْقَى حَقَّ فِي أَمْرِ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أى لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفاً هو العدالة حتى في ميل القلب وحيه ، لا .
إنما العدالة في الأمر الاختياري ، ومادام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال - سبحانه - : « فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ » . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا : إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل .

وهؤلاء نقول : هل يعطى ربنا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول : اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا الفهم ؟ إن الحق حين قال : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » أى لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل ؛ لأن ذلك ليس في إمكانكم ، ولذلك قال : « فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ » .

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ، ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلّسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من المسائل التي تتعرض للأسرة ، وربما الرجل . فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته ، فإذا يكون الموقف ؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها ، أم تظل عنده ويأتى بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها ؟ أو يطلق غرائزه في أعراض الناس ؟

إن الحق حينما شرع ، إنما شرع ديناً متكاملأ ، لا تأخذ حكماً منه لتترك حكماً آخر .

والأحداث التي أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألباتهم إلى كثير من قضايا الإسلام . وأنا لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى ينهوا مسألة الخليلات . والخليلات هن اللاتي يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلفظاء ليس لهم أب .

إن من الخير أن تكون المرأة الثانية ، امرأة واضحة في المجتمع . ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير في هذا الموضوع للدكتور محمد خفاجة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها في إباحة التعدد عند هذه الآية .

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهي : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذي ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فإله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد . والمباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر . إذا كان هناك تعدد في طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين في العدد ، فإن التعدد في واحد لا يتأتى ، والمثل هو كالاتي :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسي فكل واحد يجلس على كرسي ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسيّاً للجلوس وكرسيّاً آخر ليمد عليه ساقيه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسيّاً ، فواحد من الناس يأخذ كرسيّاً للجلوس وكرسيّاً آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف في طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد - واقعاً - ممنوع . لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهي المسألة ، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والفائض كما قلنا معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضربنا المثل من قبل في النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلًا من الذبوك والبقية إناث . إذن فالإناث في النبات وفي الحيوان وفي كل شيء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التي تفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن تعف الزائدة فتكبت غرائزها ونحبط ، وتنفس في كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل ، وإما أن تنطلق ، تنطلق مع من ؟ إنها تنطلق مع متزوج . وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتنعاص الفاضل من النساء ، ولكن بشرط العدالة . وحين يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أي إن لم نستطع العدل الاختياري فليلزم الإنسان واحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتجادل ، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ، لأن المسلمين الآن في خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم . وما حب المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، « ملك اليمين » .

ولكننا ندافع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولتر المعنى الناضج حين يبيع الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفى الرق ، ولم يأت ليجهء بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عند الإسلام مصارف تصفية الرق ؛ فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب : اعتق رقبة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر في صيام ، وكفارة قتل .. إلخ .. إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أريد أن يبقى على الرق ، أم يريد أن يصفيه ويمحوه ؟

ولنفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجوارى :

- إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق . فإن كلفتها فأعنها ، أى فضل هذا ، يدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء إلحاح الغريزة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تزين لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم . والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها الغرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتمتع مثلها . ويريد الحق أيضاً أن يعمق تصفية الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أمة ، والذى تلده يكون رقيقاً ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، وفى ذلك زيادة فى تصفية الرق ، وفى ذلك إكرام لغريزتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق : « فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ، فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا . وبعض الناس يقول : « أدنى ألا تعولوا » أى ألا تكثر ذريتهم وعيالهم . ونقول لهم : إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون السبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر . وقوله : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العول فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة . وإذا ما زاد العدد فإن النصيب فى التوزيع ينقص .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هِيَئًا مَرِيئًا﴾

والمقصود بـ « صدقاتهن » هو المهور ، و « النحلة » هي العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا . إنه حق وأجر بضع . ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أى فليكن إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وازع دين لا حكم قضاء ، والنحلة هي العطية .

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهي للمعانى ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى :

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل في المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كلاً منهما له متعة وشركة في ذلك ، وفي رغبة الإنجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضاً قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل في المنزل والرجل سيكدح خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وأتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر فى « أتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله : « وأتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصداق ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره ، وإما أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أخته مثلاً ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر فى هذه الآية - إذن - إما أن يكون للأزواج وإما أن يكون للأولياء . وحين يُشرع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريجيات الفضل .

لذلك يقول : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هيناً مريئاً » .

لقد عرّف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أوولى الأمر فى أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع . ولكنه سبحانه فتح باب أريجية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر ، وهذا ادعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

النفس ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب الحياء ، فإلهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . ه فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً . والهنئ هو الشيء المأكول وتستبيغُه حين يدخل فمك . لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً في اللذة وفي المضغ وفي الأكل ولكنه يورث متعبة صحية . إنه هنيء ، لكنه غير مريء . والمقصود هو أن يكون طيب المظعم وليس له عواقب صحية رديئة . وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج .

إذن فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضروري أن يكون مريئاً . وعلينا أن نلاحظ في الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً .

والإمام علي - رضوان الله عليه وكرم وجهه - جاء له رجل يشكى وجعاً ، والإمام علي - كما نعرف - مدينة العلم والفتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأي والفتوى .

لم يكن الإمام علي طبيياً . . لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام علي وإشرافاته .

قال الإمام علي للرجل : خذ من صدق امرأتك درهمين واشترِهما عسلاً ، وأذب العسل في ماء مطر نازل لساعته - أي قريب عهد بالله - واشربه فإن سمعت الله يقول في الماء ينزل من السماء :

﴿ وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعت سبحانه وتعالى يقول في العسل :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعت يقول في مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع في دواء البركة والشفاء الهنيء والمرىء عافاك الله إن شاء الله . لقد أخذ الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علي علاجاً من آيات القرآن .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضايا البتامة والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
فِيهَا رِزْقُهُمْ فِيهَا وَكُسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا

مَعْرُوفًا ﴿٥﴾

ومن هو السفیه ؟ إنه الذي لا صلاح له في عقل ولا يستطيع أن يصرف ماله بالحكمة . ومن الذي يعطى ماله إلى سفیه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف في المال - ومثال على ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد منا يلزم نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلزم خصمه ، ولزم الخصم يؤدي إلى لزم النفس لأن خصمه سيلزمه ويعيبه أو لأنكما سواء . إذن فقول الحق : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم » يعني أن الله يريد أن يقول : إن السفیه يملك المال ، إلا أن سفیه يمنع من أن يحسن التصرف . وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفياً فالمال ليس له - تصرفاً وإدارة - ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة .

أو أن الحق سبحانه وتعالى يعالج قضية كان لها وجود في المجتمع وهي أن الرجل إذا ما كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يجب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف في المال . وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه : « لا إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ؛ لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت في يد غيرك .

« ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً . وارزقوهم فيها ، وهل السفية لا يعيش ؟ وهل يأكل السفية دون أكل الرشيد ؟ أيلبس السفية دون لبس الرشيد ؟ أيسكن السفية دون مسكن الرشيد ؟ أيتسم الإنسان في وجه الرشيد ولا يتسم في وجه السفية ؟ لا ؛ لذلك يأمر الحق ويقول : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً ، ذلك أمر بحسن معاملة السفية ، وإياكم أن تعيروهم بسفهم ، ويكفيهم ما هم فيه من سفه .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى اليتامى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ٦ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر في التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولي في اختبار اليتيم

وتدريبه على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتيم إلى حد البلوغ ثم تبتليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربيه في مسائل جزئية فإذا تبين واتضح لك اعتدائه منه وحسن تصرف في ماله ؛ لحظتها تجد الحكم جاهزاً ، فلا تضطر إلى تأخير إنشاء الأموال إلى أن تبتليه في رشده . بل عليك أن تختبره وتدربه وتمتحنه وهو تحت ولايتك حتى يأتى أو أن يبلغ الرشد فيستطيع أن يتسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا تمر على المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

فسبحانه يقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً . »

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريبه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافاً . والإسراف هو الزيادة في الحد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم . وعندما قيل لرجل شره : ماذا تريد أيها الشره ؟ قال الشره : « أريد قصعة من ثريد أضرب فيها بيدي كما يضرب الولي السوء في مال اليتيم » . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، ونجد الحق يقول : « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » .

إن الحق سبحانه يحذرنا من الإسراف في مال اليتيم في أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عند الولي شيء من المال أى أن يسرف الولي فينفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كياله يشرع تشريفاً لا يمنع قوامه الفقير العادل غير الواجد . كان الحق قادراً أن يقول : لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنده مال لأنه في غنى عن مال اليتيم .

لكن الحق لا يمنع الفقير التزيه صاحب الخبرة والإيمان من الولاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولي : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيراً

فليأكل بالمعروف ، فلا يقولن أحد عن أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعنا يده على مال اليتيم فإنه يأكله . لا ، فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمتنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا لليتيم ؛ لأننا نريد من يملك رصيда إيمانيا يعلو به فوق الطمع في المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصى على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله في العمل الذي يقوم به .

وكلمة المعروف تعني الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته . ويقول الحق : « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » وانظروا الحماية ، هو سبحانه يصنع الحماية للولي أو الوصى ، فالحق يعلم خلقه ، ويخلق من الأغيار . والولي على اليتيم لابد أن يلى الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراضيه في كل شيء . نقول له : لا ، أعطه بقدر حتى لا تفسده . فإذا ما أعطى الولي اليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب في أشياء كمالية لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يتركز كرهه ضد الوصى ، فيقول له : لقد أكلت مالي ؛ لذلك يوضح الحق للولي أو الوصى : كما حمت اليتيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك - أيها الولي - حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأغيار النفسية ، وربما وجد عليك وكرهك ؛ لأنك كنت حازما معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرهك ربما التمس فترة من الفترات وقام ضدك واتهمك بما ليس فيك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهودا عدولا لحظة تسليمه المال . وهذه الشهادة لتستبرئ بها من المال فحسب ، أما استبراء الدين فموكول إلى الله « وكفى بالله حسيبا » .

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف في المرأة والضعف في اليتيم ، لأن الحال في المجتمع الذي جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أجنحتهم ، وكانت القاعدة الغريبة عندهم هي : من لم يطمع برمح

ولم يند عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة . وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليصفى هذه القاعدة . بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال ، ولهذا قال الحق سبحانه :

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

ومن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الغلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظا جليلا هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محسوبون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أحوالهم وسواعدهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضا إذا كانت قوانين « مندل » فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العفة أو الخلق ، فلماذا لا تورثونهم أيضا فى الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق : « نصيبا مفروضا » فلا بد أن يوجد فرض ، ويوجد مفروض عليه ، والفرض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و « أوجب » ، فالفرض يكون قادما من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئا .

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدرا معلوما ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه . . ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يَدْخُلَ فى العملية أناسا قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء مَنْ لا نصيب له ، إياكم أن يلهيكم هذا النصيب المفروض عن لا نصيب له في التركة .

لذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ ﴾

وحين يحضر أولو القربى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورث عليهم انتهت مسأله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين : إن الورثة إنما يأخذون غنيمة باردة هبطت عليهم مثل هذا الموقف يترك شيئاً في نفوس أولى القربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولى القربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئاً من التركة فرضاً لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ، لذلك يأتي الأمر الحق : « فأرزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ، فلو أنهم لم يحضروا القسمة لاختلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن ترزق اليتامى وأولى القربى والمساكين حتى نستل منهم الحقد أو الحسد للوارث ، أو الضغن على المورث ، وبذلك يشيع في الناس شيء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئاً من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقدين على الورثة ولا على المورث ، ولا يكتفى الحق بالأمر برزق هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن نقول لهم : قولاً معروفاً ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولاداً ويورثوهم ، ومن الذي يجب عليه أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ إنهم الوارثون إن كانوا قد بلغوا الرشد . ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيمًا ؟ فالخضور هم الذين يقولون لأولى القربى واليتامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لنا ولاية عليه ، ولو كان لنا ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفي مثل هذا القول تطيب للخاطر .

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » يجب أن تكونوا في ذلك الموقف ذاكرين أنه إذا كنتم أنتم الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيباً من الميراث . إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مرة في موقف من يطلب الله له ولأولاده . إذن فالحكم التشريعي لا يؤخذ من جانب واحد ، وهو أنه يلزم المؤمن بأشياء ، ولكن لناخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء .

إن الحكم التشريعي يعطيك ، ولذلك يأخذ منك . ولهذا قلنا في الزكاة : إياك أن تلاحظ يا من تؤدي الزكاة أننا نأخذ منك حيفاً ثمرة كدحك وعرقك لنعطيكها للناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لنؤمّنك إن صرت عاجزاً . وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين رباني حكيم ..

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿١﴾

والإنسان حين يترك ذرية ضعيفة يتركها وهو خائف عليهم أن يضيعهم الزمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن ذرية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى ذرية ضعيفة تركها غيرك فلتعطف عليها ، وذلك حتى يعطف الغير على ذريتك الضعيفة إن تركتها . واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يرقه إلى ذريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعمرو بن العاص اجتماعا في أواخر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقي لك من حظ الدنيا ؟ . وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين ورئيس دولة قوية غنية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيبه ، وأما اللباس فقد سئمت ألينه ، وحظي الآن في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف .

وصمت معاوية قليلاً وسأل عمرًا : وأنت يا عمرو ماذا بقي لك من متع الدنيا ؟ .

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال : أنا حظي عين خرازة في أرض خوارة تدر على حياقي ولولدي بعد عماتي .

إنه يطلب عين ماء مستمر في أرض فيها أنعام وزروع تعطى الخير .

وكان هناك خادم يخدمهما ، يقدم لهما المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معها في الحديث .

فقال للخادم : وأنت يا دوردان ، ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟ أجاب الخادم : بقي لي من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنعة معروف أضعها في أعناق قوم كرام لا يؤدونها إلى طول حياقي حتى تكون لعقبى في عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله :

﴿ وَلَيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾

﴿ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا مَّيِّدًا ۝ ﴾

فالذين يتقون الله في الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله في ذريتهم الضعيفة .

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذي ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ بِنَا عِلْمَ رَبِّكَ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٥٦ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِهِ خَبْرًا ٥٧ قَالَ مَسْجُودِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٥٨ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ وَحَقِّ أَحَدٍ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ٥٩ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقْنَاهَا قَالَ أَنْخَرَفْنَاهَا لِنُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ٦٠ ﴾

(سورة الكهف)

لقد جرب العبد الصالح موسى في خرق السفينة - كما توضح الآيات - فقال العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَدْبَرْتُهُ عَنْكَ ٦١ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٦٢ ﴾

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر الغلام الذي قتله العبد الصالح وقول موسى له : « لقد جئت شيئًا نكرا » .

ثم جاء إلى أهل قرية فطلبوا منهم الطعام ، وحين يطلب منك ابن سبيل طعاماً فاعلم أنها الحاجة الملحة ؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد نظن أنه يكثر المال ، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك .

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لهما ؟ .

بقول الحق :

﴿ فَأَنْطَلَقًا حَتَّى إِذَا أَنْتَبَ أَهْلُ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ (٧٧)

(سورة الكهف)

إنها قرية لثيمة ، ووجد العبد الصالح في القرية جداراً يريد أن يسقط وينقض فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عنده حفيظة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعاماً فلم يطعموهما ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لثام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجراً .

لقد غاب عن موسى ما لم يغيب الله سبحانه عن العبد الصالح ، فبالله لو أن الجدار وقع وهم لثام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكثر المتروك لليتامى المساكين ، فلا بد أنهم سيفتصبون الكثر . إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكثر عن هؤلاء اللثام . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٧)

(سورة الكهف)

إذن فالعلة في هذه العملية هي الحماية لليتيمين ، ولنلق بالاً ولننتهز بملاحظ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جلد عمراً افتراضياً للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما ؛ ليرى كلاهما الكثر ، لقد تم بناء الجدار على مثال القبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكثر . إنه توقيت إلهي أراحه الله ؛ لأن والد اليتيمين كان صالحاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكثر لولديه اليتيمين ؛ لذلك فلنفهم جيداً في معاملتنا ، قول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ۖ

وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ۝

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شاباً فذاتيته تكون هي الموجودة . لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتية أولاده عنده ، ويحرم نفسه ليعطى أولاده ، وعندما يرى أن عياله مازالوا ضعافاً ، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف ، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان : إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطى للضعاف قوة ، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من بتامى ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم . .

والقول السديد من الأوصياء : ألا يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بنى ويا ولدى .

وحين يتقى المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقى الله في أولاده .

ومازال الحق يضع المنهج في أمر اليتامى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ ۖ

سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ۝

لماذا يركز القرآن على هذه الجزئية ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم برضا ، فإذا كان الطفل صغيراً ويرى أباه يسعى

في شأنه ويقدم له كل جميل في الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكفله المجتمع الإيماني الذي يعيش في كفالة عوضته عن أب واحد بأبائه إيمانيين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخطبه بدون فزع . فالذي يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا مات أبوه وصار يتيماً فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه : إن أبي عندما يموت سأصير مضيعاً . لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أمّاً لليتيم لاختلف الأمر ، فإذا ما نزل قضاء الله في أبيه فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ

وَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۖ ﴾

(سورة النساء)

إن كل العملية السلبية والتهبية أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكل فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأى نهب يكون من أجل الأكل . ولذلك نقول في أمثالنا العامة عن النهاب : « فلان بطنه واسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لأكل مال اليتيم : أنت تحشو في بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل في بطنه ما يؤدي إلى النار في الآخرة . وهذا قد يحدث عقاباً في الدنيا فيصاب أكل مال اليتيم في بطنه بأمراض تحرق أحشائه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سمات أكل مال اليتيم : فالدخان يخرج من أفواههم . وإياك أن تفهم أن البطون هي التي ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون . بل سيكون في البطون نار وسيصلون سعيراً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا
تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ
كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَلَّهُ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

ونعم الرب خالقنا ؛ إنه يوصينا في أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كاننا
عند ربنا أحب منا عند آبائنا . وقوله الكريم : « يوصيكم الله في أولادكم » توضح
أنه رحيم بنا وعجب لنا . ومادة الوصية إذا ما استقرأناها في القرآن نجد - بالاستقراء -
أن مادة الوصية مصحوبة بالباء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِـَء لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

وقال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة الشورى)

وقال الحق أيضاً :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقاح)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التي تأتي للإلصاق .

لكن عندما وصَّى الآباء على الأبناء قال : « بوصيكم الله في أولادكم » فكان الوصية مغروسة ومثبتة في الأولاد ، فكلمها رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية . وما هي الوصية ؟ إنها « للذكر مثل حظ الأنثيين » وقلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكاية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يربى في النفس الاشتياق للحكم ، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتى الحكم بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشئ حين نطلبه النفس تكون مهياة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلاحظ ذلك في مناسبة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولاً :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى القُربى ، ثم بآى الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من نهبه ، وبعد ذلك يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم » ويأتى البند الأول فى الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » . أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المطلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكىال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبا إلى الأنثى ، لأنه لو قال : « للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل . لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذى يخصها سيقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها .

إذن فأيهما أكثر حظا فى القسمة ؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل فى هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن فى هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل نصيبها المكىال الذى يُرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على الأنثى . وهى مطلوب لها زوج ينفق عليها . إذن فما تأخذه من نصف حظ الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عرض ، فصانها ، فإن لم تتزوج تحمد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيا نفسه لها بالحل . وأن يملك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فبآى الحق فى أهم شىء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، والدليل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للعقل مهمة إبداعية .

إنه - سبحانه - لا يأتي بالنصوص كمواد القانون في الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطى في مكان ما جزءاً من الحكم ، ويترك بقية القانون لتتضح معالته في موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهي كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينقلك من شيء إلى شيء ، ويستكمل حكماً في أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل . وأنت إذا كنت بصدد شيء فلا تظن أن هذا الشيء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتي استطراداً تتداخل مع الشيء الذي تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة التيمم التي تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الدربة في الإطار الذي يضم الحياة كلها . وما يحكم أولاً هو دينك ، فلتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك في الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل في المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك في أي أمر جزئي فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتشغل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبئ كل قرين في مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه .

ونحن نلعب أيضاً مع أولادنا لعبة إخفاء شيء ما في يد ونطبق أيدينا ونترك الابن يجمن بالحدس في أي يد يكون الشيء ، إنها دربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوى الملاحظة ويمتلئ بالذكاء ، فهو يرى يَدَي والده ليقارن أي يد ترتعش قليلاً ، أو أي يد ليست طبيعية في طريقة إطباق الأب لها فيختارها ، ويتصر بذلك ذكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل على الاستنباط والفهم ، وبذلك تعلم الطفل ألا يأخذ المسائل ضربة لازب بدون فكر ولا قُربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة في المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين

فلهن ثلثا ما ترك ، أى أنه إن لم ينبج المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالآية تعطىها النصف من الميراث ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، وبقي شيء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للابنتين في إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما تراث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقي أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شيء آخر ، لتعرف أن القرآن يأبى كله كمنهج مناسك ، فهناك آية أخرى في سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر لترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكَ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَكَذَا لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلُبَانِ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ يَكْلِمُ عُلَمَاءَهُ ۝ (١٧١) ۝

(سورة النساء)

لقد جاء هنا بأحق المورث وأوضح أن لها الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد - ابن أو بنت - فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما الصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ إن ابنتى المورث الصق به من أخته ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فتأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فتأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستاخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثي ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع في الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالثنى في الآية التي تورث الأخوات ، لناخذ الثنى هناك - في آية توريث الأخوات - لينسحب على الجمع هنا ، وناخذ الجمع هنا - في آية توريث البنات - لينسحب على الثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أى يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذى سأل وطلب الفتيا قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا عشقا في التكليف « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هي القرابة التي تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَبَسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَرَّ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ١٧٦ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التي نحن بصدد خواطرنها الإيمانية عنها : « ولأبوية لكل واحد منها السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن لم يكن له أولاد فلأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآني « فإن

كان له إخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين ، ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدى الدين الذى عليه . والوصية هنا مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، وقد قدمها الحق للعناية بها حتى لا نهملها . ويذيل الحق هذه الآية :

﴿ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصبة على قدر ما تظن من النفعية في الأبناء أو من النفعية في الأبناء ، فالنفعية في الأباء تنضح عندما يقول الإنسان : « لقد ربانى أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية في الأبناء تنضح عندما يقول الإنسان : إن أبى راحل وأبنائى هم الذين سيمحملون ذكرى واسمى والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ، فليس لك شأن بهذا الأمر : « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً » .

ومادمت لا تدري أيهم أقرب لك نفعاً فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها في الأنصبة كما يجب أن تكون .

ونحن حين نسمع : « إن الله كان عليهما حكيماً » أو نسمع : « إن الله كان غفوراً رحيماً » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير . ومادام كان فى الأزل عليهما حكيماً وغفوراً رحيماً فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأغيار لا تأتى إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما تقرأ : « إن الله كان عليماً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيماً » فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه : ولا يزال كذلك .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ
الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ
بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ
لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ
كَفْلًا أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

والآيات تسير في إيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ، وهذه عدالة ، لأن الرجل حين يموت امرأته قد يتزوج حتى يبنى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها منه وهي عرضة أن تتزوج وتكون مسئولة من الزوج الجديد .

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكفالة - كما قلنا - أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أي لا أصل له ولا فصل متفرع منه .

فإذا كان للرجل الكلالة أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التي يوصي بها أو دين . ولماذا يتم تقرير هذا الأمر ؟ لنرجع مرة أخرى إلى آية الكلالة التي جاءت في آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ

مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيَيْنِ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءًا عَالِمٌ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

في الآية الأولى التي نحن بصددھا يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء في الثلث . هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التي يختص بها الحق الأختين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معهما ما يعصبهما من الذكور فهي في الإخوة الأشقاء أو الأب ، هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة .

ولماذا يعنى قوله الحق : « غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا ضرر لأحد على الإطلاق في تطبيق شرع الله ؛ لأن الضرر إنما يأتي من الأهواء التي تفسد قسمة الله . فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يدخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب في ميراث العم أو بنات العم الشقيق أو لأب ، لئلا هؤلاء من أصحاب الهوى يقولون : إن الغرم على قدر الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات ولهن عم ، ليس مطلوباً من العم أن يرث البنات ؟ فلماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفي الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن نلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتي نصيب للعم في الميراث . علينا أن نعرف أن الغرم أمله الغنم .

وقلنا: إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان في

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى في آخر آية منها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكَ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَرَّ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الْثُلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٧٦)

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللثنتين الثلثين ، وبين الكلالة التي يجعل الله فيها للمنفرد السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشرار في الثلث دون تمييز للذكر على الأنثى ؟

لابد أن نفرق بين كلاله وكلاله ..

هما متحدتان في أنه لا أصل ولا فرع للمتوفى . والمسألة هنا تتعلق بالإخوة .

ونقول: إن الإخوة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما أخوة لأب، وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصبه الأصلية ، وهما المعنيان في الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التي نحن بصددنا الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أخا لأم فقط ، وإما أن يكون أخا لأب ، أو أخا لأب وأم . فالحكميان لذلك مختلفان ، لأن موضع كل منهما مختلف عن الآخر . وإلا لو أن مستشرقاً قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكتلتاهما متعلقتان بميراث الكلاله ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شيء يطعن به ديننا ويطعن به القرآن لقال - والعياذ بالله - : القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس، ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف، ومرة أخرى الثلثان، ومرة للذكر مثل حظ الأنثيين ! ونود

على من يقول ذلك : أنت لم تلاحظ المقصود الفعل والواقعي للكلالة ؛ لذلك فانت تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء .

والحق قال : « من بعد وصية يوصي بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن في كل توريث هذه « البعديّة » أى أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدين .

ولنا أن نسأل : أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لاشك أنه الدين ؛ لأن الدين إلزام بحق في الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تقدم الوصية - وهي التطوع - على الدين ، وهو للإلزام في الذمة .

وعندما يقول : « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ، وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصى ، ففي بعض الأحيان يكون المورث كارهاً لبعض المستحقين لحقهم في ميراثه ، فيأتى ليوصى بمنع توريثهم أو تقليل الانصباء ، أو يأتى لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطى لمن يكرهه من أهله وأقاربه المستحقين في ميراثه ، فيقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى وإن كان مستغرقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين وبذلك يترك الورثة بلا ميراث .

وهذا يحدث في الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطيهم الله ولداً ذكراً يعصّبهم ، فيقول الواحد من هؤلاء لنفسه : إن الأعمام سيدخلون ، وأبناء الأعمام سيدخلون في ميراثي ، ف يريد أن يوزع التركة على بناته فقط ، فيكتب ديناً على نفسه للبنات . ونقول لهذا الإنسان : لا تجحف ، أنت نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً وهن لا عصبة هن ، فمن المسئول عنهن ؟ إنهم الأعمام ، فالغرم هنا مقابل الغنم . . ولماذا تطلب البنات الأعمام أمام القضاء ليأخذن النفقة منهم في حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة . فكيف تمنع عن إخوانك ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من الناس يرغب الواحد منهم ألا يعطى عمومته أو إخوانه لأى سبب

من الأسباب ، فهاذا يفعل ؟ إنه يضع الوصية ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارة للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هنالك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للتركة حتى لا يأخذ الأقارب شيئاً .

والإنسان في هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف في كل لحظة في الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

والحق بلفتنا ألا نضر أحداً بأي تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصية وآداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق، ولكنها من الله ؛ لذلك ففيها إلزام وفرض ، فسبحانه القائل :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا افتراض ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ أَنْفِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتي من المالك الأعلى ، فمعنى ذلك أنها افتراض ، ويذيل الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية : « والله عليم حكيم ، أي إياكم أن تتصرفوا تصرفاً قد يقره ويمضيه القضاء ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل ديناً على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضاً من أقربيه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عميت أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعملوا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبده ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فاقض له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » (١) .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقاً ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبي بمقتضى البينة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتناقض مع تسلسل الحق ، لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأتينا حين نختصم إليه يجب ألا يستخدم واحد منا ذلاقة اللسان فى أخذ ما ليس له ، لأنه حتى لو أخذ شيئاً ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

إذن فمعنى ذلك أنه يجب علينا أن نحذر فى الأمور ، فلا نغمى ولا نأخذ شيئاً بسلطان القضاء ونحمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم يحلل حراماً أو يحرم حلالاً ، لا . فالحلل بين ، والحرام بين ، والقاضى عليه أن يحكم بالبينات الواضحة .

ومثال على ذلك : هب أنك اقترضت من واحد ألفاً من الجنيهات ، وأخذ عليك صكاً ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترض منه : « عندما

(١) رواه مالك ، واحد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك أرجو أن ترسل لي الصك ، ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميتة : « إن الصك عندنا » واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدين . هنا يحكم القضاء بضرورة تسديد الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدين في ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورثة الدين مرة أخرى إذا علموا أن مورثهم حصل على دينه .

ولذلك يقول لنا الحق : « والله عليم حلیم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا إنه « حلیم » فليأكد أن تغتربان واحدا حدث منه ذلك ، ولم يتضم الله منه في الدنيا ، فعلم انتقام الله منه في الدنيا لا يدل على أنه تصرف حلالا ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكن هناك عقابا في الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَلِكْ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله ، وحين يحده الله حدودا . . أي يمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ، فهو الذي يضع الحدود وهو الذي فصل حقوقا عن حقوق .

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق في البيوت والأراضي فنحن نضع حدودا واضحة ، ومعنى « حد » أي فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له

من آخر . والحدود التي نصنعها نحن والتي قد لا ينتبه إليها كثير من الناس ، هي نوعان : نوع لا يتمدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبني ، فالأول يبني على الأرض التي هي حق له ، ويكون الجداران ملتصقين ببعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع في أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث في النفع .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فالذي لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدا اسمه « حد الجيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بها حد الجيرة ، حتى لا تتمدى المياه التي يروى بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذي يمنع التملك .

إذن فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حقلك عند آخر حقلك » ، بل اجعل حقلك في الانتفاع بعيدا عن حقلك ، وهذا في الملكية . وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجمارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول في الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفي النواهي يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقت أمرا ، فلا تتعد هذا الأمر ، وهذه هي الملكية ، وإذا ما تلقت نهيا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهي عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذي توجد فيه من الأصل ، كن في جانب وهذه الأشياء في جانب آخر .

ولذلك قلنا في قصة أكل آدم من الشجرة : أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » ؟ أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تفريك . ففى الأوامر يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهي يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام ، كراعى يورعى حول الحمى يوشك أن يواقعها ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » (١) .

لذلك تجنب حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأل له زوجته لتناقشه فى أمر ما فعل المؤمن أن يمثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة فى المسجد . ولا يجعل المسائل قربية من المباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهنا فى مسائل الميراث يقول الحق :

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

(سورة النساء)

وكان يكفي أن يقول الحق - من بعد بيان الحدود - : «ومن يطع الله» ولكنه قال : «ومن يطع الله ورسوله» وذلك لبيان أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله في أنه يشرع ؛ لذلك فلا تغفل في كل شيء : «أريد الحكم من القرآن» .

ونرى من يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مفوض في التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكَ الرَّسُولُ فَخْذُوه وَمَا نَهَكَرْ عَنْهُ فَأْتُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين يتنادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا في سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله ، وينسون أو يتجاهلون أن في الكتاب الكريم تفويضا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه . وقولهم لمثل هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدم بن معدى كرب قال : حرم النبي صلى الله عليه وسلم «أشياء يوم خيبر منها الخمار الأهل وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بعديشي فيقول: بيني وبينكم

كتاب الله فيما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله^(١) .

فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟
إذن فقولهم الأحق دليل على صدق الرسول فيما أخبر . ويسخرهم الحق ،
فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبی على صدق كلام النبی ..

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذي يطيع الله ورسوله في الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة في الآخرة . لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجزاء على الدين ؟

إنه الجزاء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك في الدنيا « ومن يسير على منهج الله في الدنيا يدخل الجنة في الآخرة » فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن موضوع الدين هو الدنيا ، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم نجعل للدين موضوعا ، إليك أن تقول بموضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هي دار الجزاء ، وفي حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة ، وهي موضوع الامتحان ؟

إن المناهج التي يدرسها الطالب هي موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هي موضوع الدين ، والآخرة هي جزاء لمن نجح ولمن رسب في الموضوع ؛ لذلك فإياكم أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدنيا هي موضوع الدين . فالدنيا تقابلها الآخرة والدين لها . الدنيا مزرعة والآخرة محصلة . بهذا نرد على من يقول : إن الدنيا منفصلة عن الدين .

ومن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « من » للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المثني وتدل على الجمع ،

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر .

مثال ذلك نقول : جاء من لقيته أمس ونقول أيضا : جاء من لقيتها أمس ، ونقول ثالثا : جاء من لقيتهم أمس .. إذن فهـ مَنْ « صالحة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع . كما قلنا في أول الفاتحة :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القياس أن نقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَنْ) على المفرد فقد لحظنا لفظها ، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها .

ولن يقول ذلك نقول : إن هذا الكلام غير محقق علميا ، لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنها موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هي المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألت أخ كريم في جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه في سورة الرحمن :

﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ﴾

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه ونعالي :

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ١١ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ١٢ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَقَلَانٍ ١٣ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَنْعَثِرُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَتَفَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ١٤ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خاف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خاف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعاقب من أزمه أماكن ، فحين شاء أزلا أن يخلق خلقا أحصاهم عدا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعامل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه في الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاصي ، وأنشأ له مقعدا في النار ، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هي أزمة أماكن .

فإذا دخل صاحب الجنة جنته ، بقيت جنة الكافر التي كانت معدة له على فرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥ ﴾

(سورة الزمر)

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا .

إذن فالمعانى نجدها صوابا عند أى أسلوب من أساليب القرآن .

وهنا يقول الحق : « يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذى يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » فأين تجري الأنهار ؟

أنجري الأنهار تحت زروعها ، أم تحت بنائها ؟ ونعرف أن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المباني كيف ؟ ولكن ليس هناك شيء مستحيل على الله ، لأنها تصميمات ربانية .

فالحق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب فى المباني ، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة ، تكون فيه الجنات تجري من تحتها مياه الأنهار ، ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها والذى يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو - سبحانه - يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فقله - سبحانه - « جنات تجري تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجري وتغر من تحت الجنات . لا . هى تجري منها أيضا يقول الله تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى . إنها أنهار ذاتية . وعندما نقرا أن الأنهار تجري من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أصنع تصميمات مباني الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن تقيم مباني تجري من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهى مباني وتجري من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة في الطوب والأسمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة في المبنى . فالخلل الذي يحدث في المباني عندنا ، إنما يأتي من أثر الخيانة في تناول . ومن الممكن أن تجري الأنهار تحت قصور الجنة . التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا في هذه اللفتة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مباني تجري من تحتها الأنهار ؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل . لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر التي تعاني من أزمة إسكان ، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت النيل ، أم الفروع التي تأخذ من النيل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمستطحات المعطلة ، نقيم عليها مباني تسع مرافق الدولة كلها ، ويتم إنجاز المباني فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبني كل الأماكن حتى تصبح مسدودة بالمباني ، ولكن نبني الثلث ، ونترك فراغا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر ، ولا نتعدي على أرض خضراء مزروعة ، إنها إيماءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة ، ونستطيع أن نبني على الفراغات سواء أكانت فراغات في مساحات النيل شرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث . أم نبني المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء في هذا المجال .

والحق يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيميا ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذي يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور في معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبني مضيعة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها . هذا هو النعيم في تصور العمدة . ونحن في الحياة نخاف أن نترك النعيم بالموت أو يتركنا النعيم . لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هي تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه الغلبة ، إنه النجاح ، إنه الظفر المطلوب .

فلذا كان فوزنا في الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التي يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذي يأتي في الآخرة وهو فوز الخلود في جنة من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح في الدنيا بالفوز في أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذي يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسمنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن في سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو على كل هذا .

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحى الفهم لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقيق فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتي الحق بالمقابل : فيقول :

﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَبَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تين الأوامر وحدها وإما أن تين النواهي وحدها . فهي شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصها العاصي .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم .
لكن ماذا يمن يعص ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أن له العذاب .
« ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

هنا نجد « ناراً » واحدة ، وهناك نجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإذا كنا متبهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، فإننا نجد الملحظ الثاني وهو خلود للمؤمنين في الجنات ، أما الكافر فسيدخل النار . ولم يقل الحق: نيراناً ، ولم يقل الحق أيضاً: « خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون في الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاورون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنان ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان ، فإن الحق - سبحانه - يلحق به ذريته ويكون هو وذريته في النعيم والجنان كرامة له . فتكون الجنات مع بعضها وهذا ادعى للإنس .

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ ناره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم في النار ، فالأنس لن يطولوه أيضاً ، فكل واحد في ناره تماماً مثل الحبس المنفرد في زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » و« نار » و« خالدين » و« خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معنى . والطائع له جنات يأنس فيها بذريته وإخوته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً في الجنات ، أما العاصي فهو في النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مرة أليماً ، ومثال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فيجلبد عدوه حتى لا يرى شهادة الذي يعذبه . ويقول الشاعر :

ونجلى للشامنين أرىمو

أن ليرتب الدهر لا تضضع

فيكنتم الألم عن خصمه . لكن هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فهناك إهانة في النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة ، إياك أن تفهم أن هناك من يقدر على أن يتجلد كما يتجلد البشر عند وقوع العذاب في الدنيا - إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس في آن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أباً ، ووحدته أمأ ، وعالجت كيف بث الله منها رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجري به قدر الله في بعض خلقه بأن يتركوا أيتاماً ضعافاً ، وأنه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن نصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمان معهم ، وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة العفيفة لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضاً عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن النسب الاجتماعي . ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الميراث ، ويمنعون - كذلك - من الميراث من لم يظمن برمع ولم يضرب بخنجر أو سيف ولم يشترك في رد عدوان . فأراد الله سبحانه لهذه الفئة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليعيش العنصران في كرامة ويستبقيا الحياة في عزة وهمة وفي قوة ، فشرع الحق نصيباً محددًا للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق في الموارث . وأوضح سبحانه الحدود التي شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيما حذ من حدود . ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالداً في النار .

إذن فالحياة الإنسانية هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوجد لها - قبل أن يوجدها - ما يقيم أود الحياة الكريمة لذلك الإنسان المكرم ، فوفد الإنسان على الخير ، ولم يفد الخير على الإنسان ، أي أن الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعناصر . لا ، لقد خلق الله هذه العناصر التي تخدم الإنسان أولاً وأعدّها لاستقبال الطارق الجديد - الإنسان - الذي اختاره سبحانه ليكون خليفة في الأرض . فالخير في الأرض الذي نستبقى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة في التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر في الزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر في كل الكائنات هي لحفظ النوع فقط .

وأراد - سبحانه وتعالى - أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنسانى ، ذلك أن المشقات التى يتطلبها النسل كثيرة ، فلا بد أن يجعل الله في عملية التكاثر متعة تغرى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعاف ليكمل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادام الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى ننشأ من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم ؟ نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون حياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ومجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبيّاً أو رجلاً أو هرمّاً ، بل نحن نجد في الحياة إنساناً هرمّاً مازال يحيا بيتنا ويموت حفيد حفيده ، لماذا ؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذى سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت فى أى لحظة . ومادام الإنسان يعيش مستعداً لأن يموت فى أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضا لنعلم أن المنهج الإيمانى ؛ منهج يجعل المؤمنين جميعا كالبنيان المرصوص بشد بعضه بعضا ، فإذا مات رجل وترك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم أباء من المجتمع الإيمانى ، فإن المنهج الإيمانى يستقر فى قلب اليتيم اطمئناناً وقيناً . ومن حكمة الموت ألا يفتن أحد فى أبيه أو فى الأسباب الممنوحة من الله للأباء ، بل نكون جميعا موصولين بالله .

ومادام الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السمي في الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فلم يُغر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك في الحياة حركة تسعه وتسع من يعول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك في الأرض ستنتفع أولادك أيضا .

ولذلك أوجد الله سبحانه في نفس كل والد غريزة الحنان والحب . ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متمكنة في نفوس الآباء . ولهذا يسمى الأب في الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذي يتحرك حركة واسعة في الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقية عمره ، لأنه تحرك بهمة وإخلاص ، وأفاد الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً أو يزيد ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكبد ويتعب في الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفي الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً . وتشاء حكمة الله العالية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع في المجتمع ، وهذا اسمه التفنيت الانسيابي . كان نجد واحداً يملك مائة فدان وله عدد من الأبناء والبنات . وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تنفتت الثروة بين الأبناء تفنيتاً انسيابياً وليس بالتوزيع القهري الذي ينشئ الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن نعود له حركة حياته ولن يعول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا

يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۝ (٣٦) ﴾

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأي واحد : هات المال الذي وهبت لك . وقلت سابقاً : إنه سبحانه وتعالى يحسن عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ (١١) ﴾

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة العبد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصي الحق العبد الغني : إن أخاك العبد الفقير في حاجة ، فأقرضني - أنا الله - بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير . ولم يقل للعبد الغني : أقرض أخاك ، ولكنه قال أقرضني . لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو المتكفل برزقهم جميعاً . . المؤمن منهم والكافر . ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذي استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التورث ، ليصنع التفتيت الإنسيابي للملكية حتى لا يأتى التفتيت القسري الذي يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا في نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأتى عليهم هذا التفتيت القسري ، يصبحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجيء . لكن عندما يأتى التفتيت الإنسيابي فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، وبذاتية راضية وبقدرة على الحركة ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْفِكْ أَمْوَالَكُمْ ۝ ﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يقول : أنا الذي ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذي رزقتك هذا الرزق ، مع أنه - سبحانه - هو الذي ملكك ورزقتك هذا المال حقاً ولكنه يوضح لك حقا في الحركة ، فيقول بعد ذلك :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُخْفِصْكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْفَانَكُمْ ۝ ﴾

(سورة محمد)

ولو ألح عليك فانت تبخل بها لأنك جنتها بتعب وعرق . ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلاً ، ثم أبقى شيئاً لأولاده ؛ والذي جاء بدخله كله ويبدده فيها حرمة الله وأسرف على نفسه في المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذلك ؟ .

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان في الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأني إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون ، لأن مالكم هائد من أهالكم .

ويقول الحق : « ونخرج أضعافانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن في المجتمع فالويل للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن في المجتمع كله ، وساعة يبرز الضغن في المجتمع ، انتهى كل شيء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعيف بما يحميهم ، وكذلك للنساء اللاتي كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق - سبحانه وتعالى - لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » ولإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ، لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار - والعياذ بالله - فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من تعول .

وهناك لون آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمراً محدوداً في الحياة وسيتمشي ، لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع في غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنساني

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً ، لذلك يأمرنا الحق - سبحانه - أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعاً من وعاء خبيث نجس ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدري أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيئاً في الكون ، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء التنظيف ليستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأروحية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى طاهرة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً ، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وخروجه غير محقوت أو موقوت . وما ينشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعاً منسوباً إليه . ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهيناً أو عارياً أو جاتعاً أو غير معترف به ؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنساناً مستوفياً لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقدحه واحد فيسبه وينال منه قائلاً : جئت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي .

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون ، فالتى تحاول أن تزيل أثر جرميتها يجبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقى ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمى الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين ، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحسن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأموناً عليه .

وهي لا تلقى بوليدها عند خمار أو دار سينما ، ولكن دائماً تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلقه وتضعه في أحلى الملابس ، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضاً من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنها - كما قلنا - تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأموناً عليه . إذن فحقى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى في دين الله ؛ وهذا شيء عجيب .

والله يريد أن يبنى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد للجرائم المفسدة أن توجد في البيوت ؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجا أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

وأضرب هذا المثل : نحن نجد الرجل الذي يجيا في بيت مظلم على الشارع وله

ابنة ومسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يحىء ويتعمد لينظر إلى ابنته فهذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه لو يبلغ ضده الشرطة ويغل الرجل بالغيظ والغيرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تليق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران ، فما الفرق بين الموقفين ؟

لماذا يفضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسلمى الأمر ، ويتم الزفاف ويوزر الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عوانٌ فى أيديكم »^(١) أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم أزواجهن بكلمة الله »^(٢) .

ومادام الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب : « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسان استبقاء نظيفا لا يُنجس أن تحىء منه ولادة ، ولا يُنجس منه المولود نفسه ، ولا يُذم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع . واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا على علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألتى سائل وأنا فى الجزائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات

(١) عوان : أسيرات جمع عاتية .

(٢) رواء النساء وابن ماجه .

نحو : « زوجتك موكلتي ، أو تقول هي : زوجتك نفسي » ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبت : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن يخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتى ، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب ، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر ، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية قسرية .

فى الحيوانات نرى الأنثى وهى تجار بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا: إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهادا ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات .

أما فى النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والحمير ، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلا ؛ فالأنوثة توجد فى « الشراشيب » التى توجد فى « كوز » اللرة ، وعناصر الذكورة توجد فى السنبله التى يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أوجد أحد عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لابد من أن تتلاحق إخصابا لإنشأ التكاثر ، فيوضح ربنا : اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات ، والنبات الذى يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها فى مكان مخصوص من النبات وله لون يجذبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ، لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا ندرى عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع غريزيا وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح . ولذلك يقول الحق :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ

بِخَبْرِينَ﴾ (٢٢)

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشتقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن - سبحانه - حفظ النوع بالمتعة ، وإليك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك .

إذن فإليك أن تلقى حيوانك المتوى إلا في وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب ، ولكيلا يكون مهينا ولا مدنسا في حياته ، فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك - سبحانه - سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق ، أو الرجل ، يكتفى بالرجل باللواط للمتعة ، أو رجل يستفع بامرأة على غير ما شرع الله . فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، ويستفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، نقول لها : أنت أيتها المرأة أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فبوضوح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة في ضوء منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجِيشَةُ مِنْ نِسَائِكَ
فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا
فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ
أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾

وه اللاتي ، اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض ، فلا يبلغ كل واحد في عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطاً قوياً ، لأن الأعراض ستجرح ، ولماذا « أربعة » في الشهادة ؟ لأنها اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنتان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا ، ماذا نفعل ؟

قال سبحانه : « فأمسكوهن في البيوت » أي احجزوهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن سبيلاً » وقد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له : إن كلمة « واللذان » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . ففي هذه الحالة يقول الحق :

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَاهُمَا مِنْكَ فَمَاذُومَاً فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
تَوَّاباً رَحِيماً﴾

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب في مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبا للمتعة هو الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يجاهر ، فهذا الشر معناه الإفساد التام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تعود على الفاحشة . ونحن لا نعرف ما الذي سوف يحدث من أضرار ، والعلم مازال قاصرا ، فالذي خلق هو الذي شرع أن يلتقي الرجل بالمرأة في إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعي ، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث .

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التي قررناها فلا بد أن يحدث أمر خاطيء ومضر ، ونحن عندما نصل سلكا كهربائيا بسلك آخر من النوع نفسه . . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق ، ونقول : « حدث ماس كهربائي » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة في قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة في العلاقات الجنسية مضرّة في البشر ؟

إننى أقول هذا الكلام لئسجل ، لأن العلم سيكشف - إن متأخرا أو متقدما - أن الله سرا ، وحين يتخصص رجل بامرأة بمنهج الله « زوجنى » . . . ونقول له زوجتك « فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيا . أما إن حدث اختلاف في الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذه هى الحرائق في المجتمع .

أكرر هذا الكلام لئسجل وليقال في الأجيال القادمة : إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله ، ولم يركنوا إلى الكسل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله ، ففطنوا إلى نفحات الله . والحق هو القائل :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فإذا كنا قد اهتمدنا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا . أما إذا حدث خطأ في الاتصال ، فالماس يحدث ونتج منه حرائق ، كذلك في العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة .

والحق سبحانه القائل :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب في غير الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟ وفي بعض رحلاتنا في الخارج ، سألنا بعض الناس : لماذا عُدّتم للرجل نساء ، ولم تعددوا رجالا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثبروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله ؛ حتى تقول المرأة الساذجة - متمردة على دينها - : « ليس في هذا الدين عدالة » ؛ لذلك سألت من سألتهم : أعتدكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسيا ؟

فكان الجواب : نعم في بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : بماذا احتظتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبي الدوري المفاجيء .

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى ن عزل المصابة بأي مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا .

قلت : لماذا ؟؟ فسكتوا ولم يجيبوا ، فقلت : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال في المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفاً لذلك قال :

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَتْحَةُ مِنْ إِسَاءِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْكَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ « نساءكم » هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيرنا ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس في البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى في العصر الحديث بالحجر الصحي الذي نضع فيه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أصيب بـ « مرض معدٍ » ومن أصيب بـ « العطب والفضيحة » .

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدى فكيف لا نعزل اللاتي أصيبن بالعطب والفضيحة ؟ لذلك يقول الحق : « فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لَهُنَّ سَبِيلًا » أى أن تظل كل منهما في العزل إلى أن يأتى لكل منهما ملك الموت . وحدثننا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عني خذوا عني : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » (١) .

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد .. والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت .

نرد فنقول : ومن قال: إن التشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء القرآن معجزة ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ وَمَا أَسْكُرُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة : حين يوجد نص ملزم بحكم ، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عمل في السيرة النبوية .

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالمعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل في إقامة الحد ؛ لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالتنسخ للحكم مثلا ، أما الفعل فإنه تطبيق ، وقد رجم الرسول ماعزا والغامدية ورجم اليهودي واليهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالفعل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة : إن الرجم لمن تزوج ، فإذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر ؟

والحكم هنا : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا في الحالة ، فهما يأخذان حكما واحدا . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذي يناسبه .

وحينما تكلم الحق عن الحد في الإمام - المملوكات - قال :

﴿ فَعَلَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

ويفهم من ذلك الجلد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين ، فالأمة تأخذ في الحد نصف الحرة ، لأن الحرة البكر في الزنا تجلد مائة جلدة ، والأمة تجلد خمسين جلدة .

ومادام للأمة نصف حد المحصنة ، فلا يأتي - إذن - حد إلا فيما ينصف ، والرجم لا ينصف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستبطا ، وقد رجم رسول الله . ولماذا تأخذ الأمة نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإمام مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك فهند امرأة أبي سفيان قالت : لو تزنى الحرة ؟ قالت ذلك وهي في عنف جاهليتها . أى أن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمة فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مجترأ عليها وليست عرض أحد .

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات ، وقد تسامل بعضهم عن وضع الأمة المتزوجة التي زنت ، والرجم ليس له نصف .

نقول : الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذى يؤلم . ونستشهد على ذلك بأية لنبيين الراى القاطع بأن العذاب شيء ، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر ، ونجد هذه الآية هي قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد المهدد :

﴿ لَا عَذِيبَتُهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذِيبَتْهُ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الذبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذى يمتنع به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ؛ لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ؛ لأن الله فرق بين العذاب وبين الذبح ، فقال على لسان سليمان : « لا عذبه عذابا شديدا أو لأذبعته » فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولنناقش الأمر بالمعقل :

حين يمتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض في البكر ؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما في البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرض الزوج أيضا ، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرض الأب والام . والإخوة والأعمام مثل البكر ، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون . فلذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهى ، فالأبناء طبقة تستديم ، لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سويتا بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض .

إن جرح العرض في البكر محصور وقد ينتهى لأنه يكون في معاصرين كالأب والام والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم في الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوى الله - وهو العادل - بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفاه رسول الله وهو المشرع الثانى الذى امتاز لا بالفهم فى النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الثيب بالثيب هو الرجم ، والبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم منطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ، لأن حفظ النوع هو أمر أساسى فى الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسن تربيته ونطعمه حلالا ، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى يمد خلقه حين يقفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فيثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مرارا ونكررها حتى ثبت فى أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ۚ

وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فلا يقولن قائل : إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها . ونرد عليه : لو فهمت أن الله قال : « ليظهره على الدين كله » وأضاف سبحانه : « ولو كره المشركون » ، « ولو كره الكافرون » كما جاء في موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر وينجل مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرک . ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أى كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام ، لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى :

بأنكم ستضطرون وتضغظ عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم عما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذى تكرهونه .

وحين تضغظ الحياة على الخصم أن ينفذ رأى خصمه فهذا دليل على قوة الحجة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث في زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى في العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما ثبت صدق الإسلام فى أنه حين ضمن ووضع للمخالفات التى تبقى النوع نظاما ، وهو التعاقد العلفى والزواج المشروع ، فالخلق قد ضمن صحة الخلق . لكن الحضارة الأمريكية لم تنب إلى عظمة قانون الحق سبحانه فرُوعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و « إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات : حرف « A » ، وحرف « I » ، و « D » .

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعى مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هى المخالطة الشافة ، ونشأت من هذه المخالطات الشافة فيروسات ، هذه الفيروسات مازال العلماء يدرسون تكوينها ، وهى تفرز سموما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية حول الفزع والهلح من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتي من كل للمخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج « إيجابا » و« قبولا » و« علانية » إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوسة أمام الناس ، هذا هو النظام الرباني للزوج الذي جعل في التركيب الكيميائي للنفس البشرية « استقبالا » و« إرسالا » .

وبالشر حين يستخدمون الكهرباء .. فالسلك الموجب والسلك السالب - كما قلنا - يعطيان نورا في حالة استخدامهما بأسلوب طبيعي . لكن لو حدث خلل في استخدام هذه الأسلاك فالذي يحدث هو ماس كهربائي تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلقى على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائي الطبيعي للنفس البشرية التي توصل ، والنفس البشرية التي تستقبل تعطى نورا وهو أمر طبيعي .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجهل شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير ويتفعل ويتمنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة : « أنا أريد خطبة ابنتك لابني » فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح .

إنها كلمة الله التي أثرت في التكوين الكيميائي للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبشر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت في النفس البشرية مفعولها الذي أراده الله من الاتصال بالطريق التنظيف الشريف المعفيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والمعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل في التكوين الإنساني يؤدي إلى لويثة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفِتْنَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ اَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَلَمَنْ شَهِدُوا فَلْيَسْكُوهِنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ اَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعنى أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة في الكمال المطلق . وقلت من قبل : إننى عندما أقول : « فلان أكل » قد يختلف المعنى عن قولى : « فلان أكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ في وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا في الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكل » ، أى أنه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة في ذاتها لم يزد حجمها .

أو هو يأتى في الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادى في الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغبة أربعة ، فنقول: إنه « أكل » ، إذن فصيغة المبالغة في الخلق إما أن تنشأ في قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك: «الله تواب» معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر، فالتوبة تتكرر. وإذا تاب الحق في الكبائر أليست هذه توبة عظيمة؟ هو تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع، وهو الذي خلق النفس البشرية ثم قنن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة.

والتقنين في ذاته يقطع العذر، فساعة أن قنن الحق لا يستطيع واحد أن يقول: «لم أكن أعلم»، لأن ذلك هو القانون، وحين يجرم فهذا إيدان منه بأن النفس البشرية قد تضعف، وتأتى بأشياء مخالفة للمنهج، فنحن لسنا ملائكة، وسبحانه حين يقنن يقطع العذر، وحين يجرم فهو إيدان بأن ذلك من الممكن أن يحدث. وبعد ذلك يعاقب، وهناك أفعال مجرمة، ولكن المشرع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانوناً، لا عن تقصير منه، ولكن التجريم يأتي كفرع.

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك، كالسرقة - مثلاً - إنه سبحانه وضع حداً للسرقة، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق، أو تزني، لذلك فالحد موجود، لكن هناك أشياء لا يأتي لها بالتجريم والعقوبة، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفي على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون. مثال ذلك اللواط، لم يذكر له حداً، لماذا؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله، بدليل أن اللواط موجود في البشر وغير موجود في الحيوان.

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق حملاً أنه لا يدخل في الحساب، لا، إنه داخل في الحساب بصورة أقوى، لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها، ولذلك لم يضع لها حداً أو تحريماً، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف بالتشريع أن يضع حداً لهذه المسألة.

إذن فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها، لا. هناك حساب، فقد تكون العقوبة أفلح، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للواط والمفعول به من أعلى جبل . إن عقوبتهما أن يموتا بالإلقاء من شاطئ جبل ، إذن فالمعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التقنين بالمعقوبة لأي أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتا عنها ، ولكن هو إجماع من طرف خفي أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث في الحيوانات التي هي أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعمل الإنسان الفاعل لخل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بيهيمة . نقول : يا ليت شهوتك المخطئة في التعبير عن نفسها بيهيمة ؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبدا ، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأي ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المخالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بيهيمة فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه الثواب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة في التوبة وفي قبولها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذي آمن ، لفقد التكليف ضرورته . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها المقاومة تنفيذ المعاصي أو حملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصي خضوعاً للتكليف الإيماني دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا خلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . ونحن بشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف في يوم من الأيام أمام معصية من المعاصي ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يقنن العقوبة ، وتقنين العقوبة للمعاصي دليل على أنه سبحانه لم يخرج الذي اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار المعاصي متورداً لا بأبه ولا بلغت من بعد ذلك إلى التكليف ، يبلغ في أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدَّ على الناس باب « الفاقدين » الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على العاصي رحم من لم يعص إنه القائل : « إن الله كان تواباً رحيماً » . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكي يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضاً قال : « تواباً رحيماً » أي أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أي معصية من البداية . فالرحمة ألا تقع في المعصية .

وبعد ذلك بشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ ﴾

ولتلغفت إلى دقة الأداء القرآني ، هو سبحانه يقول : « إنما التوبة على الله » وقد يقول واحد : مادام الحق شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصي وبعد ذلك أتوب . نقول له : إنك لم تلغفت إلى الحكمة في إيهام ساعة الموت ، فما الذي أوحى لك أنك ستحيى إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلغفت إلى دقة النص القرآني :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أي بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية . بل هو يتجاهل العقوبة ، لذلك قال رسول الله صل الله عليه وسلم :

(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)^(١) .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر تماماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هي الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل المصيبة ويخطئ لها ويفرح بها ويترفع بها ارتكيب ويفخر بزمان المصيبة ، وهناك من تقع عليه المصيبة ويعجز أن تنتهي بظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتسائل لماذا فعلت ذلك ؟ .

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا في عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينجس في اللهو ، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصي .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكيب مصيبة تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المصيبة ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت شيرة الشهوة غرق في الندم ، وبعد أن عاد استمر من زمن المصيبة . هكذا نرى الفارق بين المخطط للمصيبة وبين من وقعت عليه المصيبة .

والله سبحانه حين قدر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتفنين هذه التوبة ، وإلا لفرق العالم في شرور لا نهاية لها ، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم في التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

(١) رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة ، وفي رواية من مسلم واحد : (ولا ينزل أحدكم حين ينزل وهو مؤمن فليأثم لياكم) رواه عبد الرزاق : (ولا يذهب إليه وهو مؤمن) .

(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يفرغ) (١).

والحوار الذي دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعاً ويوقعهم في المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله - سبحانه - خيَّب ظنه وشرع قبول توبة العبد ما لم يفرغ ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة الفراغ فماذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ، لأنه تلب وقت ألا شر له ؛ لذلك فعل العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من ضرور المعاصي . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولاً ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق لهم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟ ، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد لرجحاً منه ، أو أن الله شرع التوبة للعباد ؟ لقد شرع الله التوبة فتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور : هي أن الله شرع التوبة للعباد ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أي أن أحداً لم يتكرر التوبة ، ولكن الذي خلقنا جميعاً قدر أن الواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله « ثم تاب عليهم » أي شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في المستدرک .

وبعد ذلك يكون القبول من الله وهو القائل :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة غافر)

تأمل كلمة « إنما التوبة على الله » تجمدها في منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً ومديناً وأحال دأته إلى غنى من العباد فإن الدائن يفرح ؛ لأن الغنى سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالناس بالتوبة التي أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع فيها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أى أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أى أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنوب وحين يقول سبحانه : « وكان الله عليهما حكيماً » فنحن نعلم أن كل تقنين لآى شيء يتطلب علماً واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ . والذين يتخطون في تقنينات البشر ، لماذا يفتنون اليوم ثم يعدلون عن التقنين غداً ؟ لأنهم ساعة قننوا غاب عنهم شيء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن في بالهم استدركوا على تقنينهم .

إذن فالاضطراب ينشأ من عدم علم المقتن بكل أحوال من يقنن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقتن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا في بيته أو في البيئة التي وصله خبرها ، فحق في الماضي لا يقدر ، ولا في المستقبل يقدر ، وكذلك في الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيئة ما يختلف عن الحاضر في بيئة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الغيب ثلاثة : أى أن ما يجعل الشيء غيباً عن الإنسان هو ثلاثة أمور :

الامر الأول : هو الزمن الماضى وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ، لذلك فالماضى قد حُجز عن البشر بحجاب وقوع الأحداث في ذلك الماضى ، ولذلك يلفتنا الله سبحانه وتعالى في تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْكَ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أو يتعلمه . ويقول أيضاً سبحانه :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ آل عمران)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التى يأتيه خبرها عن الله ، والرسول أُمى بشهادة الجميع ولم يجلس إلى معلم . إذن فالذى اخترق حجاب الزمن وأخبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثانى : هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان . فأنا أعرف ما يحدث فى مكافى ، ولكنى لا أعرف ما الذى يحدث فى غير المكان الذى أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب فى الحاضر على المكان فقط ولكن فى الذات الإنسانية بأن يضم الشخص فى نفسه . فالحق يقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شئ حاضر ومكتوم فى نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه فى أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذى جاءه إخباراً عن الله . وقد خرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان .

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّوْنَ الدَّبَرَ ۝٤٥ ﴾

(سورة القمر)

ونلاحظ أن كلمة « سيهزم » فيها حرف « السين » التى تنبئ عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية فى مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع فى بدر وولّى الدبر . حدث ذلك الإخبار فى مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة فى الترتيب الزمنى مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين فى مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذب المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذى قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى فى الوليد بن المغيرة وهو ضخم وفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرَطُومِ ١٦ ﴾

(سورة القلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تحمل على أنفه علامة فى أهل منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله فى زمن ماضٍ ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقُرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شيء . ويأخذون الجزئية البسيطة ويرقونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

- إذا أخبرنا رسول الله بغير مجلد فى الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث فى الآخرة .

ويُذِلُّ الحقُّ الآيةَ : « وكان الله عليماً حكيماً » أي علمياً بالتقنيات فشرع التوبة لعلمه - جل شأنه - بأنه لو لم يشرع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سبياً في شقاء العالم ؛ لأنه - حيثئذ - يكون هائلاً من رحمة الله .

إذن فرحة منه - سبحانه - بالعالم شرع الله التوبة . وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضاً . وساعة نسمع الزمن في حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان » فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذ به في نطق « ليس كمثله شيء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يفهمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ؛ لأن الله لا يتغير ، ومادام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هي وضع الشيء في موضعه . ومادام قد قدر سبحانه وضع الشيء ، فالشيء إنما جاء عن علم ، وحين يطابق الشيء موضعه فهذه هي مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ

يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٠٧﴾

(سورة النساء)

لقد شرع الله سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قبل توبتهم ، وهذا مبني على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة . وانظروا إلى دقة العبارة في قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابى يقال : عمل من ، لكن عندما لا يأتي بفعل إيجابى لا يقال : عمل من ، بل يقال : ليس بالنفى . إن الحق عندما قرر التوبة عليه - سبحانه - وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يدلنا أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي بُنْتُ أَكْثَرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا

الْبَاسَ ﴿١٨﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستهضر نفوسهم قيم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التي شردت عن المنهج في جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالذي ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعني أنه ضعيف في ناحية واحدة ويبالغ ويمتهد في الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التي لا ضعف له فيها لمحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان في هؤلاء الذين يبالبغون في إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتي من أناس أسرفوا على أنفسهم في ناحية لم يقدرها على أنفسهم فيها فيأتوا في نواحي خير كثيرة ، ويزيدوا في فعل الخير رجاء أن يمحو الله سيئاتهم التي تركوها وأقلعوا وتابوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يكرر مع الله ، فالذي أخذ راحته في ناحية ، يوضح له الله : أنا سأتبعك من نواحٍ أخرى لصالح منهجي ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا ستفعل السيئة به ، فيندفع إلى صنع الخير . وكان الحق يثبت للمؤمن : أنت استمتعت بناحية واحدة ، ومنهجي وديني استفاداً منك كثيراً ، فأنت تبني المساجد والمدارس وتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يكرر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشارد الموغل في الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يقترف سيئات متعددة ، ويمن في الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلاً بفعل الملاحظة ، أو الجهالة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر في سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما خفى من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية ، وقد ينضم إليهم بعض ممن لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشاركوا في عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أنظر إلى دينك ، نحمد بحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسب إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامي . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسب لغير الإسلام ؟

وفي هذا العصر هناك ما يسمى بأندية « الروتاري » ويأخذ الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو في الروتاري » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسب إلى « الروتاري » ، ولا تفعل الخير وتنسب إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداة للمنهج .

ونجد الشاردين عن المنهج ، مثلهم كممثل الرجل الذي قالوا له : ما تريد نفسك الآن ؟ وأراد الرجل أن يحاد الله فقال : تريد نفسي أن أفطر في يوم رمضان ، وعل كأس خمر ، واشترى كأس الخمر هذه بثمان خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرم ، ويفطر على خمر وهي محرمة ، وبثمان خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضاً . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضارة الله ، وهذا رجل شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتمثل أخلاق الأراغب ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التي لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن يستفيع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان انتهى ، وتوبته تأتى وهو لا يقدر على أى عمل ، إذن فهو يستهزئ بالله ، فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه للشهادة الإيمانية التي يقر فيها المؤمن بأنه : « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جعله الله في مقابل الكافر ، فباخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، وبأن احترام الحق سبحانه لإيمان القصة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فهو صريح سبحانه : لن نجعلك كالكافر ، بدليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن العاصي من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصي ، ويحترم الحق إيمان القصة ، فيدخلون الجنة ، لذلك لم يقل الحق : إنهم خالدون في النار . وإنما قال : « أولئك أعدنا لهم عذاباً أليماً » « وأولئك » تغنى الصنفين - المؤمن والكافر - فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ
أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَآءِ اتِّبَتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كَثِيرًا ﴿١٩﴾

وقلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، فمعتابها : يا من أمتم بى بمحض اختياركم ، وأمتم بى إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مادمت قد أمتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم . إذن فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غبن وظلم وحيف عليهن . - سبحانه - قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » وكلمة « ورث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شيء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحد بعده ، لأنه عندما يقول : « لا يحل لكم أن ترثوا » ، فقد مات مورث ، ومخاطب وارثاً . إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون جلاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثه إمام تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإمام اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » ، وهل فيه ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

نتبه هنا إلى قوله سبحانه « كرهاً » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، ويلقى ثوبه على امرأته فتصير ملكا له وإن لم تقبل فإنه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يجبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتي واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ؛ لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، وه العضل ، في الأصل هو المنع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط . فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتتسع للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتي هنا العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أى انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة بيضها أى أن البيضة عندما تكون في طريقها لتتزل فتنبض العضلة فلا تتزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأتي الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب في الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد السبب ، لا . ففوق الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف .

إذن فكل المخالفات التي نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هي دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف . لكن الحق يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه في ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا في الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيوم لا تأخفن مينة ولا نوم ، أقول للأسباب اعمل أو لا تعمل ، وبذلك نلفت إلى أنه المسيطر .

ونحمد هذه المخالفات في الشواذ في الكون ، حتى لا نقف رتبة الأسباب ، ولنذكر الله باستمراره ، ويكون الإنسان على ذكر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندها بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، ويلفتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، بل هي فاعلة لأن الله خلقها وتركها
تفعل ، ولو شاء لمعطلها .

قلنا هذا في معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله في النار ولم يُحرق ،
كان من الممكن أن ينجي الله إبراهيم بأى طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة
إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليكنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه
وأمسكوه ولم يفلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما القوه في
النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتناجح النار . وبعد
ذلك يقول لها الحق :

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أهذا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ، فقد قدرتم عليه وألقيتموه في النار ،
وبعد ذلك لم ينزل مطر ليطفى النار ، والنار موجودة وإبراهيم في النار ، لكن النار
لا تحرقه . هذه هي عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعضلوهم » ؟ العضل : أخذنا منه كلمة « المنع » ، فعضلت المرأة
أى قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها
الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أن تتزوج من تريد أو
من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعضلوهم » أى لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ،
لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كان هذا حكم آخر ، لا ترثوا
النساء كرها هذا حكم ، وأيضاً لا تعضلوهم حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارها لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا
سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجى .
وذلك حتى تفتدى نفسها فتبriء الرجل من النفقة ومؤخر الصداق ، فيحرم
الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال .

ولكن متى تعضلوهم ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » لأنهم

سيحبسونهم ، وهذا قبل التشريع بالحد . وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تقتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق : « وعاشروهم بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة : فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح نفسك لموادته ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا في القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن في القرآن تعارضا فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٢)

(سورة المجادلة)

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن في موقع آخر منه يقول ؟

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا - مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف . فـ « المودة » شيء و « المعروف » شيء آخر . المود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حُب ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وإلى احتياجاته المادية . هذا هو المعروف ، إنما المود هو أن تعمل لإرضاء نفسي . وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للمود ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرا سأعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق - سبحانه - إبراهيم في ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لذلك لم يضيفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فهذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى قلحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذي جعلها تتغير هذا التغير المفاجيء ؟ فقال له إبراهيم : « والله إن ربي عاتبنى لأني صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أريك عاتبك وأنت رسول في وأنا كافر به ، فنعن الرب رب يعاتب أحبابه في أعدائه ، فأسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يلزمنا أننا يجب أن نتنبه إلى هذه المسائل في أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعا كي لا يُخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب في البيت لحرب البيت ، نقول لهم : لا . بل « عاشروهن بالمعروف » حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائذك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ، ليس المفروض في المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض في المرأة أن تكون مصرفا ، إن هاجت غريزتك كىاويا بطبيعتها وجدت لها مصرفا . فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها » (١) .

أى أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر - رضي الله عنه - وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلقها ، قال له : أو لم تبين البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟ . لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فبلغته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولا وبعد ذلك تنبت في الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « عاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فمضى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، أنت كرهتها في زاوية وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها

هي التي ستجعلها تحسن في عدة زوايا ، لكي تعوض بإحسانها في الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبني المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائذك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصروف طبيعي إن هاجت غرائذك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى في المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط . وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هي زاوية الانفعال الجنسي ، وخذ زوايا متعددة .

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاهما جمالا ، وهذه أعطاهما عقلا ، وهذه أعطاهما حكمة ، وهذه أعطاهما أمانة ، وهذه أعطاهما وفاء ، وهذه أعطاهما فلاحا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفاً حكيماً فخذ كل الزوايا ، أما أن تنتظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هي زاوية إهانة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هي الزاوية التي تصلح لتقدير المرأة فقط . « فمسي أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وانظر إلى الدقة في العبارة « فمسي أن تكرهوا » فانت تكره ، وقد تكون محقا في الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فاطمئن إنك إن كرهت في المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك في بقية الزوايا خيرا كثيرا . ومادام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فانت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيرا في نواح متعددة ، إن أي زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فمسي أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرا ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرمه ، وثاني الأحداث لتبين صدق الله في ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، لذلك على أن يحكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ، فمضى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، فقدر دائما في المقارنة أن الكره منك وجعل الخير في المرأة من الله ، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ
وَأْتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ﴾

فإذا ضاقت بك المسائل ، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله ، وتخاف أن تغتلب من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، أى لك أن تستبدل مادامت المسألة تستصل إلى جرح منهج الله ، وعليك في هذا الاستبدال أن ترضى المنهج الإيمانى مثلما أشار به سيدنا الحسن رضى الله عنه عل الرجل الذى كان يستشير فى واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن - رضى الله عنه - : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يعنى أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجه وهو لا يعانى من إلحاح فى الناحية الفريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، لما شروط المنهج فى هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتكم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم . وقنطار تعني « المال » . وقدره قديما بأنه مئة مسك البقرة ، و« المسك » هو الجلد ، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة ، ومئة مسكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وزنيّة ، والحق حين معظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتكم إحداهن قنطارا » فهو يأتي لنا بمثل كبير وينهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » . لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذي تدفعه ليس مناسحا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهي حياتكما ، بل المهر مجعول ثمنا للبضع الذي أباحه الله لك ولوللحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكنت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهي في اللحظة الأولى ، لحظة تمكّيك منها . « وآتيتكم إحداهن قنطارا » وهذه هي المسألة التي قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : أخطأ عمر وأصاب امرأة ، لأنه كان يتكلم في غلاء المهور ، فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتكم إحداهن قنطارا » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

من عمر رضي الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمئة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : (وآتيتكم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إن كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعمئة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »^(١) .

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر - رضي الله عنه - قال : « لا تزيدوا في مهر النساء على أربعين أوقية من فضة » ، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة في بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولم ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتكم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

(١) رواه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى .

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلاً ، بل هو ثمن تمكثك منها ، وهذا يحدث أول ما دخلت عليها . وإن أخذت منها شيئاً من المهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلا إذا رضيت بذلك ، والإثم المين هو الإثم المحيط .

ويأتى الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » . إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ
إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
غَلِيظًا ۝ ٢١ ﴾

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » . إذن فثمن البضع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة ، وه « أفضى » مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، وه « أفضى بعضكم » يعنى دخلتم مع بعض دخولاً غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معاً أوسع مداخله « وحسبك من قمة المداخله أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها في الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، خرجك ، في حمامك ، في المطبخ ، في كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت مادمت قد أفضيت لها وهى قد أفضت لك كما قال الحق أيضاً في المداخله الشاملة :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شيء تريد أكثر من هذا ؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يغضب ، ونقول له : يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تغضب ، وتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »^(١) .

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » والميثاق هو : العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت وليها : « زوجنى » فقال لك : زوجتك ، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها ، فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف به إلا ميثاق النيين لوصفه بأنه غليظ^(٢) ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية « أفضى بعضكم إلى بعض » فهنا إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسا وسترا للآخر « هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ » لهذا كان الميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعثرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها قنطارا إياك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا ؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء ، ومادام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، فالإفضاء ليس شائعا فى الزمن كى توزعه ، لا .

والحق يقول : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْعًا مَرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى فى الكبير عن مطربة .

(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طالب لكم ، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه : أنتم اخترتمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فهذا تريدون منى ؟ ! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تنزل عن حقتك وهو ينزل عن حقه ، وتنتهى المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس :

فيقول - جل شأنه - :

﴿ وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق فى آية الدين :

﴿ وَلَا تَسْعَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويامركم الحق أن توثقوا الدين .. لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون الدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوباً فقد تُحدثه نفسه أن ينكره ، إذن فالحق يحصى الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تساموا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك : لا داعى لكتابة إيصال وصك بينى وبينك ، وهذه أريحية لا يمنعها الله فإدام قد أمن بكم بعضكم بعضاً فليستح كل منكم وليؤد الذى أؤتمن أمانته وليثق الله ربه .

ومادام قد جعل للفضل مجالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة . . . وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق ، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذ الله من النبيين وما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تنازلت هي . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمرحى حقها ، ولكن لا يجب أن يقضى بالفعل ، فهو في ذمة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا في مهرها ، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقي لها إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تستقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضى بين الرجل والمرأة فقال : « فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » فهو هبة تخرج عن تراضٍ . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر . هب أن الخلاف استمر بين الرجل والمرأة .

حالة تكره هي ونحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدى منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هي كارهة ، فسيضططر هو إلى أن يبنى بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشيء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهُا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها . ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة في أسلوب التعجب :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَكُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(الآية ٢١ سورة النساء)

فكان موكيف تأخلفونه « هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول : « كيف » فهذا تعجيب من أن تحدث هذه « وقلنا : إن كل الموائيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً في العرض ، ومن هنا جاء غلط الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تعقل عنه الفتية ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من الموائيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستدبر بها طهر الأسرة وعفافها وكرامتها وهزتها ، ويبقى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شيء يقضى على هذه المحبة والمودة ويدخل نزع الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

فكان هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التي هي غير أمه . و« صفوان بن أمية » وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خلف على « فاختة بنت الأسود بن المطلب » كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ لأن الأب والابن لهما من العلاقات كاللوة والرحمة والحنان والعطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الذل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التي تحت أبيه ، ربما راقته ، ربما أعجبه ، فإذا ما راقته وأعجبه فأقل أنواع التكبر أن يقول بينه وبين نفسه : بعدما يموت أبي أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل في أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسعى في التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الغرائز حين تأتي ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والتمنى ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الزوجة التي تحت أبيه نظره إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتع نزعات الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم » والنكاح هنا يطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول - أي العملية الجنسية - هو الشائع والأولى ، لأن الله حينما يقول : « الزاني لا ينكح إلا زانية » معناها أنه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

والحق هنا يقول : « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أي جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر . فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام ، ولذلك قال - سبحانه - : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ (ما) وهي راجعة للزمن . كان الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا .

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . أيقول سلف أن تزوجتها قبل الحكم ! نقول : لا الزمن انتهى ، إذن فقله : « ما قد سلف » يعني الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الزمن الجديد ليس فيه شيء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (من) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح في المستقبل أن يوجد منه شيء البتة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائماً من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين بشرع فهو بشرع ما تقتضيه الفطرة

السلومة . فلم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برغم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً ، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ، وما كان يصح بالفطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أن الناس عندما فسدت فطرتهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرأت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمى عندهم نكاح « المقت » والولد الذي ينشأ يسمونه « المقتى » أى المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » أى قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . فافهم بوضوح : إننى أشرح لكم ما تقتضيه الفطرة . والفطرة قد تنطمس في بعض الأمور ، وقد لا تنطمس في البعض الآخر لأن بعض الأمور فاقعة وظاهرة والتحريم فيها يتم بالفطرة .

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك ، أو تزوج ابته ، أو تزوج أخته . إذن ففيه أشياء حتى في الجاهلية ما اجتراً أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذي يحرم ما اجترات عليه الجاهلية وتجاوزت وتخطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف » أى مضى .

لقد وصف سبحانه نجاح الأبناء لزوجات آبائهم بأنه « كان فاحشة » أى قبيحاً ، وه مقتاً ، أى مكروهاً ، « وساء سبيلاً » أى في بناء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه ، وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها فطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾

وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن
نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ
أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنَ أَصْلَابِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

من الذى يحلل ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا
زواج المعارف ، فعلى الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها .
أى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت . الخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق
يوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

ومنهج السماء أنزله الله من قديم بدليل قوله :

﴿ قَالَ أَهِيَاطُ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل لها المنهج ، هذا المنهج مستوفى الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التي جاء الإسلام فوجدها على الحكم الذي يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة ، وإن أخذ محل العادة ومحل الفطرة .. أي أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه في ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا في فهم كثير من أحكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان أيضاً ، كلما ابتعد النوعان « الذكورة والأنوثة » فالنسل يحمى قوياً في الصفات . أما إذا كان الزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أي شيء : في النبات ، في الحيوان ، في الإنسان قريين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون في الزراعة والحيوان : « تهجن » أي نأى للأنوثة بذكورة من بعيد . والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لنا :

(اغتربوا لا تفضوا) وقال : « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضالواً »^(١)

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يحمى هزلاً . وبالأستقراء وجد أن العائلات التي جعلت من ستمها في الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقل ، أو ضعف جنس ، أو ضعف مناعى ، فقول رسول الله : « اغتربوا لا تفضوا » أي إن أردتم لزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا ، فإن « ضوى » بمعنى « هزل » فإن أردتم ألا تفضوا ، أي ألا تهزلوا فابتعدوا ، وقبلها يقول النبي هذا الكلام وجد بالاستقراء في البيئة الجاهلية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلي :

أنصع من كان بعيد الم

(١) رواه إبراهيم الحري مرطوماً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه موقوفاً على عمر ، وقد روى إبراهيم الحري في غريب الحديث عن عمر رضي الله عنه قال : (يا بني السائب قد أنصوتم فلتنكحوا في القراب) من كتاب إسماعيل علوم الدين للإمام الغزالي .

توزيع أبناء بنات العم فليس ينجو من عَوَى وسقم

فقد مضى سليل الأقارب ، وعندنا في الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون : « فتوة » أى فتي لم تلده بنت عم قرية . وفي النيات يقولون : إن كنت تزرع ذرة في محافظة الغربية لابد أن تأتى بالتقاوى من محافظة الشرقية مثلاً ، وكذلك في البطيخ الشيليان . يأتون ببذوره من أمريكا ، فيزرعونها فيخرج البطيخ جميلاً لذيقاً ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك البذور لقلو ثمنها . فيأخذ من بذور ما زرع ويجعل منه التقاوى ، ويخرج المحصول ضعيفاً . لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل ثمن الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً .

وكذلك في الحيوانات وكذلك فينا ؛ ولذلك كان العرب يقول : ما دك رعوس الأبطال كابن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة في جنس آخر . فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحریم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بأخته إنما بنوة من والد واحد ، « وعهاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أوضعنكم وأخواتكم من الرضاة » .

إذن فالمسألة مشتبكة في القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمراً آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائماً عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة ويعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينها خلاف مثلاً قلنا في قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ؛ ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شيء من هذا ؟ والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمّة ، أو الخالة ، فيأمر الحق الرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق .

ومن حسن العقل ويعد النظر ألا ندخل المقابلات في الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البديل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلاً ، فإذا حدث الخلاف في شيء حدث ضرورة في مقابله وإن كان الوفاق سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تنفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذي هو شقيق للآخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند ابنها لكن ابنتها تعاني ولا تجد الراحة في بيت زوجها . ماذا يكون الموقف ؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست في مسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم هنا بطبيعة الحال من الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منها . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فلمها محرمه عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم » .

ولماذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتي أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت في تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ ففيه بضعمة منها ، ولهذا البضعمة حرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء : يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تنشأ خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلاً ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أي امرأة رضع منها الرجل . وأفق المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوماً وليلة ويكفي بها ، وأن يكون ذلك في مدة الرضاع . وهي بنص القرآن ستان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه - وسيدنا عثمان - رضى الله عنه - حينما جاءوا بامرأة ولدت لسته شهور وكان الحمل الشائع بمكث تسعة أشهر ، وأحيانا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان - رضى الله عنه - أن يقيم الحد عليها ، لأنها مادام ولدت لسته أشهر تكون خاطئة ، لكن سيدنا على - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا نقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لسته أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته على سيدنا على ، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص في القرآن لكن النفس لا تتببه له ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد . بل من اجتتاع نصين أو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسمعه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام على ، وقال لسيدنا عثمان : الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿ وَالْوَلَدُ لَئِنْ رَضِعَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، - والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى - والحق سبحانه قال أيضا :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا على - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يختص زمنا معيناً بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ١٥ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ١٦﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ١٧ ثَلَاثَةٌ
مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٨ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ١٩﴾

(سورة الواقعة)

أى أن الآخرين أيضا لن يجرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب النصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : مصة أو مصتان ؛ هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشيعات مذهب ثالث ، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشيعات تحرم من الزواج ، لكن بشرط أن تكون في مدة الرضاع ، فلورضع في غير مدة الرضاعة ، نقول : إنه استغنى بالاكل وأصبح الاكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النبی علیه الصلاة والسلام قال : « يجرم من الرضاع ما يجرم من النسب »^(١) .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والخالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا نحوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهي مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة نحسن الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمرا فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائما . . ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، وأول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل في كل شيء . . يعنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة .

الناس يدخلون في الحرمه وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشئ من الهوس والاختلاط والفوضى في شأن الرضاة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم في باهم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم احتلتم لأولادكم فيها يؤدي إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه معاد تلقى التطعيمات ضد الدفتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة في هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم ، ويكتب في تلك الورقة من الذي أرضع الطفل غير أمه ، وساعة يأتى للزواج نقول : يا موقوف هذا ملفه إنه رضع من فلانة . في هذا الملف تدرج أسماء النساء اللاتي رضع منهن . . فتبنى بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نفاجيء رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنها رضعنا معا ، وبذلك نصير المسألة إلى إشكال شرعى وإشكال مدنى وإشكال اجتماعى ناشئ من أن الناس لم تعد لتنهجها الإيمانى ما أحدثته لتنهجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأتى في ملف ابنتها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود . وهل كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن تأتى بمرضعة للأولاد ، فاللين الجاف من الحيوانات يكفى ويؤدى المهمة ، وصرنا لا ندخل في المتاهة التى قد تؤدى بنا في المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاة أو أمه من الرضاة ، أو أى شيء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمهاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاة » . ويقول الرسول صل الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »^(١) .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها عملية غير مقبولة ، « وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » . الربيبة هى بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلفت بعد أن ولدت

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة .

بنتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » وزوج الأم الجديد سيدخلها في حمايته وفي تربيته ، وبذلك تأخذ مرتبة البنوة . والأمر هنا مشروط : « من نساكم اللائي دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فإدام الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يجرم الأمهات .

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لفظ « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصررت في الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد في البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبني ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه ويطلق عليه اسمه ويرثه . وجاء الإسلام ليقول : لا ، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل في مسألة أخوة لابتك مثلاً ، سيدخل على محارمك ، ولذلك أنهى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشتراه حكيم بن حزام . وأخذته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبت لسيدتنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولداهم الذى خُطف قديماً موجود في مكة جاءوا إليها ، فرأوا زيد بن حارثة ، ولما سأله أن يعود معهم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معي ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدتنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً . وظل مع سيدتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التي كانت شائعة فسماه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، التبني وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن ينهى هذه المسألة فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأحزاب)

هذا يدل على أن حرمة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمداً بن عبد الله وهو رسول ، « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » .

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ونقول : أكان هؤلاء رجالاً ؟ لقد ماتوا أطفالاً ، والكلام « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالاً ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » أى لا يمنع أن يكون أباً أحد من رجاله ، هو أبو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المسألة أخذت ضجة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن من الذى يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذى أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هي حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتبني كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، وأراد الله أن يبطل عادة التبني ، وكانت متغلغلة في الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعاً ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقاً يطبق حكم الله في ذاته وفي نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبني كانت في ذاتها تهدف إلى أن ولداً نجيباً يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كلون من التكريم .

ولذلك علينا أن نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكهال البشرى

في إطار العدل البشرى ، والعدل هو : القسط ، وساعة تبني زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعرضه والده ، لأن زيدا اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التبنّي من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد أثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاضة عند أحد أن يُصوّب الكمال البشرى بالكمال الإلهي ، ولا أن يصوب العدل البشرى والقسط البشرى بالعدل الإلهي والقسط الإلهي ، وأنزل الله وهو أحكم القاتلين هذا الحكم بعبارة تعطى ذلك كله :

﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

أي إن دعاهم لأبائهم « أقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن « عظيم » وه « أعظم » ، إنك ساعة تأتي بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، وه « أقسط » المقابل لها « قسط » ، فما فعله رسول الله هو قسّط وعدل ، ولكن ما عدله الله أقسط عما صنعه رسول الله . إذن فيجب أن نقتن إلى أن الكمال البشرى والعدل البشرى شيء ، والكمال الإلهي والعدل الإلهي شيء آخر . ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك ، فالذي صوب هو الله الذي أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله في إطار البشرية ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذي يحمل البشر متساوين مع الله في القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ، لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، يروجون أن هذا الدين يحتوي على أكاذيب - والعياذ بالله - فإدام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ؛ لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً في النجاة في ظنهم إذ لا منجى ولا أمل هؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله .

لنتنظر إلى القصة التي طار بها المستشرقون فرحا : النبي صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها : أميمة بنت عبدالمطلب ، وهي بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب . وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برة » ، وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له ملحظ في الأسماء ، اسمها « برة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيها بعد : خرج رسول الله من عند « برة » ، فسميها « زينب » .

« برة » هذه هي بنت أميمة فهي ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة - كما قلنا - كان طفلا ثم خطف وسرق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشري وعذله البشري فسميها « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوجته رسول الله من « برة » على مضض منها ، لأنه مولى ، وهي بنت سيد قریش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مولى وسيد ، وزوج بنت حمته لزيد ، وبعد الزواج لم ينشأ بينهما ود ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما وثام ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرع فهل يشرع على حساب قلين متعاطفين متحابين ليمزقهما ؟ لا ، المسألة - إذن - تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصا أنه صار ابنا بالنبي لرسول الله ، ويكون رفض امرأته له مسألة ليست هينة ، وتصعب عليه نفسه ، فيأتى لرسول الله شاكيا ، وقال له : لم

تعجبنى معاشره « برة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التنبى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادام يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبراً عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمداً كان معجباً بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، وتخفى هذه الحكاية .

نقول لهم : كونوا منطقيين وافهموا النص ، قربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن التنبى كان يريد أن يتزوجها . والحق قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاء رسول الله ، فاعرف ما أبداه الله ، هذه هى عدالة الاستقبال ، وبدلاً من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فهذا أبدى ربنا ؟ وحين يبدى ربنا أمراً يكون هو عين ما أخفاء رسوله . فلما ذهب زيد للتنبى وقال له : أريد أن أفارق « برة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عليم من الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التنبى ، وأن امرأة المتبنى لا تحرم على الرجل ، ويطبّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

لكن هناك أناس مازال عندهم مرض في قلوبهم ، وأناس منافقون ، والرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون هذا الأمر واردا من الله في قرآنه . فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإجماع الذي جعله الله بينه وبينه لقالوا : هذا كلام منه هو ، لذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم لزيد : أمسك عليك زوجك ، فينزل ربنا الأمر كله قرآنا ، فلم يقل محمد : ألهمني ربنا ، أو ألقى في روعي ، لا ، جاء هذا الأمر قرآنا ، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى لهذه المسألة في سورة الأحزاب فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ٢١ ﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخْفَىٰ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ٢٢ ﴾

(سورة الأحزاب)

فإنه أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبني فلا تخشى الناس أن يقولوا : طلق المرأة من زيد ليتزوجها . كأن زواج « زيد » من « زينب » ، كان لغاية واحدة وهي أن تكون « برة » التي سبها رسول الله « زينب » منكوبة لزيد الذي تبناه رسول الله بدليل : « فلما قضى زيد منها وطرا » أي أدى المهمة ، فأردنا أن نعطي الحكم : « زوّجنا » فمن الذي زوّج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي تزوج .

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله في حاله ، وصعدوها إلى ربنا . فقلوه سبحانه : « فلما قضى زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية مهاد له ، فالغاية منه أن يقضى زيد منها وطرا وهو متبني رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنها غير موافقة عليه ، وتنقل المسألة عند زيد إلى عزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أطلق « برة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه » . والذي أبداه الله هو قوله لرسوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهى الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتى الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربنا : « زوجناكها » .

فالذى يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعداها إلى ربنا ، « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا في زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم سيديده ، إن الوحي هو الذى بين السبب الباعث على زواج الرسول بزَيْنَب إنه قوله تعالى : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » .

فالعلة في هذه العملية : يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يجب أن يرجف ، العلة في كل ذلك علة إلهية من كمال إلهى وعدل إلهى يتركز في قوله سبحانه : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ، والأدعياء : هم الذين يتبنونهم من غير ولادة .

ومادام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمتتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرفا من تصرفاته بأنه تزوج بمن كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمتتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ عن الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين . أتقولون للرسول الذى أرسله ربنا كى يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانا للتصرفات ، تقولون له : سنأخذ تصرفاتك ونعيداها على الميزان

الذي نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد جعلت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ، فالأصل في الرسول أن كل فعل له هو الكمال ، ولا تأتي أنت بميزان الكمال وتأتي للرسول وتقول له : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

وبعد ذلك يأتي بالقضية العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة «أبا أحد» أي لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، «ما كان محمد أباً أحد» لأنه أبو الجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، وعمرات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم» ويمتلك الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابني ، لا ، هو أب لكم كلكم . وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون . فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله . «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالعظمة في محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء رسولا .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت بنوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبي جاء بسليمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعمره وقال :

(سلمان منا آل البيت) (١)

وقول الحق : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونضحها الذوق والآدائي والأسلوب أنه أبوكم كلكم ، فلا ينفرد به أحد دون الآخر ، « ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً » وعندما كان زيد ابن محمد ، أصبح زيدا ابن حارثة ، ومحمد هو رسول الله ، ومادمت أنت مؤمناً به - يا زيد - فرسول الله هذه تعوض إلغاء الأبوة بالنسبة لك ، ثم إنك داخل في الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ؛ لأنك آمنت به كرسول ، إذن فعندما نحقق في هذه العبارة نجد أنه يُسألُ زيداً أيضاً . وخير من هذا - أنك يا زيد - إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله الذي يُذكر في القرآن باسمه الشخصي ، وتصبح كلمة « زيد » قرآناً يُذكر ويُتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ويحفظها على الألسنة ، ومرفوع الذكر ، إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق : « فلما قضى زيد منها وطراً » وهب أنه بقي زيد ابن محمد ، فما الذي يحدث ؟ سنقرأها في السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها في كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته ، الذي ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد في حياته أولى أو ذكر زيد في القرآن ؟ إن ذكر اسمه في القرآن أولى ، « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً » .

إذن فقول الحق سبحانه : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » يدل على أن حلائل الأبناء المتبين حل لكم ، بعد أن كانوا - في الجاهلية - يحرمون ذلك . ويقول الحق من بعد ذلك : « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع في الزواج بين الأختين لأن بينهما رَحماً يجب أن تظل معه المودة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » وهذا الجزء من الآية « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق .

في قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » قد حصل في فهمها والمراد منها خلاف ..

(١) رواه الطبراني في الكبير ورواه الحاكم في المستدرک .

ونقول أولا المرأة في ملك اليمين ليس لها حق قِلَّ سبدها في أن يطأها أو يستمتع بها ، فملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجعل إماءه أمهات أولاد .

إنَّ الأمام عليا - رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه - وسيدنا عثمان - رضي الله عنه - أخذ كل واحد منهما موقفاً ، فسيدنا عثمان سئل عن الاختين مما ملكك اليمين ؟ فقال : « لا أمرك ولا أنكأ أحلتها آية ، وحرمتها آية » فتوقف رضي الله عنه ولم يفت . أما سيدنا علي فقد حرم الجمع في وطء الاختين بملك اليمين ، أما التملك من غير وطء فهو حلال ، وهذا هو الذي عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأى من شذ عن ذلك من أهل الظاهر .

ويتابع الحق : « إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » أي أن هذا الأمر مادام قد سلف قبل أن يشرع الله ، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يؤخذنا بالقانون الرجعي ، فلا تجريم إلا بنصر ولا عقوبة إلا بتجريم ، ومادام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحدًا اختين تحته في نكاح أو في وطء بملك يمين ، ولا يجمع أيضاً بينهما في زواج من إحداهما ووطء بملك يمين لأخرى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كُتِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

وقول الحق : « والمحصنات من النساء » هو قول معطوف على ما جاء في الآية السابقة من المحرمات ، أى سيضم إلى المحرمات السابقات المحصنات من النساء ، ومن هن المحصنات من النساء ؟ الأصل في الاشتقاق عادة يوجد معنى مشتركاً . فهذه مأخوذة من « الحصن » ، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم ، فإذا تحصنوا فيه امتنعوا على عدوهم . . أما إذا لم يكونوا محصنين فهم عرضة أن يُغير عليهم عدوهم ويأخذهم ، هذا هو أصل الحصن ، والاشتقاق التي أخذت من هذه كثيرة : منها ما جاء في قوله تعالى :

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

وهـ أحصنت فرجها ، يعنى أنها عفت ومنعت أى إنسان أن يقترب منها ، وهنا قوله : « والمحصنات » في الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها ، المقصود بها المتزوجات ، فهادمت المرأة متزوجة ، فيكون بضعها مشغولاً بالغير ، فيمتنع أن يأخذ أحد ، وهى تمتنع عن أى طارئ جديد يفد على عقدتها مع زوجها . هذا معنى « المحصنات من النساء » ، فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج ، والحق يقول :

﴿فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ

الْعَذَابِ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النساء)

فهادمت الإماء قد أحصن بالزواج ، هل يكن من المحصنات كالحرائر ؟ لا ، فهذه غير تلك ، فهن لا يدخلن في المحصنات من الحرائر ، وإلا لو دخلن في المحصنات يكون الحكم واحداً ، فهو سبحانه يقول : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وأصل الإحصان وهو العفة . . توصف به الحرة ؛ لأن الحرة عادة لا يقربها أحد . وهذه امرأة أبى سفيان في بيعة النساء قالت : وهل تزنى الحرة ؟ كأن الزنا كان خاصاً بالإماء ؛ لأنهن المهينات . وليس هن أب أو أم أو عرض ، قد يجترى عليها أى واحد ، وليس لها شوكة

ولا أهل ، ولذلك جاء عقابها نصف عقاب الحرة ؛ لأن الأمة يحوم حولها من الناس من تسول له نفسه فعل الفاحشة .

إذن فالإحصان يُطلق ويراد به العفة ، ويطلق الإحصان ويراد به أن تكون حرة ، ويطلق الإحصان ويقصد به أن تكون متزوجة ، وتطلق المحصنات على الحرائر . فالوضع العام للحرة هو الذي يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد ، لكن هَبْ أَنْ امرأة متزوجة ثم حدث خلاف أو حرب بين قومها وبين المؤمنين وصارت أسيرة لدى المسلمين مع أنها متزوجة بطريقتهم في بلادها ، وهي بالأسر قد انتقلت من هذا الزواج وجاءت في البيئة الإسلامية وصارت مملوكة ، ومملوكيتها وأسرُّها أسقطت عنها الإحصان ، فقال : « إِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » .

إذن فهي بملك اليمين يسقط عنها الإحصان ، وللمسلم أن يتزوجها أو أن يستمتع بها إذا دخلت في ملكه وإن كانت متزوجة لأن هناك اختلافاً في الدارين ، هي في دار الإسلام ، وخرجت من دار حرب فصارت ملك يمين ، ولا يكون هذا إلا بعد استيراثها والاستيثاق من خلورحمها من جنين يكون قد جاءت به من قومها لقوله صل الله عليه وسلم في سبأيا أوطاس : « لَا تَوَطَّأُ حَامِلٌ حَتَّى تَضَعَ ، وَلَا غَيْرُ ذَاتِ حَمْلٍ حَتَّى تُحْبِضَ » وهذا تكريم لها لأنها عندما بعدت عن زوجها وصارت مملوكة ملك يمين فلم يرد الحق أن يعضلها بل جعلها تتمتع بسيدها وتعيش في كنفه كي لا تكون محرومة من التواصل العاطفي والجسدي ، بدلاً من أن يُلغ سيدها في أعراض الناس .

« وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » وه كتاب الله : بمعنى : كَتَبَ الله ذلك كتاباً عليكم ، وهو أمر مسجل موثق ، وكما هو كتاب عليكم فهو لكم أيضاً ، ويقول الحق : « وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ » . إذن فالمحرمات من : محرمات نسب ، ومحرمات رضاع ، ومحرمات إحصان بزواج .

« وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ » أي أحل لكم أن تتزوجوهن ، ولذلك قال : « وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا » أي تطلبوا « بِأَمْوَالِكُمْ عَصْنِينَ » والمال نعلم أنه ثمرة الحركة . والحركة تقتضي التعب والمشقة ، وكل إنسان يحب ثمرة عمله ، وقد يدافع عنها إلى أن يموت دون ماله ، لأن المال ما جاء إلا ثمرة جد ، وحتى إذا

ما جاء المال عن ميراث ؛ فالذى ورثك أيضاً ما ورثك إلا نتيجة كدّ وتعب ، وعرفنا أن الذى يتعب مدة من الزمن تساوى عشر سنوات قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش بعدها مرتاحاً ، والذى يتعب عشرين سنة قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش ولده مرتاحاً ، والذى يتعب ثلاثين سنة يعيش حفيده مرتاحاً .

إذن فكل ما تراه من مال موروث كان نتيجة جدّ وكدّ ومشقة من الآباء ، وإذا ما قال الحق : « أن تبغوا بأموالكم » دلّ على أن مقابل البضع يكون من جهة الرجل . . . « أن تبغوا بأموالكم » التى قال عنها سيدنا رسول الله : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)^(١) .

ومادام المال عزيزاً على الإنسان وأخذ من طريق الحركة وطريق الجدّ وطريق العرق فيجب ألا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالخير العاجل ولا ينسى الخير الأجل ، فإن هو حقق به خيراً عاجلاً ثم سها وغفل عن شرّ أجل فهو لم يضع المال فى موضعه . « أن تبغوا بأموالكم محصنين » و« محصنين » كما عرفنا لها معان متعددة . . « محصنين » أى متعفين أن تلغوا وتقعوا فى أعراض الناس . بأموالكم ، أى ضح مالك الذى كسبته بكدّ فيما يعود عليك بالخير العاجل والأجل ، فلا تلغوا به فى أعراض الناس . لأنه من الممكن أن يتغنى إنسان لقاء امرأة بأمواله لكنه غير محصن ، ونقول له : أنت حققت لذة ونفعاً عاجلاً ولكنك ذهلت عن شرّ أجل ، بقول فيها ربنا : « محصنين غير مسافحين » ومنه أخذ السيفاح .

فإياك أن تدفع أموالك لكى تأخذ واحدة تقضى معها وطراً . فكلمة « محصنين » تعنى التزام العفة ، وشرح الحق كلمة محصنين بمقابلها وهو : مسافحين ، من السفح وهو : الصب ، والصب هطول ونزول الماء بقوة ، فالماء قد ينزل نقطة نقطة ، إنما السفح صبّ . ولذلك سمي سفح الجبل بذلك لأن الماء ينزل من كل الجبل مصبواً .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود .

هنا يلاحظ أن الحق حين يتكلم عن الرجال يقول : « محصنين » بكسر الصاد ،
وحيث يتكلم عن النساء يقول : « محصنات » بالفتحة . لم يقل « محصنات »
بالكسرة ، لأن العادة أن الذكورة هي الطالبة دائما للأنوثة ، والأنوثة مطلوبة دائما .

« غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » والاستمتاع هو إدراك
متعة للنفس ، والمتعة توجد أولا في الخطبة ، فساعة يخاطب رجل امرأة فهذا
استمتاع ، وساعة يعقد عليها وساعة تزف له ، هذه كلها مقدمات طويلة في
الاستمتاع ، لكن الاستمتاع ليس هو الغرض فقط ، يقول لك : إذا استمتعتم بهن
فلا بد أن تعطيهن مهورهن ، ولذلك إذا تزوج رجل بامرأة ثم طلقها قبل أن يدخل
بها نقول له : ادفع نصف المهر ؛ لأنك أخذت نصف المتعة . فلو أن المتعة هي
العملية الجنسية فقط لم يكن قد أخذ شيئا وبالتالي فلا شيء عليه من المهر ، لكن
نقول : إن المتعة في أنه تقدم إلى بنت فلان وخاطب وعقد ، كل هذه مقدمات متعة ،
فعندما يكون ذلك فإنه يكون قد استمتع ببعض الشيء .

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نبني حياة الأسرة على طهر ، وعلى أمن ملكات ،
فأنت تجد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد غضاضة في أن يغلق عليها الباب ،
لكن تصور وجوده مع امرأة دون زواج ، فالملكات النفسية تتصارع فيه ، ويربص ،
ويمكننا أن ننظر رجفته إذا سمع أي شيء ، لأن ملكاته ليست منسجمة ، هو سيمتع
ملكة واحدة . لكن الملكات النفسية الباقية ملكات مفزعة ، مما يدل على أن ما يفعله
ليس أمرا طبيعيا ، ومادام ليس أمرا طبيعيا فالملكات النفسية تناقضه ، الحق سبحانه
وتعالى يريد أن تبني الأسرة على طهر وعلى أمن ، وهذا الأمن النفسي يعطى لكل
ملكات النفس متعة .

وقلنا من قبل إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شابا يمر كثيرا على البيت ويلتفت
كثيرا إلى الشرفة ، ثم يقع بصر والد البنت عليه ، ماذا يكون موقفه ؟ تهيج كل
جوارحه ، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال : يا فلان أنا أريد أن أخاطب
ابنتك لنفسى ، أو أريد ابنتك لابنى . ماذا يكون موقف والد الفتاة ؟ إنه السرور
والانشرح وتصيح الملكات راضية والنفس مطمئنة ، ويتم اعلان البهجة وهو الذي

يدعو الناس ويقيم فرحا ؛ لأن الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى حينما شرع الالتقاء ، أعطى فى النفس البشرية وفى ذراتها رضا بهذا الحكم بالالتقاء .

ولذلك روى : « جذع الحلال أنف الغيرة » .

أى أن من يغار على ابنته هو الذى بوجه الدعوات لزواجها ، فكان الغيرة فيها حمية ، وإن طلب عرض عن غير طريق خالق الأعراض فلا بد أن تهيج النفس ، فإن طلبها على وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس . وهذه عملية قد يكون من الصعب تصورهما ، فما الذى يسبب الرضا ، ومن الذى يدفع فى القلب الحمية والغضب والثورة ؟ إنه - سبحانه - هو الذى يفعل ذلك .

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلاً منا مكون من ملكات متعددة ، فعقد الزواج وقول : « زوجنى » و « زوجتك » وحضور الشهود ، ماذا يعمل فى ذرات تكوين النفس لكى تُسر ؟ إنها إرادة الحق . وهذا شيء معروف ، وأنت حين يكون لك إنسان تعرفه فقط ، والإلف السيال بينك وبينه مازال فى أوله ، يكفى عندما تقابله أن تلقى عليه السلام وينتهى الأمر ، لكن هناك إنسان آخر لا يكفى هذا السيال الودى بينك وبينه ، بل لا بد أن تسلم عليه بيدك ؛ لأن هناك جاذبية ومودة ولكل منهما تأثير .

إذن فعملية الود والولاء أمر يصنع تغييرا كيمياويا فى النفس ، ويكون التنافر إذا ما جاء اللقاء عن طريق ما حرم الله ، والذى يأتى عن طريق ما شرع الله يحقق التجاذب . والشاعر عندما خاطب من يحبه قال :

بأبى من وددته فافترقنا
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
ومنينه فلما التقينا
كان تسليمه على وداعا

كان الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومسافته كى يغذى ما عنده من الود ، وكأنه يريد أن يقول : أنا التقيت مع من أوده فاختمنى فى واختفيت فيه ، وهذا ناشئ من الامتزاج .

إذن فالتكوين العاطفي أو السبيل أوجده الله كسبيل التقاء . هذا إذا ما كان على شرع الله ، أما في الحالة الأخرى فهو سبيل كراهية . وما الذي يسبب ذلك ؟ إنه عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة ، فساعة يجيء اللقاء على وفق ما شرع الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات ، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء يأتي كنتيجة طبيعية وكذلك الولاء ، ويتحقق الانسجام هذا إيجاب ، أما إذا كان اللقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سلب .

إذن فالخلق سبحانه وتعالى يبني الأسرة على هذا المعنى . وأنتم تعلمون أن الالتقاءات التي تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث في الخفاء ، ومنكورة الثمرة ، فإن جاء منها أثر وحمل فسيلقى الوليد في الشارع ويكون لقيطا وقد يميتونه ، إنما الثمرة التي تأتي بالحل فالكل يفرح بها .

فالخلق سبحانه وتعالى يقول : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » والاستمتاع أشياء كثيرة ، وجاء الشيعة في قوله : « فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » . وقالوا : هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمي ما أخذ في نظير ذلك أجراً ونقول : كلمة « أجر » هذه واردة في الزواج ، فسيدنا شعيب عندما جاءه سيدنا موسى عليه السلام قال له : أعطني أجر ثمان حجج . وسيأتى في الآية نفسها التي يتقولون بها ويقول : « وآتوهن أجورهن بالمعروف » . فسمى المهر « أجراً » أيضاً ، فلماذا تأخذون هذا المعنى ؟ هم يقولون : نكاح المتعة حدث ، ونقول لهم : نكاح المتعة حدث ولنتنظر إلى أسبابه .

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة ، ولكن ماذا بعد أن أنهى المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ لقد أنهى الحكم ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أحل زواج المتعة في فترة وجيزة حينما كانوا في غزوة من الغزوات ، وذهب قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم يريدون أن يبنوا حركة حياتهم على الإيمان الناصع . كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ، إنهم قالوا له : يا رسول الله أنستخصي ؟ أي نخفي أنفسنا ؟ فهادام الجهاد يطلب منا أن نكون

في هذا الموقع بعيدا عن أهلنا فلنستخصر حتى لا يكون عندنا رغبة . فأباح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج المتعة ؛ ولكنه أناه ، والدليل على أنه أناه ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، وأنتم تعلمون منزلته - رضي الله عنه - من التشريع في أحكام الله ، إنه كان يقترح الاقتراح فينزل القرآن موافقا له ، يقول عمر : ما يجيء واحد ليستمتع إلى أجل إلا رجته .

إذن فانتهت المسألة . وسيدنا على - كرم الله وجهه - أقر نهي سيدنا عمر ، وقالوا : إن ابن عباس قال به . لكنه قال : إنني كنت قد أخطأت فيه ، ونعلم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجلسوا في فصول تعليمية لسماع الوحي ، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله ، فهذا سمع وذلك لم يسمع . وهذا هو السبب في أن هذا يروى وذاك لم يرو ، فسيدنا ابن عباس قال : إنني كنت أعرف مسألة المتعة ، ولم يصح عندي خبر منعها إلا في آخر حياتي .

إذن فقول الشيعة : إن المتعة موجودة هو نتيجة استدلال خاطيء ، فقوله سبحانه : « فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن » علينا أن نفرنه بقوله أيضا في المهور في الآية التالية : « فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن » لأن هناك فرقا بين الثمن وبين الأجر ؛ فالثمن للعين ، والأجر للمنفعة من العين ، ولم يملك الرجل بمهره المرأة . إنما ملك الانتفاع بالمرأة ، وما دام هو ملك انتفاع فيقال له أجر أيضا .

« فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة » أي أن الذي فرض ذلك هو ربنا . « ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة » ونلاحظ هنا أن هناك فرقا بين أن يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحا ، فمن حقها أنها تأخذ المهر . لكن ماذا إن تراضت المرأة مع الرجل في ألا تأخذ المهر وتتنازل له عنه ؟ أو أن يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل في قوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فلا لوم ولا تثريب فيما يترضى به الزوجان من بعد الفريضة ، وكلمة « تراضيتن » تدخل في قوله سبحانه :

﴿ فَإِنْ طِبَّنَا لَكُم مِّنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

وفي عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز منه أثاث البيت ، مع أن المفروض أن يجهز الرجل لزوجته البيت وأن يبقى المهر كاملا لها ، ولكن التعاون هو الذي يعطى العطف والتكاتف .

وبذيل الحق الآية : « إن الله كان عليها حكيمًا » إذن فكل أحكام الله مبنية على العلم بما يصلح خلفه ، ولا يغيب عنه أمر كى يؤخر تشريعه ، فتأخير التشريع معنى : أن الذى شرع غاب عن ذهنه جزئيات ما كانت في باله ساعة شرع ، وحين يأتى الواقع يأتى له بجزئيات لم تكن موجودة ، فيضطر إلى إصدار تشريع جديد يستدرك به ما لم يكن في باله . والذين يقولون : إن التشريع الإلهى لا يغطى حاجة البشر نقول لهم : من الذى سيخطيه ؟ أنتم بامفكرون أتعدلون على الله ؟ إن الله يكشفكم أنكم تاتون بتقنيات ، وبعد ذلك يظهر عيوبها وعوارها وأخطاؤها فتضطرون أن تعدلوا ، ف سبحانه عليم حكيم . فإن أخر حكما عن مبعاده فقد اقتضت الحكمة أن يكون كذلك .

ومثال ذلك تحريم الخمر ، لم يحجى به مرة واحدة ؛ لأن الشئ الذى تحكمه العادة والإلف ، لا بد فيه من التريث ، وأن يصدر التشريع على مراحل ، وكل مرحلة تسهل المسألة بالنسبة لما سبقها ، ويكون الأمر صعبا إذا كان التشريع دفعة واحدة لأن ترك العادة دون تدرج يكون عسيرا شاقا ؛ لأن أهم شئ في الخمر أنها تقود إلى الاعتیاد ، بدليل أن مدمن الخمر عندما يمر عليه الوقت يضطرب فيأخذ كأسا ليستريح ، وأول مرحلة في التحريم أن الحق كسر الاعتیاد ، ومادامت هى عادة متغلغلة فمن الصعب جدا أن يتزعها صاحبها من نفسه مرة واحدة . فأولا جاء الأمر كعظة ، وبعد ذلك يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ومادمت لا تشربها وأنت تصل فكم مرة تصل ؟ خمس مرات في النهار ، إذن فعودك أن تترك وقتا من الأوقات غير ملتبس بالخمر ، وتكون قد تعودت على ترك الخمر طوال النهار . وبعد ذلك يتدرج فيقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ ﴾

لكن الأحق عادة يرجح الإثم ويفعله، ومادام سبحانه قال : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها » . إذن فالإثم يرجح . وبعد ذلك جعلها بعلمه - سبحانه - أمراً نهائياً ، والحكمة شاءت أن يكون التحريم بالتدرج . وطمئنتنا الحق على أن علمه وحكمته منوط بها بإخراج الأحكام ، ولذلك قال :

﴿ مَا نَفَعُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَذِيرٍ أَنْ لَا يَخْتَارَ مِنَهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وسبحانه عليم لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ان امرأة أحب زوجها لدرجة أن هذا الأجر ليس له قيمة ، أو رجل أحب زوجته أيضا لدرجة أن النقود ليس لها قيمة عنده ، ومادام سبحانه حكيم . فهو قد يجرى الأمور لا بحتمية ما افترض ، ولكن بإبقاء على فضل المتعاملين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْنَّ يَصِفُ
مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

أَلَعَنْتَ مِنْكُمُ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَجِيمٌ ﴿٢٥﴾

والاستطاعة تعنى أن يدخل الشيء في طاعتي فلا يعصى ولا يتأهى على ، وافترض
أننى أمسكت قطعة حديد ولويتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت في طوعى ،
ومثال ذلك : ابنا آدم ، حين قدم كل منهما قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من
الآخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿ لَا أَقْبَلُكَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فإذا كان ردُّ الذى تلقى التهديد ؟ قال :

﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ

بِزَوَايَا الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ

الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى : جعلته في استطاعته ، وعندما لمعن النظر
في « فطوعت له نفسه » نجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان
فيه ملكات متعددة : ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له : لا تقتله .
ضميره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأمارة بالسوء تقول له : اقتل ، ويكون هو
مترددا بين الأمرين .

وقوله الحق : « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمارة بالسوء ظلت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه الفاعلة طوعت له أن يقتل أخاه .
ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه أصبح بعد ذلك من النادمين ، وبعدما
أخذ شهوته من القتل ندم ، وبأن هذا الندم على لسانه :

﴿ يَتَوَلَّىٰ أَخِي أَخِي طَبَعًا مِّنْهُمَا وَكَانَ مُبْتَلًىٰ بِهِمَا ۖ وَلَوْ عَلِمَ الْفُؤَادُ أَنَّهُ يَفْعَلُ لَفُحِّطَ مِنْهُ خُتْمًا ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ لَآئِنَ يُذَكَّرْ ۚ ۝١٢٠﴾

مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١٢١﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذي قتلته ، لكنك أصبحت من النادمين . لماذا ؟ لأن ملكات الخير دائما
تصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريرا ، وإن كانت ملكاته
ملكات خير غالبية ، فهو ينزل من هذا الشر العالي ويخففه ، وإن كانت ملكات الشر
غالبية فهو يبدأ في الشر قليلا ثم يصعده ، فيقول في نفسه : فلان فعل في كذا وأريد
أن أصغعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرفع من شره فيقول : « أو أضربه ضربة » . لكن
إذا ما كان الإنسان خيرا ، فيقول : « فلان كاد لي ، أريد أن أضربه رصاصة أو
أضربه صفعتين أو أوبخه » إنه ينزل من الشر ويصعد من الخير . كما في قصة سيدنا
يوسف وإخوته حين قالوا :

﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَبَانَا ۖ فَغَضِبَ عَلَيْهِمَا وَطَمَسَ أَعْيُنَهُمَا فَذَا بَعْثٌ مِّنَ رَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَالرَّحْمَنُ عَلِيمٌ ۝١٢٢﴾

﴿١٢٣﴾ أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ

بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي

غَيْبَتِ الْجَبِّ بَلْتَقَطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٦﴾

(سورة يوسف)

إنهم أسباط ، وأولاد النبي يعقوب ، فيقتلون من الشر ، يخففونه مباشرة
قائلين : « أو اطرحوه أرضا ، يعني يلقونه في أرض بعيدة ، إذن فخففوا القتل في
نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضا ؟ ثم خففوا الأمر
ثانية حتى لا يأكله سبع أو يتوه ، فقالوا : « والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض
السيارة » .

إذن فقله : « ومن لم يستطع منكم » أى من لم يستطع دخول الشيء في طوعه أو أن تطوله يده ، وهذا هو المقصود بالطول ، « فطالته يده » يعنى صار في استطاعته ، وفلان تطول على ، أى تفضل على بشيء ، « وفلان تطاول على » أى ما كان يصح أن يجترىء على ، وكلها من الطول ، و« طولاً » : تعنى قدرة تطول بها الزواج بمن تحب . أى أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعي للحرّة لأن مهرها غالٍ غالبا ، فخذ من الإماء الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبية ولا أهل يجادلونك في المهر ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيما كنكم من فتياتكم المؤمنات » والذي نلمحه في الآية . أن نكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكةا ، لأن مالكةا لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتغشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن ينكح بما ملكت يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاه ، لأنها بالزواج تفتطع جزءاً من وقتها وخدمتها لمن يملك رقبتها ، فلا بد أن يُستأذن حتى يكون أمر انقطاعها إلى الزوج في بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر أيضا سبحانه ألا نستعين بأنها مملوكة ومهينة فلا نأتيها مهرها . بل يجب أن يؤدى هؤلاء مهورهن بما يعرف ، أى بالمتعارف عليه ، لأن ذلك عوض البضع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن نستأذن موالينهن وأمر بأن نأتيهن أجورهن ، هنا بعض الإشكال لأن المملوكة لا تملك ، لأن العبد وما ملكت يده لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت : العبد وما ملكت يده لسيده فلا بد أن نحقق لها ملكاً أولاً ثم يكون ما تملكه لسيدها . . . أما أن تتعدها وتعطى المال لسيدها فإنها في هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : العبد وما ملكت يده « أى أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تعطى الأجر تكريماً لها ، أما كون مالها لسيدها فهذا موضوع آخر . وبعد ذلك تذهب لتزوجها إن ذلك يصح ، فهل نفهم من ذلك أنك إن استطعت طولاً لا تنكح الإماء ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإماء ؟ لا . لماذا ؟ انظر للحكم العالية التي لا يقوها إلا رب .

الله يريد أن يصفى مسألة الرق ، فحين يأتى واحد ويتزوج أمة مملوكة لغيره

فأولادها يتبعونها في الرق . فالأولاد في الدين تتبع خير الأبوين ، وفي الحرية والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أمة مملوكة لغيره فأولادها الذين سيأتون يكونون عبيدا . وحين يتركها لسيدها ويتزوج غيرها من الحرائر ، فمن تلده من سيدها يكون حرا ، إذن فسبحانه يريد أن يصفى الرق ، هذه واحدة ، الشيء الآخر أن الزواج : التقاء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الزوج والزوجة أكفاء . فالزوج لا يجد في نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد في نفسها تعاليا على الزوج ، لأن كل واحد منهما كفء للآخر ، وهذه تضمن اتزان الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمة ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعلى عليها . وقد يذلها . وقد يعيرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم خال مثلا . والمشرع يريد أن يبنى حياة أسرية منزنة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال :

﴿ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْطَّيِّبِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس تفهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها رجل طيب ، نقول لهم : إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضة أن يعصى ، فسبحانه حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحمل الرد على من يقولون : مادام ربنا يقول : « الطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس في قضية كونية حادثة ، بل هو قضية تشريعية تقتضى منا أن نتبعه وأن نجعل الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات ليتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها : أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كى لا تقول له مثلها ، أما الإنسان الطيب فهو يلين جانبه مرة وهي طيبة وتلين جانبها مرة .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، كلمة « المحصنات » تعنى هنا الحرائر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون محل تزويج لآخر . « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتي » نطلقها في الحر على من له

فتوة وشباب ، ونطلق كلمة فتاة على أى أمة ولو كانت عجوزا ، وعلمنا رسول الله
الأنقول : هذا عبدى وهذه أمتى . وإنما نقول : « فتاى » و« فتاتى » .

« فمن ما ملكت أيمانكم » ويتساءل البعض : وهل يتزوج الإنسان من يملكها ؟
نقول له : لا . إنها حلال له فهي مملوكة له ملك يمين ويستطيع أن يكون له منها ولد ،
إذن فتكون ما ملكت أيمان غيركم ، لأن الله يخاطب المؤمنين على أنهم وحدة بنيانية ،
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه
بعضا » (١) .

ويقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْبِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ويقول فى موضع آخر :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُبُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ حِجَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

فهل يسلم المؤمن على نفسه أو يسلم على من دخل عليهم ؟

إن الحق يريد بالتشريع أن يجعل المؤمنين كالجسد الواحد ، ولذلك قال أيضا :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

أى لا تقتلوا غيركم ، والمعنى هو أن الوحدة الإيمانية يجب أن تجعلنا متكاتفين فى
وحدة .

« فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم » . وقد تقول :

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن موسى .

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتجعلها علة . يقول لك الحق : لا والله أعلم بإيمانكم ، ولعل أمة خير في الإيمان منك ، لأن هذه مسألة دخائل قلوب ، وأنت بكفيك أن تعلم الظاهر .

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمور يعالجه معالجة رب . يعلم واقع ما خلق ويعطى كل مطلوبات المخلوق ، هو أولا أوضح : أنتم إن كنتم لا تستطيعون طولا أن تنكحوا المحصنات فانكحوا الإماء ، وهذا من أجل مزيد من تصفية الرق .

بعد ذلك يقول : « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » فإن كنت ستزوج يجب أن تجعل نصب عينيك أمرا هو : أن « بعضكم من بعض » . أى أنكم جميعا من آدم . ومادمت قد أمنت ، فالإيمان سوى بينكما ، فإذا ذهبت لتزوج فلا بد أن تضع هذا نصب عينيك ، إنه سبحانه يعالج واقعا .

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلن » . وهذا إشعار بأن من تحت يده فتاة بملك يمينه فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعوضها عما فقدته عند أهلها هناك ، ولتشعر أنها في حضانة الإسلام مثلما كانت في حضانة أهلها وأبائها أو أكثر .

إذن فالذى يملك لا بد أن يجعل نفسه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح : فإن لم يدخل واحد منكم من يملكه في هذه المصافي فسوف يبقيه رقيقاً ، وإذن فعليه أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فيدك بيده . وعندما يوجد معك إنسان تلبسه من لبسك وتطعمه من أكلك ، وعندما يعمل عملاً يصعب عليه فانت تساعده ، فأى معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق : يعالج طالب الزواج ويعالج المملوكة ، ويعالج السادة ، إنه تشريع ربّ الجميع . فلا يشرع لواحد على حساب آخر . ومادامت ملك يمين ولها سيد فهذا السيد له مصالح لا بد أن تستأذنه ، فقد لا يستطيع أن يستغنى عنها لأنها تخدمه ، فقال : « بإذن أهلن » ، لكن في المهور قال :

« فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف » فالأمة تنكح بإذن من يملكها كي يعرف أن هناك من دخل شريكاً له في العملية ويأخذ البضع وهو الزوج ، وحين يُستأذن السيد ويزوجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من خلف ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن البضع قد أغلق بالنسبة له ، وبقيت له ملكية الرقبة . أما ملك البضع فهو للزوج .

« وآتوهن أجورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة يمين وأى شيء يرضيها ويكفيها ، لا . فلها مهر بالمعروف أى بالمتعارف الذى يعطيها ميزان الكرامة في البيت ، « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » وقلنا : إن المحصنة هي العفيفة ، « غير مسافحات » والمسافحة : هي من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها : امرأة عامة ، ومتخذات أخدان : أى يتخذن عشاقاً وأخذانا .

« فإذا أحصن فإن ألين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أى إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب . أما إن لم تحصن فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها ، لأن الأمة عادة مبتذلة ، لكن عندما تزوج تصبح محصنة ، فإن أنت بفاحشة نقول لها : أنت لك عقابك الخصوصي ، لن نعاقبك عقاب الحرّة ؛ لأن الحرّة يصعب عليها الزنا ، لكن الأمة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال : « فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أى نصف ما على الحرّات من العذاب .

لكن الخوارج أخذوا الكلمة في معنى من معانيها لبيخدم قضية عندهم وقالوا : إن « المحصنات » من المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كي يقولوا : مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم ؛ لأن الرجم لا ينصف . . . والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد فيه رجم واكتفوا بجلد الزانية مائة جلدة .

ونقول لهم : أنتم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، ونسيتم « ومن لم

يستطعم منكم طولاً أن ينكح المحصنات . . فالمحصنات هن الحرائر ، فلهذا أخذتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ؟ إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حجة لكم في مثل هذا الباطل . وبذلك نسقط الحجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

ثم نبهت بحثاً آخر ، نقول : يقول الحق : « فعليهن نصف ما على المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق : « من العذاب » ، فكأن الذي عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلاء من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة ، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصف والحكم غير متعلق به . فالعذاب إنما يأتي لمن يتألم ، والالم فرع الحياة . والرجم مزيل للحياة ، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب ، والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقد الطير قال :

﴿ مَا لِي لَا أَرَىٰ هَٰذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْفَٰرِقِينَ ﴾ (٢٠) لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ ﴿

(من الآية ٢٠/٢١ سورة النمل)

فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فالتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إزهاق الحياة وبهذا يسقط الاستدلال .

والذين يقولون : إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم : ومن الذي قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله في الإسلام وأنه فصل كل شيء ؟ . . القرآن لم يحىء كتاب منهج فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول ، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم فضلاً على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنص القرآن عنده تفويض من الله أن بشرع ، وتلك ميزة تميز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فانه قد أعطاه الحق في أن بشرع ، بدليل أنه سبحانه قال في صلب القرآن الذي يشتمل على أصول منهج الإسلام :

﴿ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فالرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لي من يدعى أن في القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أي آية أخذ أن الصبح ركعتان ؟ وأخذ الظهر أربعاً وأخذ العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، من أين أخذها ؟! إذن لا يوجد شيء من ذلك ، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول . ومادام المنهج الذي تعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فتشريعه مأمور به وماذون فيه من صلب القرآن . ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعمت : هات لي هذا الحكم من القرآن ، ونظرت في كتاب الله فلم تجد ، فقل له : دليل الحكم في القرآن هو قول الله : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأي حكم من الأحكام يأتي ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنده ؟ قل : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والمنهج أوامر ونواهي . إذن فالطاعة أن تتمثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هي الطاعة ، كل منهج أو دين أمر ونهي ، فامتثل الأمر واجتنب النهي . وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله والذي شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل في الأمر والنهي . فإذا ما استقرأت القرآن وجدت - كما قلنا سابقاً - أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة في الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالمطاع هو المكرر ، فه « أطيعوا » أمر واحد ، نطيع من ؟ . . الله والرسول . المطاع هنا هو الله والرسول ، ومرة يكرر أمر الطاعة فيقول :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وأدخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن فمرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط . أى :
يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله والرسول » ، فوحد أمر الطاعة
وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع : « وأطيعوا الله وأطيعوا
الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لك : « أطيعوا الله والرسول »
فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا
كان له أمر إجمالى وللرسول أمر تفصيلي كالصلاة والزكاة والحج ، إذن فتطيع الله
وتطيع الرسول .

وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض في قوله سبحانه : « وما أناكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء في
آية أخرى قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل
بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : « وما أناكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبيت طاعة أولى الأمر التى جاءت في قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فلم
يفرد ولى الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فلم
يقل : « وأطيعوا أولى الأمر » ، بل قال : وأولى الأمر ، أى من باطن طاعة الله
والرسول ، إنها دقة الأداء في القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه : « وما أناكم
الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

لقد قلنا : إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهى . . . والموجود هنا « آتاكم »
 و« نهاكم » ؛ فـ « آتى » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهى موجود بلفظة « وما نهاكم
 عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل : وما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم
 عنه فانتهوا ؟ ولماذا لم يختصر فيقول : وما آتاكم الرسول فخذوه ؟ ! لأن الإتيان من
 الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أيكون المنهى عنه فعلاً يفعل
 الرسول ؟ لا يمكن .

إذن فالنهي لا يتأتى إلا نهياً ومنعاً من الفعل ، لكن الإتياء يكون قولاً أو فعلاً ؛
 لأنه عندما يقول لك : لا تشرب الخمر ، فإذا كان يفعل النبي كى نأخذه من
 الفعل ؟ إن الرسول قطعاً لم يشرب الخمر . إذن فقول الرسول وفعله يتأتى في المأمور
 به ، وأما في المنهى عنه فلا يتأتى إلا قولاً . بالله آمين الممكن أن يأتى بهذا عقل
 بشرى ؟ لا يمكن ، ولا يقوها إلا الله .

ثم نبحت بحثاً آخر يا خوارج . إن الرسول إنما جاء ليبلغ عن الله - و مراد التبليغ
 أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدى مدلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فالذى يشرحه لنا
 هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أوجد مجال للكلام في هذا النص ؟
 لا يوجد ، بل تكون المسألة متتهية . إذن فالفعل أقوى ألوان النص في الأوامر ، لأن
 الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفعل الرسول يكون
 الحكم لازماً ؛ لأن الذى فعل هو المشرع .

أرجم رسول الله أم لم يرحم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص عمل .
 إن الفعل ليس نصاً قولياً يتأول فيه . لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ورجم
 اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية . . . وفعل الرسول هو الأصل في
 الحكم . فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقي ما فعله المشرع وهو
 الرسول المفوض من الله في أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل
 فعلاً فيقره عليه .

ثم نبحتها بالعقل : إذا كنت تريد ألا يوجد في الزنا حد إلا الجلد ، أتسوى بين
 من لم يتزوج ومن تزوج ؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب ونسل . هل

هذه مثل تلك التي لم تتزوج !؟ إن هذا لا يتأتى أبداً بالعقل ، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذي استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

« فإن أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم » . ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لمن لم يجد طوطاً أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يعف وإما أن ينفلت . فإن انفلت فقد تسرب الفساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإن لم ينفلت والتزم ، ماذا يحدث ؟ سيقع بين أنياب المرض النفسي وتأتيه الأمراض العصبية . فأباح له الله أن يتزوج الأمة ، إن لم يجد طوطاً في الزواج من الحرائر .

وبذلك يكون مفهوم الآية : إن الذي لا يخشى العنت فليس ضرورياً أن يتزوج الأمة^(١) . وليس هذا تزهيداً في الأمة بل فيه احترام لها ، لأنها إن تزوجت ثم ولدت ممن تزوجته فسيصبح ولدها عبداً ، والله يريد أن يصفى الرق والعبودية ، فيوضح له : دعها لسيدها فإن أعجبتك وخلت في عينيه ووطئها وجاءت منه بولد فستكون هي والولد من الأحرار إنها قد دخلت في دائرة الحرية .

إذن فالحق يريد أن يصفى الرق ، ثم قال : « وأن تصبروا خيركم لكم » أي وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم في عفة وطهر عن مقارفة الإثم إن ذلك خير لكم من زواجهن ، فنكاح الحرائر أفضل .

ويذيل الحق الآية : بقوله : « والله غفور رحيم » أي إنه (غفور) لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتكم ربكم منها (رحيم) بكم فلا يماجلكم بالعقوبة شفقة عليكم وحبا في رجوعكم إليه .

(١) من الفقهاء من يشترط لصحة نكاح الأمة شروطاً هي : ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة . وأن يخلف الوفوع في الإثم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُمَكِّنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا خُلُقًا نَقِيًّا﴾
 ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ﴾

ماذا يبين لنا ؟ إنه - سبحانه - يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة . . . وقلنا إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا توجد عقوبة إلا بتجريم . فقبلها يعاقبك على أمر فهو يقول لك : هذه جريمة ونص عليها ، إنه لا يأتي ليقول لك : فعلت الشيء الفلاني وهذه عقوبته ؛ لأنك قد تقول له : فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أجمعت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، فيريد الله أن يبصركم ببيان ما تصلح به حركة حياتكم ، والله آمن عليكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذي خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه - وحده - الذي يقن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت تقن فهذا اعتداء ؛ لأنه سبحانه يقن لما يعلم - والله المثل الأعلى - وقلنا سابقا : إن المهندس الذي يصنع التليفزيون هو الذي يضع له قانون الصيانة ؛ لأنه هو الذي صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فيعلمنا : المفتاح هذا لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت .

إن الذي خلق الإنسان هو الذي يضع قانون صيانتها المتمثل في « افعل ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها افعل ولا تفعل ، وهي متروكة على الإباحة « تفعله أو لا تفعله » ، إنه سبحانه : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، والسنة هي الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول :

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

والرسل سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وعرفنا الذين أطاعوا رسلكم
 ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلكم ماذا حدث لهم . لقد قال الحق في شأنهم :
 ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ لَنُغْنِيَهُمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبِيحَةُ
 وَمِنْهُمْ مَّنْ خَفَقْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن
 كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾ ۞

(سورة النكبات)

فالله يريد أن يبين لنا سنن من قبلنا ، أى الطرائق التى تحكموا بها ، وماذا حدث
 لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل . إذن فهو ليس تقنيا أصم ، بل هو تقنين
 مسبوق بوقائع تؤكد وتوثقه ، « ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم »
 وهو سبحانه يبين ويوضح ويتوب ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم »
 يضع الأمر فى موضعه والنهى فى موضعه . فالحكمة هى : وضع الشيء فى موضعه ،
 وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضى اتساع المعلومات ، والحكمة هى وضع كل
 معلوم فى موقعه .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ
 يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٤٧﴾ ۞

سبحانه قال فى الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول :
 « ويهديكم » ، وبعد ذلك : « ويتوب عليكم » ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرها
 هنا : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلماذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء
 هنا ثانيا بـ « والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

نقول : التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولاً من الله ، وإلا فهل لك أن تتوب إلى الله من الذنب لو لم يشرع الله لك التوبة ؟ أنصح هذه التوبة ؟ إنه سبحانه إذن يشرع التوبة أولاً ، وبعد ذلك أنت تتوب على ضوء ما شرع . ويقبل هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل : أولاً مشروعية التوبة من الله رحمة منه بنا ، ثم توبة العبد ، وبعد ذلك قبول الله التوبة ممن تاب رحمة منه - سبحانه - إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب : توبة تشريع ، وتوبة قبول .

« والله يريد أن يتوب عليكم » ، مادام سبحانه قد شرع التوبة أبشر بها ولا يقبلها ؟ لا ، فمادام قد شرع وعلمني أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لي باب التوبة ، وفتح باب التوبة من رحمة العليم الحكيم بخلقه ؛ لأن الحق حينما خلق الإنسان زوده دون سائر الأجناس بطاقة من الاختيارات الفاعلة ، أي أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وجعل أجهزته تصلح للأمر وللنهي ، فالعين صالحة أن ترى آية في كون الله تعتبر بها ، والعين - أيضاً - صالحة أن تمتد إلى المحارم . واللسان صالح أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به قائلاً : لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر . واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحة لأن تقبل وترفع بها عاثراً واقعاً في الطريق .

هذا هو معنى الاختيار في القول وفي الفعل وفي الجوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجهها إرادة المختار ، وإذا نظرت إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التي تستعملها كي ترفع اليد . فالذي يرفع يده ماذا يفعل ؟ وما العضلات التي تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلاً في الإنسان الميكانيكي أو تراه في رافعة الأثقال - الونش - التي ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتفعل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة في نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك . وعندما يريد المهندس أن يحرك الإنسان الآلي فهو يوجهه بحسابات معينة ليفعل كذا وكذا ، أما الإنسان فيحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة .

والحق حين يسلب قدرة الإنسان - والعياذ بالله - يصيبه بالشلل ، إنه يريد

فلا تنفعل له اليد أو غيرها ولا يعلم ما الذي تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا في الجهاز العصبي ، ويعرفوا لماذا لم تنفذ أعصابه الأوامر ، إنها عملية طويلة . إذن فالإنسان - عندما يريد الحركة - يوجه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له فعل في الحقيقة ، فانا إن أثابني الله وجزاني على طاعة فذلك لأن وجهت الآلة الصالحة للفعل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يفعل شيئاً فهذا صحيح ، لأن أحداً لا يعرف كيف يفعل أى شيء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للفعل فهذا عملك أنت . فمعنى الاختيار - إذن - أن تكون صالحاً للفعل ومقابل الفعل وهو الانتهاء والترك .

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك وينزل لك المنهج الذي يقول لك : وجه طاقتك لهذه ولا توجهها لهذه ، معنى ذلك أن طاقتك صالحة للثنتين . إذن فأنت مخلوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المنهج دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلته على أى وجه لا يفسد به الكون ولا تفسد به حركة حياتك فهذا هو المباح لك .

وحينما شرع الحق سبحانه التوبة أوضح : أنه إذا انفعل مرید لعمل شيء فوجه طاقته لعمل شيء مخالف ، قد تكون شهوته أو شرته قد غلبت عليه ، فوجه في ساعة ضعف إلى عمل شر ؛ لذلك شرعت التوبة لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شر لصارت كل انفعالاته من بعد ذلك شرواً ، وهذا هو الذي نسميه « فاقداً » ، فيشرع الحق : إن فعلت ذنباً فلا تيأس ، فنحن سنساعحك ونتوب عليك .

فساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصي ، فلو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصي بعد أول معصية . ومقابل قول الحق : « والله يريد أن يتوب عليكم » وتبئيه أن الذنوب التي فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تأتي بذنوب جديدة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب . إنك بذلك تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومة للحكيم . والجادة هي الطريق المستقيم .

هذه الجادة من الذي صنعها ؟ إنه الحكيم . . فإذا مال الإنسان مرةً قربنا يعدله على الجادة مرةً ثانية ، ويقول له : « أنا تبت عليك » ، إنه - سبحانه - يعمل ذلك كي يحمي العالم من شره ، لكن الذين يتبعون الشهوات لا يحبون لكم فقط أن تميلوا لمرة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفاً بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ . . لأن الإنسان بطبيعته - كما قلنا سابقاً - إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائناً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائناً وعنده شيء يخاف عليه فهو يختار واحداً أميناً ليضع هذا الشيء عنده .

إذن فالأمانة والصدق والوفاء وكل هذه القيم أمور معترف بها بالفطرة ، فساعة يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسان واحداً آخر قدر على أن يحمل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالضيق الشديد ، وما الذي يشفيه ويرجعه ؟ إنه لا يقدر أن يصوب عمله وسلوكه ويقوم من اعوجاج نفسه ؛ لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم منحرفاً مثله ، وإن كانت الصداقة تربط بين اثنين وانحرف أحدهما فالمنحرف يستخذي أمام نفسه بانحرافه ، ويحاول أن يشد صديقه إلى الانحراف كي لا يكون مكسور العين أمامه . وهو لا يريد أن ينحرفاً مثله فقط بل يريد أن ينحرفاً أشد انحرفاً ؛ ليكون هو متميزاً عليه . إذن فالقيم معترف بها أيضاً حتى لدى المنحرفين ، واذكروا جيداً أننا نقرأ في سورة يوسف هذا القول الحكيم :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَبَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضِينَ ٥١ ﴾

(سورة يوسف)

هم في السجن مع يوسف ، لكن لكل سبب في أنهم سجنوه ، فسبب هؤلاء الذين سألوا يوسف هو أنهم أجزموا ، لكن سبب وجود يوسف في السجن أنه برى . والبرى كل فكره في الله ، أما الذين انحرفوا ودخلوا معه السجن عندما ينظرون إليه يجدونه على حالة حسنة ، بدليل أن أمراً جذيباً وهمهم في ذاتهم بأن رأوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طيب برغم وجوده معهم في السجن ، فقد أعجبوا به بدليل أنهم قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من المحسنين » لابد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم قاسوا فعل يوسف عليها فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلما جاء أمر بهم في ذاتهم ذهبوا إلى يوسف .

ومثال ذلك : هناك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمون ، فاللص في هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين ليقضي الليل عنده ولا يذهب للصوص مثله . إذن فالقيم هي القيم ، وعندما قال أصحاب يوسف في السجن : « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه المسألة ووجدتهم واثقين فيه فلم يقل لهم عن حكايتهم ابتداء ويؤول لهم الرؤيا ، بل استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يَصْحَحِي السِّجْنَ رَبَّابٌ مُنْفَرِقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤٦)

(سورة يوسف)

لقد نقلهم من حكايتها لحكايته ، فإدما يريدان استغلال إحسانه فلماذا لا يستغل حاجتهما له ويعظهما ويشرهما بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلى لأنكما تقولان إنني من المحسنين . وأنتما لم تريا كل ما عندي بل إن الله أعطاني الكثير من فضله وفضله ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

أي أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر لها بفضل الله عليه : فليس هذا العلم من عندي :

﴿ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوها لعبادة الإله الواحد كي يستجدا به بدلاً من الألهة المتعددة

التي يتخذونها معبودا لها وهي لا تضر ولا تنفع .

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٢٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عليهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا في الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين في الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم : « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌ منا » .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ

ضَعِيفًا﴾ (٢٨)

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله لييّن لكم ، لييسر ، و » الله يريد أن يتوب عليكم ، ليغفر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم ، ليسر ، وهي ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس - رضي الله عنه وعن أبيه - : « في سورة النساء ثمان آيات لامة محمد هي خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب :
الأولى قول الحق :

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُيَسِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ (٣١)

(سورة النساء)

والثانية هي قول الحق :

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٣٧)

(سورة النساء)

والثالثة هي قول الحق :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٢٨ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هي قول الحق :

﴿ إِنْ تَحِبَبُوا جَنْبَاهُ مَاتَهُنَّ عَنْهُ نَكَّرَ عَنْكُمْ سِيعَانِكُمْ وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ٣١ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هي قول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هي قوله سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٠ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هي قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ١١ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هي قوله تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١١٧ ﴾

(سورة النساء)

هذه هي الآيات الثماني التي لم تؤت مثلها أي أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على انتصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذي تفتح نفسه إلى شهوة ما يستبعد غالباً - خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع في

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد في السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول : أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كي أخرج . .
 إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختاراً تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء و لقاء الله في الآخرة .
 وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلاحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة في أمور التكليف ، فالذى جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرباته . ، ومغريات الشهوات حاضرة . ومغريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .
 ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا
 أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُ
 بَحْكَرَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، و يلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذى يتمثل فى افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هى أنك ألزمت نفسك فى أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغبك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك . ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حثية كل حكم يحكم به الله عليك . من افعل كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقل : لماذا أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفي أن تقول : الذي أمنت به إلهاً حكيماً قادراً هو سبحانه مأمون على أن يأمرني وأن ينهاني . ولذلك يحى الحق دائماً قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلف من آمن به .

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض اختياره .

وإذا لفت إنساناً ونبهته وأمرته بأمر تكليفي مثل صل ، أو امتنع عن فعل المنكر فقال لك : « لا إكراه في الدين » هنا يجب أن تقول له : أنت لم تفهم معنى قول الحق : « لا إكراه في الدين » فاصل الدين والإيمان بالله ألا يكرهك أحد عليه ، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماح من الله في « افعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فهو يعطينا حثيات التكليف ، أى علة الحكم . فعلة الحكم أنك أمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً . ومادمت أمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً فسلم زمام الأوامر والنواهي له سبحانه ، فإن وقفت في أمر بشيء أو نهى عن شيء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقوله : « لا إكراه في الدين » أى أنك حر على أن تدخل في الإيمان بالله أو لا تدخل ، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذي أمنت به ، وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخل معنا في إشكال ارتكاب السيئات أو الذنوب .

والأحكام التي سبقت للذين آمنوا هي أحكام تعلقت بالأعراض وبإنشاء الأسرة على نظام طاهر نقي كى يأتى التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الآيات عن المحرمات من النساء وكذلك المحللات ، وهما هذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثواباً ، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو « النقد » ولا ينتفع به مباشرة ، بل ينتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة الحياة ، لأنه بحماية حركة الحياة يفرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة . ولو لم يحم الحق حركة الحياة ، وثمره حركة الحياة فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة .

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على الغاية والثمره من عمل الإنسان تقل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته . ويقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمره حركته يفرى الأمن على ماله على أن يزيد في حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع وإن لم يقصد المتحرك . فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع . لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سابقاً : إنسان مثلاً عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها في خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها في خزانة ؟ لماذا لا أبني بها بيتاً آخر وأكسب منه شقتين ، فسيأتي مني عائد ؟ هل كان المجتمع في بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان في باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعة يأتي ليحفر الأساس سيعطى أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتي بالطوب يشتره بشمن ، وساعة يبني يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك في ضوء شرع الله ، وسيستفد المجتمع قهراً منك .

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك فَيُتَبَنَّى لك ربنا : أنت ستفد غيرك قبل أن تنفع بعائد المنزل الذي بنيت ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ رزق ربنا ولن يجربه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك .

إذن فمن حظ المجتمع أن نصوص حركة الحياة . ونؤمن كل متحرك في الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن نكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حل أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نساءله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالذين لا يقدرّون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركي . ولا يملك كل إنسان فكراً بخطه به ، فقد لا يكون في المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقي هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذي يضع خطة ينتفع بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ، لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذي ليس في باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس في باله إنما يعطي ثمرة عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتي في مسائل المال ويوضحها توضيحاً تاماً ليحمي حركة الحياة ويقرى الناس بالحركة - وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وساعة نجد أمراً للجماعة في جمع مأمور به فقسّم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك : عندما نقول للجماعة : اركبوا سياراتكم أي : ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول للتلاميذ : اخرجوا كتبكم . أي أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة أحاداً ، وقول الحق : « لا تأكلوا » فهذا أمر لجمع . وه أموالكم أيضاً جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ - يوضح الحق : « بالباطل » . فيكون مطلوباً من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشيء لينتفع به . والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا في حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسوضحه بالمثل الآتى : لنفترض أن تلميذاً قال لمدرسه : يا أستاذ قلمي كان هنا وضاع . فيقول الأستاذ للتلاميذ : لا تسرقوا أقلامكم ، فهل معنى ذلك أن الأستاذ يقول : لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثانى « لا تأكلوا أموالكم » ، أى لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول : « أموالكم » ؟ وما دام ما لهم فليس عليهم حرج ؟ لا ، لأن معناها المقصود : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه . ولماذا لم يقل ذلك وقال : « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة خلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عرضة فى مرة أن يكون أكلاً لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فإنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى . فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالى أيضاً ، فكانه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيماني مجتمعاً واحداً . ويقول إن المال الذى عند كل واحد هو للكل . وأنت إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك . وأنت إن اجتزأت على مال غيرك فسيجزئ المجموع على مالك . وأنت ساعة تأكل مال واحد تجزئ آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ، لأن الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ، لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن فى بيت واحد طوال عمرك ، وتلبس جلياباً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينما نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل . ونخرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكادم ليس بالباطل - أنزل الله قوله :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَفَاحِمَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهَا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

هذه رفعت عندهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا : لا أخذ حاجة من أحد إلا بمقابل .

وما هو الباطل ؟ . . الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالغش في السلع ، كل ذلك هو أكل مال الباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالا بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بشمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بشمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أخذك من غيرك . أخذاً لماله كرهاً وبغير وجه حق وبذلك تتعطل حركة متحرك في الحياة وهو ذلك العاطل « البلطجي » ، ويخاف المتحرك في الحياة وهو من تفرض عليه الإتاوة فيقل ويضعف نشاطه في الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع في هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات في الحياة .

فقوله سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » هو أمر لكل مسلم : لا تروا ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب ميسراً ، ولا تختلس ،

ولا ترمش ؛ لأن كل هذه الأمور هي أكل أموال بالباطل . وعندما ندقق في مسألة لعب الميسر نجد أمراً عجيباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما في جيبه ، فأى صداقة هذه ؟ .

إذن فساعة يقول الحق : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وساعة يأمرك الحق : إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك ، ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضيق حركة تصرفك ، وما يعطيك التكليف من تضيق حركة الآخرين ، الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكي لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر للإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كي يكفوا عن سرقة هذا الإنسان ؛ لذلك فحين تستقبل أي حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين .

ومثال ذلك : حين يوضح الحق وينهى عن النظر إلى المرأة الأجنبية فإياك أن تمد عينك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر للملايين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذي تكون أكثر كسباً .

إنني لذلك أقول دائماً : لا تنظر إلى ما في التكليف من مشقة أو إلى ما أخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت . وإلا لو أننا أطلقنا يدك في الناس جميعاً لا بد أن تقدر أننا نطلق أيدي الناس جميعاً فيك . وأنت إذا أطلقت يدك في الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك في الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة » عن تراض منكم ، أي إلا في النفعية المتبادلة تبادل الأعواض ، فشيء عوض شيء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هي

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالتاجر هو وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها . والسلع في حركتها إنتاج واستهلاك . والإنتاج قد يكون زراعياً أو صناعياً أو خدمياً . إذن فالتجارة جامعة لذلك كله .

وكلمة « عن تراض » تدل على أن رضا النفس البشرية في الأعواض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراماً ؛ لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته في أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يعطى كل ذي حق حقه . وحتى لا يدخل في دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ، فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » (١) .

ويتابع الحق : « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقابلة جمع بجمع ، ويعنى : لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المتحجر - ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه في ظرف لا يستطيع في حدود أسبابه أن يخرج منه . ونقول له : أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى ، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه ؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر : وهل أنا في الكون وحدي ؟ لا ، إن لي رباً . ومادام لي رب فأنا لا أقدر وهو - سبحانه - يقدر ، وهنا يطرد فكرة الانتحار ؛ لأن المتحجر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه .

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتي ظرف عليك وتنتهي أسبابك تقول : إن الله لن يخذلني وهو يرزقني من حيث لا أحتمس ، ويفتح لي أبواباً ليست في بالي ، وضربنا مثلاً كي نقرب المعنى ، وقلنا : هب أن إنساناً يسير في الطريق ومعه « جنينة واحد »

(١) رواه مالك في الموطأ ورواه أحمد في مسنده ورواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أم سلمة .

في جيبه ، ثم ضاع الجنيه ، وليس في بيته إلا هو ؛ لذلك يحزن جداً على ذلك الجنيه . لكن من يضع منه « جنيه » وعنده في البيت خمسة « جنيهات » فالمصيبة تكون خفيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس ، فليَمَ يقتل نفسه ؟ الله يقول في الحديث القدسي :

(باقرن عبيد بنفسه حرمت عليه جنتي)^(١) .

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك فواهب الحياة هو الذي يأخذها ، ومن يتحرر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً . ولنتذكر هنا موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وطاردتهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن ورائهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم . لكن ماذا قال سيدنا موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وه « كلا » هذه نفي ، وكيف يقول موسى : « كلا » وما رصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلا » ببشريته ، ولكن قالها برصيده من الإيمان بالإله العظيم فقال :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أي ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ؛ لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانیه ، وهذا يدل على أنك

عزلت نفسك عن ربك ، ولو ظلمت على الإيمان بأن لك خالقاً لانفجرت عنك الكروب ، وإى مسألة تأتى تقول : « إن معى ربى سيهدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب . وقد تأخذ « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى آخر أى ، ولا تؤدوا بأنفسكم لأن تقتلوا ، أى لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، أو « ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين هم وحدة إيمانية ، أو أن المشرع لهذه الوحدة قال : الذى يقتل يقتل فإياك أن تقتل نفسك ، أى لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر إلى أنك تقتل نفسك لأنه سيقتصر منك .

فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى : لا تفعلوا ما يؤدى بكم إلى القتل ، وبمعنى الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس فحسب ، فلا يقول لك : لا تقتل حتى لا تقتل ، لأنه سبق أن قال :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتِىَ الْآلِيبُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١٤)

(سورة البقرة)

وعندما يعرف القاتل أنه إن قتل يُقتل ، فهو يتجنب ذلك ، ونلاحظ أن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّتُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وهل أنا أسلم على نفسى أو على الناس الداخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، معنى الأمان لكم . فسيقولون لك : « وعليكم السلام » فكانك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » معنى أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح « ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى : ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يتعمر ، هذه واحدة ، ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يلقي بها إلى التهلكة ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصاً ، أو لا تقتلوا أنفسكم معنى : لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إيمانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » . وبالله ، ساعة ينهق الحق عن أن أقتل نفسي أو أقتل غيري ، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعتة ؟ إنها منتهى الرحمة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا ظَلَمًا فَنُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ ﴾

« ذلك » : « ذا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للخطاب ، والخطاب إذا أفرد ، فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون في طي ذلك الخطاب . ومرة يقول : « ذلكم » أى أنه يخاطبنا نحن ، مثل :

﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٢ سورة البقرة)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة في الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو أكل الأموال . والبعض يأخذها لكل ما تقدم من أول قوله : « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف » . والبعض الآخر يأخذها من أول الأوامر والنواهي من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح .

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » . والعدوان هو التعدى ، والتعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً . ومن يتعدى بالظلم يكون عارفاً ويأخذ حق غيره ، أما

التعدي بالنسيان فيقتضي أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والفعل إذا أسند لفاعله أخذ قوته من فاعله . فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه فإبني الصغير سيصفعك صفقة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يضربك شاب قوى ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث نأخذها من فاعل الحدث ، من الذي يُضِلُّ المعتدي النار ؟ إنه الله ، وسبحانه سيجعله يصطلي بها .

ويقول الحق : « وكان ذلك على الله يسيراً » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل ينفذ فوراً . ونعلم أن فعل المعالجة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جزئية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهي العمل في ساعة ، وإن كان العمل ينتهي في عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات الراحة وعدم مزاوله العمل ، وقسم العمل على الباقي من الوقت . هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالحق يقول للشيء : « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة : « كن فيكون » قال سبحانه :

﴿ مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بِعُثْرٍ إِلَّا أَلَا تَكْفُرُونَ وَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٢٨ سورة لقمان)

وسبحانه يوضح : أنا لا أوجد كل واحد مثلاً خلقت آدم وأشكله وأخلقه ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنفس واحدة .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تَحْتَسِبُوا كِبَايَرِ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا ﴿٣١﴾

هذه الآية هي إحدى ثمان آيات قال عنها ابن عباس - رضى الله عنه - : في هذه السورة - سورة النساء - ثمان آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، وقلنا : إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت : « إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه » . و « الاجتناب » ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسد المؤمن على نفسه غواية شهوة المعصية له وتصوره لها وترائبها له .

هذه الآيات الكريمات كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسيراً ومكزهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار . وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغتر بمميزته على سائر خلق الله ، والميزة التى ميز الله بها الإنسان هي العقل الذى يختار به بين البديلات . بينما سائر الأجناس كلها رضىت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

(سورة الاحزاب)

فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آلياً وارتاح من حق الاختيار - فهذه الآيات طمأنيت الإنسان على أنه إن حق اختياره فى شيء فالله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه . والله يريد أن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها . كل هذه مطمئانات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حق الاختيار ، فيوضح : أنا خالفك وأعرف أنك ضعيف لأن عندك مسلكين : كل مسلك يفرىك ، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُفرى ، وشهوة النفس العاجلة تُفرى .

ومادامت المسألة قد تداخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح

سبحانه : أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذي وهبت لك هذا الاختيار .

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها ، يُحب أن يأتى لربه راغباً محبباً : لأن هناك فارقاً بين أن يسخر المسخر ولا يستطيع أن يتغلبت عما قدر له أن يعمل ، وتلك تؤديها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط لله صفة المحبوبة ؛ لأن المحبوبة أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصى ثم تطيع ، هذه صفة المحبوبة ، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبة له سبحانه ، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أو لا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة .

« إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه » كأن الله بعد تكليفاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح : إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور ، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساوى : فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينها ، والجمعة للجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقد أدركت أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقل : سأفعل الذنب ثم أستغفر ، هذه لا نضمنها ، وأيضاً تكون كالمستهزئ بربه .

« إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم » - في السيئات يقول : « تكفر عنكم سيئاتكم » وقلنا : إن « الكفر » هو « السر » أى يسترها - ومعنى نسترها يعنى لا نعاقب عليها ، فالتكفير إمارة للعقاب ، والإحباط إمارة للثواب . فإن ارتكب إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب ، أما من عمل حسنة ولم يقبلها الله ، فهو يحبطها ، إذن فالتكفير - كما قلنا - إمارة للعقاب ، والإحباط إمارة للثواب كما في قوله :

﴿ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

أى ليس لهم على تلك الأعمال ثواب ؛ لأنهم فعلوها وليس فى بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان فى بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :
(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عنك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك بنيت المسجد ، وقرأوا اللافنة التى وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير . ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ٢٢٣ ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفتنوا لهذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافنة ويسترها وتنتهى المسألة . فالله سبحانه وتعالى يجب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاله ما تنفق يمينه) (١) .

فأنت حين تصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة . والحق يقول : « إن تجتنبوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشئ جانباً . ولذلك يقولون : فلان ازور جانبه عنى . أى أنه عندما قابلى أعطان جانبى ، والمراد فى قوله : « إن تجتنبوا » هو التبعاد ، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهى عنه فى مكان واحد فعندما يقول الحق :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

وعندما يقول :

﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أى : ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حى الله محارمه ..

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حى ألا وإن حى الله تعالى فى أرضه محارمه .. » (١) .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واجتنابه يكون ألا توجد معه فى مكان واحد بخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق : اجتنبها . أى لا تذهب إليها ، لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون .. فقد تشربها ، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى براثنها وإغرائها ، ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون : إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص !! نقول لكل واحد منهم : حسبك أن شرب الخمر قرن بالرجس من الأوثان ، فالحق يقول :

﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبد ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس ألا تشربها ، بل إياك أن تكون فى محضرها .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

« والكبائر » جميع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهي « صغيرة » و« أصغر » ، فالأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ؛ لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللصم » .

والحق يقول : « إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنغري الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر . نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك ؛ فالحق يُكفر ما فلت منك فقط ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ﴾

الْفَنِّ

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون ؟ . يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنتين ، فلا كبيرة مع الاستغفار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار .

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هي ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة ، أو جاء فيها عقوبة كالحمد مثلاً فهذه كبيرة ، والتي لم يأت فيها حد فقد دخلت في عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو الذي قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أى أن كل العلماء

ينهبون إلى هناك لياخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد ، إذن فقد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذي يقول لي على الكبيرة يأتي بنص من القرآن . ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل ؛ لأنه عالم أهل البيت ، ولأنه قد بحث في كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الفيض ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سَلِمَ وجلس قرأ قول الله سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّحْمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق : ما أسكتك يا ابن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله .

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، ساعة قال له : « أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله » . قال أبو عبدالله : نعم ، أي على خير بها سقطت ، أي جئت لمن يعرفها ، ثم قال : « الشرك بالله » ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : والياس من رحمة الله فإن الحق قال :

﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وهكذا جاء سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله ، وأضاف :

ومن آمن مكر الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الاعراف)

والكبرة الرابعة : عقوق الوالدين ؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقى ،
قال تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٢٢ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَحَزَّ أُولُوهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٤ ﴾

(سورة النور)

وأكل الربا . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والفرار يوم الزحف . أى إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فرّ
واحد من الزحف . فقد قال تعالى في شأنه :

﴿ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِمُحَذِّذِ رِبَاٍ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ ٢٨ ﴾

(سورة الأنفال)

وأكل مال اليتيم . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ٤١ ﴾

(سورة النساء)

والزنا . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۝٣٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٣٩ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة الفرقان)

وكتبتان الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّمًا عَلَى قَلْبِهِ ۝٣٩ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شيء ففعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أى القسم الذى لا يتعلق بشيء مستقبل . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَيَأْمِنُنَّكُمْ ثَمَّاءَ قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أى أن يخون فى الغنيمة . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝٧٨ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثنية . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا اتَّخَذُوا الْبَشَرَ الْأَنصَابَ وَالْأَزْوَاجَ رِجْسًا مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٩ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝٨١ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٨٢ ﴾

(سورة المدثر)

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٧﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هي الكبائر بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالماً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذي جاء به سيدنا ابن سيدنا « جعفر الصادق » عندما سأل ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد . . . « نعم » أى إن جوابك عندي ، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت في ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة متسلسلة متتابعة ! بل هي آيات يختارها من هنا ومن هناك ، مما يدل على أنه يُعَاشِرُ أَسْرَارَ القرآن .

لقد نشأ هذا الرجل في بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذى وضع للمؤمن منهجاً بحيث لا يصيبه شيء في نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء في كتاب الله ، إنه وجد أن الزوايا التي تمكر على الإنسان أنه يخاف من شيء ، والذي يخاف من شيء يكون هذا الشيء - غالباً - محدوداً معروفاً .

أنا أخاف من الشيء الفلاني ، ولكن واحداً يصيبه غم وهم لا يدري سببه ، فيقول لك : أنا مغتم دون أن أعرف السبب . إذن ففيه القباض لا يعرف سببه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به ، وهناك ثالث يجب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده ، كل هذه هي مشاغل النفس البشرية : أن تخاف من شيء ، أن تغتم من شيء ، أن نشفق من مكر بك وكيد لك ، أن تتطلب أمراً من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذى قال : عجبت لمن خاف ولم يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاستنباط الدليل ، الذى يقوله سيدنا جعفر : فإن سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَأَنْقَلِبُوا إِلَى اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسَّهُمْ سَوْءٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول : سمعت الله ، ولم يقل : قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآنًا لابد أن يتأكد أن الله هو الذي يتكلم . وجلال القديم يغطي عل جدية الحادث ، فالذي يقرأ أمامك حادث ، لكنه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يغطي عل جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٨٧ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

ثم يقول : فإن سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ قَامَتْ جَبَنَاهُ وَنَجَّيْتُهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ٨٨ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مكر به ولم يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأَفْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ٨٩ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة غافر)

فإن سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ قُوَّةُ اللَّهِ سَيِّغَاتِ مَا مَكُرُوا ٩٠ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة غافر)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفرغ إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ٩١ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الكهف)

فإن سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ إِنْ زَرْنَا أَوْ لَمْ نَزِرْ مِنْكَ مَالًا وَلَدًا ٩٢ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٩٢ وجزء من الآية ٩٠ سورة الكهف)

هذه هي الاستنباطات الإيمانية ، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التي قالها سيدنا جعفر تحدها تغطي زوايا النفس الاجترائية ؛ لان التكليف حينها يأتي بمحذ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتحذ من الاجتراء ، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوجدانية في الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات في النفس البشرية ، أول اجتراء : هو الشرك . . لأنه قال : « إن الشرك لظلم عظيم » والظلم الذي نعرفه : أنك تحكم بشيء للغير وليس من حقه ، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فليارك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ ولذلك يقول في الحديث القدسي :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)^(١) .

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنك حين تعتقد أن الله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء . واقرأ قول الله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فعبد مملوك لعشرة أسياد ، وباليات العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له : اذهب ، وهذا يقول له : تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرهقها . إذن فقد ظلمها . . قال تعالى :

﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحمت نفسك ، وهذه قضية يشتها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل في قرآنه المحفوظ المتلو المقروء :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالؤمن يقول : هذه كلمة صدق ، والكافر يقول - والعياذ بالله - : هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أى تقدير متتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال : لا يوجد

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

إله إلا أنا ، والذي أخذ منه الكون إله ولكن أعلم أن الكون أخذ منه أم لم يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة في هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذي أسكته ؟ فالمسألة - إذن - محلولة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحداية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتها إلى آلهة متعددين ، إنه هو الحق ، وهو الذي ينفع ويضر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد ، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كممثل العبد الذي له شركاء وباليتهم متفنون ، بل هم مختلفون .

بعد ذلك يأتي في المرحلة الثانية وهي : اليأس من رُوح الله ، وه الرُوح ، من « الراحة » وهي النسيم ، فساعة تكون في ضيق والجوارح تلتفت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا ييأس من رُوح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ، لأن الحياة أغيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وللكون الظاهر سنن في الأسباب والمسببات .

فب أن أسبابك ضاقت بشيء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذي لا يؤمن بإله قوى يخرق الأسباب ، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا .

إذن فالْيَاس من رُوح الله هو من جعل قوة الله العليا التي خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية في شيء يش منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ، لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس ، فالذي ييأس من رُوح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إن الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما ييأس إنسان من رُوح الله ، يكون قد سَوَّى الله - بطلاقة قدرته - بالنوانيس ، إن الذي تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عقوق الوالدين » وهما الخلية الأولى التي يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر في إيمانك ؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عقلت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذي لم تره ، إذن

فاحترامهما والبرّ بهما ليس - فقط - لأنها سبب في وجودك وإنما - أيضاً - لأنها ريبك صغيراً فعليك بالبرّ بهما ، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سبباً في إيجادك ، وتربيتك، وعندما ترقبها وتتساءل : من أوجد أباك ؟ جدك . ومن أوجد جدك ؟ تصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم .

ثم قال : قتل النفس ، والقتل هو نقض بنية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأى شيء . ولنقرأ القرآن بإمعان ، إن الحق يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَأْتِ أَوْقِيلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية ، وهذا لا يجريه إلا الله ، إنما القتل يهدم البنية ، فأى إنسان يستطيع أن يفعله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحداً عجل بأجل القتل ، لا ، ولكنه تدخل في بنيان أقالمه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد في بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء . إذن فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل في هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحمل إلا في بنيان له مواصفات خاصة تقتضى أن يكون المخ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم . لكن حين يجيء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية .

وضربنا مثلاً لنقرب هذا الأمر - والله المثل الأعلى :

إن هذه الروح نشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمها ولم تذوقها ، إذن فبأى وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها . لكنك تعرف أنها تدبر حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رمة . وقد جعلها الله كدليل ذاتي في النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار ، تقول : لا ترى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾

(سورة الذاريات)

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما في الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لا تعدد انت أولاً ، فروحك التي تدبر جسمك أين هي ؟ ما شكلها ؟ مالونها ؟ ما رائحتها ؟ أتعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف تطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ أخلق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه . إذن فمن عظمت أنه لا يُدرك ، ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح في الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٣٧﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهت تلك الروح بالكهرباء - والله المثل الأعلى - هل تعرف ماهي هل رأيتها ؟ . لم تراها ، هل أحد عرفها ؟ الذين اكتشفوها ، أعرفوا ماهي ؟ لم يعرفوا ، إنما يعرفها بآثارها ، فساعة نرى المصباح منيراً نقول : جاءت الكهرباء ، وساعة تدور المروحة نقول : الكهرباء جاءت . إذن فانت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لا تجد له حركة . وعندما تحف الحركة وتختفت يقولون : خذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لا تتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مازال حياً ، ولذلك هات المرأة وضعها أمام مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرأة فهذا يعني أن هذا الإنسان مازال حياً ، وفيه روح ، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائي فالكهرباء لا تعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لا تظهر إلا في قالب من هذا النوع ، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور .

إذن فعندما نهدم الجسم لا تجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائي إن انكسر تكون الكهرباء موجودة في الأسلاك إنما لا يوجد نور ، وعندما تأتي بمصباح جديد يأتي النور ، كذلك الروح لا تظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه فهذه شهادة

فالزنا يحمل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، والعلامه الأولى اننى ارادها الله حينما اوجد حواء لادم هى ان تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه في النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعثها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد في الأولاد .

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، لأن الفرار يصنع خللاً في المجتمع الإيماني ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أغاروا علينا ، وماداموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الاسلام ، حتى لا يمكن أعداء الاسلام من ديار الاسلام ، ولتظل كلمة الله هي العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان في النفس ، ولذلك لا تغفروا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لا يهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ؛ لذلك فالفرار في يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس في الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية في النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب في أحد أمرين كلاهما حسن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ما قاله الله :

﴿ وَتَحْنُ نَرَبُّصُكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فلذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يفقد الحياة التي هي سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَنْ يُؤَيَّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُنَحْزِئًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ

مِنْ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لا يدخل في معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحداً ، فإذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة ، وبثمن يُبقى للجماعة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الغموس . واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع ، لأن اليمين الغموس هي السبب الذي يغمس صاحبه في النار ؛ لأنه حلف على شيء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شيء لم يكن وهو قد كان ، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولا يعرف القاضي التمييز حين يفصل في الحقوق ، هنالك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدي ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة بخلفان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه .

وتأتي كبيرة أخرى وهي الغلول . وتعني أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهي ما نسميها « السلب » . وهي أسلحة الأعداء وما عندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها ، أهيكون قد نقض عملية الحرب في سبيل الله أم لا ؟ إنه ينقض عملية الحرب في سبيل الله ، إن الحرب في سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هي العليا ، ولذلك يقول الحق : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غل بقره . . فسيحملها يوم القيامة ، وسيكون لها خوار . .

وإن غل في أسمنت فسيأتي حامله يوم القيامة ، ومن غل في حديد أو استورد لحوماً فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتي وهو يحمل يوم القيامة .

ثم تأتي كبيرة وهي شهادة الزور . فشهادة الزور أيضا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لا تجعل المؤمن مطمئنا على حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفرع كيانه ، لأنه ينتهي إلى قوة خفية ، إذ

ليس أمام الذي يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب في الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مضرة السحر في هدم كيان المجتمع وتفزيعه ، فلماذا وجد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد . وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد في ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هي لغيرك . أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك ، فهذا يمثل خللاً في تكافؤ الفرص في الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذي يحمي المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة في مادة الكون هو الذي يتغلب ، وبذلك لا أخذ أنا فرصة غير موجودة عندك . فتكافؤ الفرص هو الذي يرحم البشرية .

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل في الشيوعية في روسيا قد سقطت وبقيت قوة في الغرب تتمثل في أمريكا ، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التي تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى في الفرص المادية الموجودة . وهذا هو ما يحمي الكون من الدمار ؛ لأن أى واحد يفكر في أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو يتقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب ، إذن فحماية الجنس البشرى إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفرادها ، ولكن الإنسان جنس ، والجنس جنس آخر ، والإنس والجنس مكلفان من الله ، فعنصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن :

﴿ قُلْ أَوْسَى إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدَىٰ إِلَىٰ

الرَّشْدِ فَعَامَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾ (سورة الجن)

وعندما قسموا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِفَ قِدَدَا ۝١١ ﴾

(سورة الجن)

إذن فهم مثلنا . . لكنهم لهم قانون ولنا قانون :

﴿ أَنَّهُ يَرَنُكَ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۝١٢ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن فقانون الجن أنه يرى الإنسان ، والإنسان لا يراه ، وقانونه أخف من قانون الإنسان ، لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين . . أى أن لنا مادية محسة وكثيفة . والجن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلنا : النبات والحيوان ، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها . هب أنها خلف جدار وأنت جالس . أتعدى طعمها لك ؟ أتعدى رائحتها لك ؟ أتعدى لونها لك ؟ لا ، إذن فالجرمية المحيزة لا تجعلك تنتفع به .

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الجدار ، وبعد مضي مدة ستشعر بالحرارة ، أى أن الحرارة قد نفذت . والجن له شفافية وله خفة في قانونه وفي انتقاله ولا توجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان ، ولذلك لاحظوا أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذى سخر الله له الجن :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَمِمْشِلٍ وَجِجَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۝١٣ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

وحينما اجتمع في جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ ۝١٤ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النمل)

وبعد ذلك جاءه الهدد وقال له :

﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ۚ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَبْلُغِينَ ۝١٥ إِنْى وَجَدْتُ أَمْرًا تَحْلِكُ بِهِمْ ۝١٦ ﴾

﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢)

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بهمهم ، إنما المهم هو قول الهدهد :

﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول . فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً : « إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » هذه مقومات الملك ، أما المسألة التي تهتم سيدنا سليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر ، كان الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب ، ثم يقول :

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذي يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء به الخبء ، لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويخرج رزقه .

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس - ملكة سبأ - في الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » . معناها أن الذي يتصدى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحمل ويحمل العرش ويأت به قبل أن تأتي بلقيس .

بالله هل من قانون بشري يأتي به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لم يتكلم إنسي عادي ، فالإنس العادي يعرف أن قانونه البشري لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتون » ، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم في الطريق . فهل يذهب إنسان عادي ويحمل العرش ويحمله ويأتى به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصدى أحد الأذكىاء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ

أَمِينٌ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك ليس بجن عادي ، فالجن أيضاً فيهم عفاريت أذكىاء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكيف يمكن من الوقت ؟ لا نعرف ، نرى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف ، إذن فتأخذ هذه العملية زمن مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسى الذى أعطاه الله فتحاً من الكتاب وعلماً يقول :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسى العادي لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسى الذى أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ولذلك انظر إلى الأداء العاجل في القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، ومنها نعرف أن له قانوناً في الحركة والسرعة ، والإنسان الذى وهبه الله علماً بالكتاب له قدرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيي المفكرين قائلين : ما الجن والملائكة والعالم الخفي الذي نحدثوننا به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحسّ بالنسبة لك ؟ فما رأيك في الميكروبات التي ظهرت الآن بعدما اخترع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كانت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسك وغير مدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناس غير مدركة ، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها ؟ فما المشكلة في هذا ؟ .

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

(وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)^(١)

قد تتساءل : وهل الشيطان يجري مجرى الدم ، أم هو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو خلق لطيف خفي له قانونه الخاص ، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك في الغيبات التي يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هي الميكروبات ، وهي من الجنس المادي من الطين ، لكنها ضئيلة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينفذ في الجسم ولا تدري أنت به وهو داخل في جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل في حرارتك ؟ وماذا يفعل في جسمك ؟- فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله : إن الشيطان سيجري منك مجرى الدم فما التناقض في هذا ؟ إذا كان هناك شيء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميزانك في الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك ، فتتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد . أي تناقض إذن ؟

إن ربنا ترك من غيبات كونه المادي ما يثبت صدقه في التحدث بغيبات أخرى :
« قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، لقد جاء

الحق بواحد من الإنس حتى لا يظن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون - سبحانه - إذن فالمسألة ليست عنصرية بل هي إرادة الله إنه - جلّت قدرته - أوضح : أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوى بقانونه وهو الجن محكوماً لواحد من الإنس ، ويجعله يعمل ما يريد . ولم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها ؛ لأنها ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره . وقد يظن بها وهذا هو السحر . وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ ، لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها في الضار فقد تستعملها في ذلك ؛ فستذهب بك إلى النار . والحق يقول :

﴿ فَيُعَلِّمُونَ مِنْهَا مَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ الرَّءْفِ وَذَوِّجِهِ ۖ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيُعَلِّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۖ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من طلاقة قدرته يعطي للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئاً يستطيع به أن يسخر الأقوى وهو الجن ، والجن يعرف هذه الحكاية . ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يأتى ويندوم بل يأتى لمحة خاطفة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستقر على صورته التي يتمثل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلاً لحكمته الصورة ، وإن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من مسدسه ! لقتله !

ولذلك فالجن يأتى لمحة مثل ومضة البرق ويختفى ، إنها طلاقة قدرة الحق التي

يمكن أن تعطى للجنس الأقل - الإنسان - قوة القدرة على أن يُسحر الجنس الأقوى - الجن - ، لكن هذه ليست في مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجن يقول : أنا أكتفي في جنسي بقانوني ، فربما يجعلني عدم تكافؤ الفرص طاعياً ، لأن من يملكون هذه القدرة يطغون في الناس . والذي يقوم بعمل تكره به المرأة زوجها ويكره به الزوج امراته هو نفسه من يَجَل مثل هذا العمل ، ومن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية .

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، فالسحر وارد بنص القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية في السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذي يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفتكوا له السحر ، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، ويفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقاً مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَأَنْتُمْ كَانُمْرًا لَا يُرْجَى الْفِتْنَةُ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ رَهِقًا ۝١٠ ﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرّون أن يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المنسوب فيه رهقاً ونعياً .

وعلى المؤمن أن يحمي نفسه بهذا الدعاء : اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الضر ، فأعوذ بما أقدرت عليه بما احتفظت به .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه ، فهم يتغلون الضعيف فقط ، والسحر يوجد عدم تكافؤ فرص ، ويفتن الناس في الناس ، ويؤدي إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك نحي . كبيرة منع الزكاة ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نذكر ، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشيء من عندنا ، فالعقل الذي يخطط للعمل مخلوق لله ، والجوارح التي تعمل مخلوقة لله ، والأرض التي تعمل فيها أو الصنعة التي

نصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوضح لك : ساحترم عملك ،
وعليك أن تعطى أخاك الفقير بعضاً مما رزقتك به .

ويقول قائل : مادام هو ربُّ الكلِّ ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نقول : لكي يُثبت
الآخيار في الكون ، ويعرف الغنى أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الضعف
قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيُخنن الخالق قلب الواحد على
المعدم ليعطيه ، فيوم تمنح الزكاة يظهر أثر ذلك في الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب
دقيق ، ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان يحن فاعرف أن واحداً ضيع زكاته فلم يؤدها ،
وإن رأيت عورة في المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيئاً لله ، لأن ربنا جعل المجتمع
متساوياً والنقص هنا يكمله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله
مضيئاً .

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرف أن
الصلاة هي إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله مرة واحدة في العمر ، وتزكى إن كنت واحداً وقادراً مرة واحدة في
السنة ، وتُحج مرة واحدة في العمر ، وتصوم شهراً واحداً في السنة ، وإن كنت
مريضاً لاتصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لا يرجي شفاؤه أو
أصبح الشخص لا يقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتزكى ، فقد
سقطت الزكاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج .

هاهي ذى ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . وبقي ركنان اثنان من أركان
الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن
لا إله إلا الله يكفي أن تقولها في العمر مرة ، فهاذا بقي من أركان الإسلام ؟ بقيت
الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين » (١) .

(١) يرواه أبو نعيم الفضل بن دكين في الصلاة عن عمرو وهو حديث حسن ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ

(الصلاة عماد الدين) عن عمرو ولكنه ضعيف .

إذن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات ، وحتم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله . فلا يعبد واحد ربنا مراً وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تترك الصلاة بنعدم إعلان الولاء له . سبحانه .

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات في اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له في أى وقت تجده في استقبالك في أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون في حضرة ربنا ، وقلنا سابقاً : إن من له السيادة في الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه . ويحدد لك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : مستكلم في ماذا . وقد يقف المستول أو السيد في الدنيا وينهى المحادثة . لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له في أى وقت وفي أى زمان وتعطيل كما تحب ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسب نفسي عزاً بأن عبيد

يحنفى بى بلامسواعبيد رب

هو فى قدسه الأعز ولكن

أنا القسى منى وأين أحب

صحيح هو يأمرني أن ألقاه خمس مرات في اليوم ، لكن الباب مفتوح للقاءه في أى وقت ، وأوضحنا سابقاً . والله المثل الأعلى . هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم . أ يوجد فيها عطب ؟ لا . وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يصلحها صانعها بسلوك أو بمسار أو بوصلة يضعها ، أما أنت المخلوق لله وربك غيب وهو يصلح جهازك بما يراه مناسباً .

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم ، ونقض العهد لا يجعل إنساناً يثق في وعد إنسان آخر . فينتشر التشكك في نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يحل مشاكل للناس /المعسرين ، فعندما يقول قادر لغير قادر : أعدك بكذا . ويعطيه ماوعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن

يصدق به بعد ذلك . وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصبح صادقاً ، وكل ما عند الناس يصبح عنده ، ولذلك يقولون : من يأخذ ويعطى يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتي كبيرة قطيعة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو القائل في الحديث القدسي :

(أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)^(١) .

ونعلم جميعاً حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له : يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أى إخوتى هو ؟ ألا تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية : أنت أخى ؟ قال : نعم فقال معاوية : وأى إخوتى أنت ؟ فقال : أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية : رَجِمْ مقطوعة ، لا تكونن أول من وصلها .

تلك هى الكبائر التى ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهى تمثل ما يمكن أن يكون نقضاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحي المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى سلام ، فيوم تأتى - أيها المسلم - كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحينئذ لا يكون هناك أمان ولا سلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » وعندما ندقق فى كلمة « تنهون عنه » نلغز إلى أن أصل الفضائل : أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً ، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقص بالبواهي ، ولذلك يقولون : التخلية قبل التحلية .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » . « ونكفر » أى نستر ، لأن

(١) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود والترمذى والحاكم عن عبد الرحمن بن عوف .

الكفر هو السر ، وقلنا : إن التكفير للذنوب إمطة للعقاب ، والإحباط إمطة للثواب ، « وندخلكم مدخلاً كريماً » ، فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم - يقول الحق :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

وقد كان يكفي ألا تعاقب ، لكنك حينما تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك في مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ») (١) .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد ، وهو : التوازن بين أفراد الجنس الإنساني ، كل هذا الكلام كي يحفظ الجنس الإنساني مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعي الجنس الإنساني ، والجنس الإنساني فيه ذكورة وفيه أنوثة . ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن يجمعهما في شيء مشترك ، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان في مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك يتفردان في مطلوبات النوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أيضاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة في مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشري .

ومادام الجنس البشري قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

خصوصية . وربنا سبحانه وتعالى لا يأتى حتى فى البنية العامة ليجعل الجنسيتين مستويين فى خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وجذع وأرجل، إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشيء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : نسوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم : المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التى لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لا يقوم بها أحد . إذن فأنت حملتها فوق ماتطيق وأنت مخطيء ؛ لأنك تأتيتها بمتابع أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساعه بخلق جنساً ، وساعه يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ما هو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية ، الاثنان متساويان فيها ، ولا يفرضها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة فى الأمر الأول للإيمان ، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿٦٠﴾

(سورة النحر)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل ، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

وَلِجَنِّي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَتَجْنِبْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

(سورة النحر)

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة النحر)

إذن ففي مسألة العقيدة الكل فيها سواء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعز على كثير من الرجال . ولنا المثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها في صلح الحديبية فعندما يأق الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحزن أصحابه ومنهم عمر رضي الله عنه الذي قال : أنقبل الدنية في ديننا فيقول له سيدنا أبو بكر : الزم غرزك يا عمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله مغضباً ، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة ، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها : هلك المسلمون ؟ ألا ترين إلى الناس أمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي ؟ فقالت يا رسول الله : لا تلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبي الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بطنك وتدعو حالقك فيحلقك .

لقد وقع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله في هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول : ساين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أي ما نكرهونه ويشق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّزَّاعِلُوهُمْ أَنْ تَطْغَوْهُمْ فَمَا أَصَابَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لوتزايلا أي لوتميز المؤمنون في منطقة لعاقبنا الكافرين عقاباً شديداً . إذن لقد أوضح لهم العلة ، فرضى الكل ، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس في الرجل الذي ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، فجاء على لسانها في القرآن الكريم :

﴿ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِرِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٩﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُوبِي سُلَيْمِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النمل)

فإذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدِ وَالْأَمْرِ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يؤتمر فقط ، يحارب أو لا يحارب ، لكن الذي يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركة القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتعمل الساسة الحادثين يفكرون في عواقب الأمور ، لذلك قال قادة الجند لبلقيس : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » ، لقد وضعوا الأمر في رقبته وهي امرأة ، ففكرت : سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب ملك أم صاحب دين - فأرسلت هدية له ، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية :

﴿ أَتَمِدُّونَ بِمَالِ قَوْمِ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فعرفت بلقيس أن الملك ليس هدفة ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ، فقالت : أذهب له وأسلم . انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت :

﴿ وَأَسَلْتُكَ مَعَ سُلَيْمَانَ قَوْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النمل)

يعنى : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غضاضة مادامت هي وهو عبيداً لإله واحد ، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل ، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لا بد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

فاجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

هي امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر ؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً في إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستحيلة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم ، إذن فكل واحد معد لمهمة . فلا يقول أحد : أنا ناقص في هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتى الدين ليوضح : يا مؤمنون .. الحريز حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أى تدليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالحريز والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذى يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويهد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَسْتَمْتُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى
بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، ونحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنها يشتركان في مطلوب الجنس ، ثم يختلفان في مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك في الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجهاد وجدنا الجهاد جنساً عاماً ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب زملاً ، ويتطلب أسمتاً ، ويتطلب آجرًا ، ويتطلب حديدًا ، فجنس الجهاد كله مشترك في إقامة البناء ، ولكن للأسمت مهمة ، وللجس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو - وهو الزلط - مهمة ، فلا تأخذ شيئاً في مهمة شيء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل في الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل في النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تضع نوعاً مكان نوع لما استطعت .

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتي لتقول : إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أي أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه . فالزمن وهو النهار ظرف للحدث في زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث في زمنه . ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقنا عليه ، فبين

لك : هذا الذي تختلف فيه رقة إلى المتفق عليه . فالزمن لا خلاف في أنك تجعل الليل سكناً ولباساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كما جعل الزمن ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان ؟

إنهما متكاملان ؛ لأن راحة الليل إنما جعلت لتصح حركة النهار . فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذي يعين النهار على مهمته . . . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً لما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذي أعان حركة النهار ؟ . . . إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بين : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين . . . فإذا اختلفتم في أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتجدا في العمل والحركة والنوع نقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه في الزمن ، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْشَى ①﴾

(سورة الليل)

فعندما يفشى الليل يأتي السكون . وقال الحق بعد ذلك :

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ②﴾

(سورة الليل)

وعندما تبرز الشمس تلدب الحركة ، ثم جاء بالشيء المختلف فيه ، فأصبح سبحانه ذلك بقوله :

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④﴾

(سورة الليل)

أي أن لكل جنس مهمة . .

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رجل يرغم امرأة على عقيدة ، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل في المهمات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة - رضي الله عنها - أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس - ملكة سبأ - التي استطاعت أن تبرم أمراً تخلّى عنه الرجال ، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لمن أصالة الرأي ، وحكمة المشورة في نوع مهمتها .

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك « كندة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيباني ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كندة » يقال لها : « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف . أي أرسلها خاطبة . فلما ذهبت إلى والدته « أم إياس » واسمها « أممة بنت الحارث » وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعي الابنة من خيمتها ، وقالت لها : هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجهه وخلق ونأطيقها فيما استنطقتك به . فلما اختلت « عصام » بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للخطابة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الخطابة كلمتها المشهورة : « ترك الخداع ما انكشف القناع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أي أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الخطابة « عصام » إلى الملك فسألها : ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أي خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت : أبدى المخض عن الزبد . والمخض هو : هز الحليب في القربة ليفصل الزبد عن اللبن . وذلك يعني أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبريني .

قالت : أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفاً أخرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفي ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصي ابنتها في ميدان عملها ، في ميدان

أمومتها ، في ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها : « أى بنية ، إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركك لذلك منك - أى أنها كام تثق في أدب ابنتها ولا تحتاج في هذا الأمر لنصيحة - ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل . إنك خدأ سنذهيين إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فكوني له أمة يكن لك عبداً . واحفظي عنى عشر خصال تكن لك ذخراً » .

وانظروا إلى الخصال التي استنبطتها المرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم : « أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والخامسة والسادسة : التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تنغيص النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعمل عياله . وأما التاسعة والعاشرة : فألا نقشي له سرّاً ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمنى خدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إلياس بهذه النصائح إلى زوجها وأنجبت له البنين والبنات وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل ، ولكن في أى شيء ؟ في ميدان مهمتها . إذن فالمرأة بمنحها الله ويعطيها أن تتعقل ولها ميدان ولا يأتى هذا التعقل غالباً إلا في ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحزم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ؛ والأمثال في حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويجب أن ينام ، قد يأتى له طفله صارخاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألقافاً مثل : « اكتمى أنفاسه إلى أريد أن أستريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كفه وتسكته ، ويستجيب لها الطفل ، فهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية المعصية تبرز الرجل في مكانه والمرأة في مكانها .

فمثلاً : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بواي غير ذي

زرع ، قالت له : أتركنا في مكان ليس فيه حتى الماء ، أهذا نزلته برأيك أم الله أنزلك فيه ؟ قال لها : أنزلى الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كما شئت فإنه لا يضيعنا . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طفل في مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو الماء . فانظروا عطفها وحنانها ، ماذا فعلت ؟ لقد سمعت بين الصفا والمروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها .

إن الذي يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحملة المرأة في سبيل ابنها ؛ لأن هذا موقف عطف وحنان ، ابنها يريد أن يشرب . وكان الله قال لها : إنك قد سميت ولكني سأجعل رزقك من حيث لا تحسبين . أنت سميت بين الصفا والمروة ، والماء ينبع تحت قدمي ولدك . إذن فصدقت في قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعاً أن السعي هو الذي يأتي بالماء ، ولكن اسع ولا تعتمد في السعي ، بل اعتقد في الرزاق الأعلى ، تلك مسألة ظاهرة في أمنا هاجر .

وحينها جاء موقف الابتلاء بالذبيح ، اختفت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته . ورأى في الرؤيا أنه يذبح ابنه ، أين أمه في هذا ؟ اختفت من المسرح ؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة . والنجاح يكون على قدر هذه المهمة . ولذلك يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فساعة ترى جنساً أخذ شيئاً وجنساً آخر أخذ شيئاً ، إليك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول : « أريد هذه » ، ولكن اسأل الله من فضله ؛ لأن كلمة « ولا تتمنوا » هي نهى عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضاً على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » . وما دمت تسأل الله من فضله ؛ فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل : كيف ينهانا الله عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعضٍ بدليل قوله : (ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) فضلاً على أنني أطمع في أن أسأل الله ليعطيني ؛ لأنه - سبحانه -

ما أمرنا بالسؤال إلا ليعطينا .

ونقول : لا ، التمني عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجربه العادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتي إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تذهب إلى منطقة التمني ، ولذلك ضربوا المثل للتمني بيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل : ليت الكواكب تدنوا فأنظّمها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجربه العادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون في حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . ومادام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا في منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواء ، ولكن في منطقة أن توفق في إبراز ما فضلك الله به ، ولذلك نجد الحق في آيات التفضيل يقول :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما يستفاد به ، فالعلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقوله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يجعلنا نتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال : « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن فبعض مفضل وبعض مفضل عليه .

وسؤال آخر : وأي بعض مفضل وأي بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل في شيء ومفضل عليه في شيء آخر ، فإنسان يأخذ درجة الكمال في ناحية ، وإنسان يفتقد أدنى درجة في تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة

ومكتومة . وهذا يعنى التكامل فى المواهب ، وهذا التكامل هو أسنان الحركة فى المجتمع .

لنتنبه إلى التروس ، نحن نجد الترس الزائد يدخل فى الترس الأقل ، فتدور الحركة ، لكن إذا وضعنا ترساً زائداً مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة . إذن فلا بد أن يكون متميزاً فى شيء والآخر متميزاً فى شيء آخر فيحدث التكامل بينهما ، ومثل ذلك قلنا: الليل والنهار ، الليل يعينى على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف فى يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسنه خبير فى الحداثة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الخبير فى صقل السيوف الذهاب للمعركة ، وقد يخاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطى الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوق على فى مجال ما ، لأننى أحتاج إليه ، وهو لا يحسدنى إن تفوقت عليه فى مهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يتفوق ، وهو يريدنى أن أتفوق ، وذلك مما يحبب الناس فى نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب النعمة التى وهبها الله للآخر ، وهو يحب النعمة والموهبة التى عندى .

مثال ذلك عندما نجد رجلاً موهوباً فى تفصيل الملابس ويحبك أجود الجلابيب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لدكانه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمود ، ولذلك سبحانه الله « بعضاً » و « بعضاً » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنت موهوب فى بعض الأمور ولا تؤدي كل الأمور أبداً ، ولكن بضميمة البعض الآخر تملك جميعاً مواهب بعضنا بعضاً .

ويتابع الحق : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومؤدياً للمهمة التى خلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتي على مقدار ما يقوم كل مخلوق بما كلف به .

والمثل على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة ، يتجلى في أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع . فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ؛ لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله في خلقه ، ويحترم مواهب الله حين إعطائها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى بما فضله به ليعطى له البركة في مقامه . وحين يقول الحق : « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » نلاحظ أن هذه تساوى تلك تماماً .

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً » ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب في خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذي يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إننا لم يكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتتفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل ويتفق عليها ، والسألة بذلك تكون عادلة . وكذلك قال الرجال : مادام الله قد فضلنا في الميراث ، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا في الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصنع الرجل العمل الواحد ويريد الضعف ! .

وانظر للذكاء المرأة ، حينما قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن ؟ فأوضح لهم الله : اهدأوا « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٢٢﴾

وساعة ترى لفظة « لكل » ونجدها منونة ، فاعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصلها
« لكل إنسان » ، وحذف الاسم وجاء بدلاً منه التنوين ، مثل قوله :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التنوين في « حِينِيذٍ » أي حين بلغت الروح الحلقوم ، فحذف حين بلغت
الروح الحلقوم وعوض عنها التنوين في « حِينِيذٍ » إذن فالتنوين جاء بدلاً من
المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، « الموالى » جمع « مولى » . وقبل أن تنزل
آيات الميراث ، أخى النبي بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة ،
وكان هناك شيء اسمه « مولى المناصرة » وهو أن يستريح اثنان لبعضهما ويقول كل
منهما للآخر : أنا أخوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ولحمى
دمك ، وترث منى وأرث منك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، أى أن فعلت جناية تدفع
عنى ، وإن فعلت أنت جناية أدفع عنك . مؤاخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب في مال المتوفى ، فالحق يبين : لكل إنسان من الرجال
والنساء جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان ، والأقربون . . أى لهم نصيب من ذلك
ولأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك . فليأكم أن تأتوا أنتم وتقولوا : لا ، لا بد أن
تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السلم .

لكن اظن ذلك الحكم ؟ لا . لقد نسخ وأنزل الله قوله :

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

فإدام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى عما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شيء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئاً ، لا ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه أتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق : « فأتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً ، فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

ويعد ذلك جاء ليتكلم في قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ
اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ
فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا
حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيَّ نَخَافُونَ شُرُوهْنَ فَعِظُوهُنَّ
وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِن
أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

«الرجال قوامون على النساء» ، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلا على الرجل وزوجته على الرغم من أن الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ، والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ وننظر أهذه تعطى النساء التفوق والمركز

أم تعطيهن التعب . والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذي يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدي إلى المخالفة ، والمرأة التي تخاف من هذه الآية ، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألتها : لماذا إذن ؟ تقول : أريد ابناً ليحمينا . كيف وأنت تعارضين في هذا الأمر ؟ .

ولنفهم ما معنى « قوام » ، القوام هو البالغ في القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذي فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ، أى لا يرتاح أبداً . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى في مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك في قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟ .

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب في الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفي قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذي دعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ أَتَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم : إذا هبطت إلى الأرض فاذاكر هذه العداوة . وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يغويك ويغريك ، لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذي أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقى أو فتشقى ؟ قال سبحانه :

﴿ فَتَشْقَى ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء في الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلاحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء به « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوام فضل المرأة أيضا لشيء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتي حثيثة القوامة : « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتي نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذي يتعب نقول له : أنت قوام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ، لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك . ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ، لأن الكسب لا يريد هذه الأمور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله : « قوامون » يعنى مبالغين في القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرون أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ، لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهي مهمة صعبة عليه أن يبالغ في القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع في الذرية ، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التي تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صدقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تفرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن المرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدي مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوام » تعنى أنه مستمر في القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمتا تكدح وتنعب للمرأة فلا بد أن تكون للمرأة مهمة توازي ذلك وهي أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً .

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى في صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يلتزم به، لأنه حكم الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه ، فلوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحديث فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها من خلقها في نوعها ، فمادامت هي صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذي نقتته ، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يقرب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالآب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة في ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »^(١)

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه :

« خير النساء التى تسره إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا ماله بما يكره » (١) .

وأى شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك . وكلمة « إن نظرت إليها سرتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن نأخذ صفة فى المرأة ونترك صفة أخرى ، بل لابد أن نأخذها فى مجموع صفاتها . فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢) .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » - كما يقولون - وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهى أن تكون جميلة فانت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصه ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفضل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير ، يذهب بعد فترة وتهدأ شيرته . وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتطلع إلى نواحي الجمال الأخرى ، فلا يجدها . فيحدث الفضل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها . إياك أن تأخذ زاوية واحدة ، وخير الزوايا أن يكون لها دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنه في الأرض وفساد عريض »^(١).

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال : زَوْجَهَا مِنْ ذِي الدِّينِ ، إِنْ أَحْبَبَهَا أَكْرَمَهَا ، وَإِنْ كَرِهَهَا لَمْ يَظْلَمَهَا .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبع فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها في بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بغصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تخرجه وترعاه ، أن تتعلم كي تغني عن مدرس خصوصي يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقي عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنوبر ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأى عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التي لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجال من عندها أو باختيار ، بل بالمتبع الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟ ..

فما المتبع الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟ نحافظ على عرضها وعلى مال زوجها في غيبته ، فنتظر المنافذ التي تأتي منها الفتنة ونمتنع عنها ، لا نخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا نرى أحداً يفتننا أو يفتن بها ، لأن هذه هي مقدمات الحفظ ، ولا تذهب في زحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها : « حافظي على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بينته الله في ذلك . فإن اضطرت أن تخرجي فلتغضي البصر ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفتت عاطفى ، لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن يتزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان ومجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا المحبت لتقطفها فهذه عملية نزوعية . فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان ، فنزوع .

ومنى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً . يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تعبد فى نفسك ، إنما ساعة تتزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ، لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن يتفصل هذا عن النزوع ، لأنك - كرجل - مركب نركبياً كيميائياً بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يبدأ إلا بنزوع ، فبين لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة . وكل شيء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تتزع ونزوعك سيكون عريضة فى أعراض الناس ، وإن لم تتزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

غَيْبٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ ﴿٤١﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأنني عندما أرى وردة ، ثم قالوا لي : هي ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندي ارتباك في ماضي ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده التزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تتفعل لهذا الجمل ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأدخل في المسألة من أول الأمر ، فقله : « بما حفظ الله » أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسي إلى إدراك ، فينشا عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر في التزوع ، فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتي شر من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، بمعنى انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالفه .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يرى في عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتي تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضي الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، « النشوز » من « نشز » أي ارتفع في المكان . ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، ومادام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : من تريد أن تتعالى وتوضع في مكانة عالية ؟ ، ولذلك فالنشاز حتى في النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة نشاز ، أي خرجت عن قاعدة النغمة التي سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن في بالها أن تتعالى فليالك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه ، ومعنى قوله : « واللاتي تخافون » يعني أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أي ساعة تراها تنوى هذا فعظها ، والوعظ : النصيح بالركة والرفق ، قالوا في النصيح بالركة : أن تتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها في الطرف المناسب لكي يكون الوعظ والإرشاد مقبولا فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذي تمناه الابن ، ويقول له :
- تعال هنا يا بني ، إن الله قد وفقني أن أحضر لك ما طلبت .

وفي لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لي أمك من سلوكك الرديء لما أحضرته لك .

ولو سب الأب ابنه في هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة في وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نفعل غير ذلك . فالواحد يأتي للولد في الوقت الذي يكون هناك نفور بينها ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن نتتهد فرصة التصاق عواطف من نرغب في وعظه فنأتي ونعطي العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ، والنشوز فانتبه . والمرأة عادة تبذل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ، لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة . فانت ساعة ترى هذه الحكاية ، وهي تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ، فأعط لها درساً في هذه الناحية ، اهجرها في المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها في البيت ، لا تهجرها في الحجرة ، بل تنام في جانب
وهي في جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها في المضجع ،
لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام في حجرة مستقلة لو تركت البيت
وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها في المضجع فذلك أمر
يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتينا طرف عاطفي فتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً
طرف عاطفي فتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقله : « واهجروهن في المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت ستبدلين بهذه
فأنا أقدر على نفسي . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها في المضجع ؟ .
نقول : مادام المضجع واحداً فليحطها ظهره وبشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على
السرير وتغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ، لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة
إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب
قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهي أيضاً تتلمسه . والذي يفسد البيوت أن عناصر من
الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث في المرأة عناداً وفي الرجل عناداً ، لذلك
لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والاخت ، ولنجعل
الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . فهناك أمر بينهما سيلجئها إلى أن
يتساعها معاً .

« فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط
ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ،
ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر في قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة
جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِسِدِّكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضعف هو الحزمة من الخشيش يكون فيها مائة عود ، وضربها ضربة واحدة
فكانت ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوهاً بحثان الضارب

فهي تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذي خلقنا يشرع حكماً
تأبىه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذي شرع وقال هذا لابد أن يكون
هكذا .

« واللاتي يخافون نشوزهن فعضوهن وامجروهن في المضاجع واضربوهن » أي
ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع
الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » .

فالمسألة ليست استدلالاً : بل إصلاحاً وتقويماً ، وأنت لك الظاهر من أمرها ،
إليك أن تقول : إنها تطيعني لكن قلبها ليس معي ، وتدخل في دوامة الغيب ، تقول
لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه في كل التصرفات هو ظاهر الأحداث . أما
باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ، فظاهر الحدث
إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن
أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تنبته إلى أن الذي أحلها لك بكلمة هو أقوى
عليك منك عليها وهذا تهديد من الله .

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتي ، وأنا الذي جعلتك تأخذها
بكلمتي « زوجتي .. زوجتك » .. وما كنت قد ملكتها بكلمة مني فلا تتعال عليها ،
لأنني كما حيت حقت أحمي حقها . فلا أحد منكما أولى من الآخر ، لأنكما صنعتي
وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتي خطاب جديد في قول
الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا
مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا
يُوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

وقوله : « وإن خفتن شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما يخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شقت اللوح : أى أبعدت نصفيه عن بعضهما ، إذن فكلمة « شقاق بينهما » تدل على أنها التحم بالزواج وصاروا شيئاً واحداً ، فإى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَقْضَىٰ بِعَشْرِكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَاحْتَلَدَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مطروقة فى الرجل والرجل مطروف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، فإذا تعداهما الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتن شقاق بينهما » من الذين يخافون ؟ .. أهو لوى الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورهما وأموره ؟ أى الناس الذين يهمهم هذه المسألة .

« وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيعة والمجال العائلى ، إذن فلا ندع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كأن الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أخاً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتن شقاق بينهما » .. فالشقاق لم يحدث ، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لوى الأمر العام أيضاً إذا كانت عيونه يقظة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى ضوء مسئوليات لوى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيان للأسرة ، يقولون : نرى كذا وكذا .

ونأخذ حكماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى ستؤدى إلى عاصفة قبل أن

تحدث العاصفة ، فالمصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تتبلور المشكلة بعد ، وليس في صدر أى منها حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحُكْمُ من أهل الزوج والحُكْمُ من أهل الزوجة ليس في صدر أى منها شيء ، ومادام الاثنان متوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يضفا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق ، فهما يحكما بالطلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يصلحون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فنحن نختار حكماً من هنا وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكماء لا بد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة في الحكمين فقال : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » . فكأن المهمة الأساسية هي الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلوا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكان الحكمين قد دخلا بالأصلح .

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص في سبيل الوصول إلى الإصلاح ، لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى قضية له . فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، ويصرّا بإخلاص على التوفيق بينهما ، لأن الله حين يطلق قضية كونية ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته في دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٣٢)

(سورة الصافات)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندي على أن يكون جندياً لله ، لأنه إن انهزم فستقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فيخالف من هذه . إذن فوضع القضية الكونية في إطار عقدي كي يجند الإنسان كل ملكاته في إنجاح المهمة ، وعندما يقول الله : « إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فإياك أن تغتر بعزم الحكمين ، وبذكاء الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إياك أن تغتر بالأسباب ، لأن كل شيء من

المسبب الأعلى ، ولنلاحظ دقة القول الحكيم : « يوفق الله بينهما » . فسبحانه لم يقل : إن يريدنا إصلاحاً يوفقا بينهما . بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويذيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليماً خبيراً » أي بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محوطين بعلمه . وكل كل واحد أن يحرص على تصرفه ، لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التي تكتنف هذه القضية ، فربنا عليهم وخير .

وما الفرق بين « عليهم » و« خير » ؟ .. فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهي لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام في الزواج وفي المحرمات ، وأخذنا من مقابلها المحلات ، وتكلم عمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال .. وحذرننا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لفتنا الحق ووجهنا ونبها إلى المنهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، أى : إياكم أن تدخلوا في قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله في منهجه . . والعبادة هي : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التي نفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ، لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هي الأركان والأسس التي بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هي الأسس التي بنى عليها الإسلام ، والأسس التي بنى عليها البيت ليست هي كل البيت ؛ لذلك فالإسلام بانيان متعدد . فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفي ، أو المصطلح الفني في العلوم ويقولون : إن العبادات هي : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى في كتب الفقه « العبادات » فلقد قلنا : إن هذا هو الاسم الاصطلاحي ، لكن كل أمر من الله هو عبادة .

ولذلك فبعض الناس يقول : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هي إعلان استدامة الولاء لله . وتعطى شحنة لمستقبل أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقي للعبادة أنها تشمل عبادة الأرض ، فالخلق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء به البيع ، لأنه العملية التي يأتى ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار ، لكن البيع تأتى ثمرته مباشرة ، تباع فتأخذ الربح في الحال . والبيع - كما نعلم - ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تباع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها في البيع وفي الشراء ، ومادام هناك بيع ففيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يحب أن يبيع ، لكن المشتري قد لا يحب أن يشتري ؛ لأن المشتري

سيدفع مالا والبائع يكسب مالا ، فيوضح الله : أتركوا هذه العملية التي يأتي ربحها مباشرة ، ولتبدأ النداء لصلاة الجمعة . لكن ماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تَفْلِحُونَ ﴿١٥﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطلعنا الأمر الأول : « فاسمعوا إلى ذكر الله » فالأمر في « فانتشروا في الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانت صلاة فهي عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك .. ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصل . وما هي مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن وملبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن فجميع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدي إلى عبادة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله ، لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان .

وليك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه « قسم العبادات » وقسم المعاملات ، .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة ، لأنك تعمل لغتك ، أما في الصلاة فأنت تقطع من وقتك ، فسميتها العبادة الصحيحة ، لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بالله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأحوال الأخرى من عبادة الكون والمصلحة الدنيوية فقير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لترقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلاحظها دائماً في كل تصرفاتنا هي أن نأتمر بأمر الله في منهجه ، وألا نشرك به شيئاً ، لأن الشرك يضر قضية الإنسان في الوجود ، فإن كنت في عمل إليك أن تحمل الأسباب في ذنك أمام المسبب الأعلى . . بل اقصد في كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨)

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التي تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أغضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد ونهياً من السيد نفسه . والحق بشرع القضية لعباده بصيغة الاستغهام ، وهو العليم بكل شيء ليجعل المؤمن به يشاركه في الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان ؟ » هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فماذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً : لا يارب لا يستويان .

إذن فانت أيها العبد المؤمن قد قلتها ، ولم يفرضها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ، حتى يكون جوابك الذي لن تجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتفعت في الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ، هنا تصبح سيداً في الكون ، فلا تجد في الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هي راحتنا في تنفيذ قول الله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً »

لأن الإشراف بالله - والعباد بالله - يرهق صاحبه . وبالنسبة للمشركين حين يشركون بأخوانهم من الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلل عن العبد المشرك ، لأنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه)^(١) .

الحق إذن يتخلل عن العبد المشرك . وليت العبد المشرك يأخذ بحظه من الله كشريك . . وإنما يتعلم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يشرك معه أحداً آخر . وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمان ، وبخس في كد وتعب . ويرد الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله - جل شأنه - : « وبالوالدين إحساناً » والوالدان هما الأب والأم ، لأنها السبب المباشر في وجودك أيها المؤمن . ومادامت عبادتك لله هي فرع وجودك ، إذن فإيمانك من أبي وأمك كسبيين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول ؛ إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحساناً » . . انظر إلى المنزلة التي أعطاه الله للوالدين ، وهما الأب والأم . والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود ؛ لأن الخطاب لمكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك ، فإذا صعدت السبب فالوالدان من أين جاء ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصل لله ، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد ؛ لأن التكليف من المكلف إلى المكلف فرع الوجود . والوجود له سبب ظاهري هما « الوالدان » ، وعندما تسلسلها تصل لله إنه سبحانه - أمر : اعبدني ولا تشرك بي شيئاً ، وبعد ذلك . . « وبالوالدين إحساناً » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة في العطاء الزائد . . الذي نسميه مقام الإحسان

« وبالوالدين إحساناً » . . الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛ لأنه إله واحد ولا تشرك به شيئاً ، لم ينكر أو يتعرض لإيمانها أو كفرها ؛ لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

يقول فيها :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

صحيح لا تطعها ولكن احترمها ؛ لأنها التسبب المباشر في الوجود وإن كان هذا السبب مخالفاً لمن أنشأه وأوجده وهو الله - جلّت قدرته - ، « وصاحبها في الدنيا معروف » والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون قلبك متعلقاً بها إن كانا مشركين ، لكن صاحبها في الدنيا معروف ؛ ولذلك قال : « وصاحبها في الدنيا ، أى انظر مصلحتها في أمور الدنيا معروفاً منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبالوالدين إحسانا » .. ويكررها في آيات متعددة .. فقد سبق في سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي نحن بصددنا .. « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

وبعد ذلك يأتي أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ

ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ويأتي أيضاً في سورة العنكبوت فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

لكن إن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما ، فإن كان الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفاً . . والمعروف كما أوضحنا يكون لمن يحب ومن لا يحب ، ولكن الممنوع هو : الودادة القلبية ؛ ولذلك قال :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددتها وبين آية سورة المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالاً .

وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الاحقاف)

وفي قوله سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(الآية ٨ سورة العنكبوت)

ففيه « إحسان » ، وفيه « حسن » ، « الإحسان » : هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك . فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، « الإحسان » من « أحسن » ، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصل الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم يصوم يومى الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويذكر حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة ، ويحج ثم يزيد الحج مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت بما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به ؛ ولذلك فيبعض الصالحين في أحد سبحاته قال : « اللهم إلى أخشى ألا تتبنى حل الطاعة لأنى أصبحت أشتبهها . . . أى صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يارب إتنى أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فإذا فعل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان واطمأنث نفسه ورضيت وأصبح هوام تبعاً لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ إِخْذِينَ مَا آتَاهُمْ مِنْهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۖ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

لماذا هم محسنون يارب ؟ ..

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل كلفني الله . ألا أجمع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يصل العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ؛ لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يرد مثل هذا العبد بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۖ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ ﴿١٧﴾ ﴾

وَبِالْأَتْعَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾

(جزء من الآية ١٦ ، والآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

وربنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض . ونعرف قصة الأعرابي الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم : هل على غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تطوع ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل على غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ، قال : فادبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلح إن صدق)^(١) .

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفلحين . إذن فالذي يزيد على هذا يدخله الله في نطاق المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَا يَهْتَجُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَتْعَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولنلاحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين في أموال المحسنين حقاً معلوماً . لماذا ؟ ، لأن الحق سبحانه - ترك للمحسن الحرية في أن يزيد على نسبة الزكاة التي يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٠﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الماعز)

إذن فالذي يزيد على ذلك يتقل من مقام الإيمان ليدخل في مقام الإحسان . كأنه يقول لك في الآية التي نحن بصددنا : إياك أن تعمل مع والديك القدر المفروض فقط ، بل ادخل في برهما والإنعام عليهما والتلطف بهما والرحمة لهما وذلة الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل في مقام الإحسان ، ثم يأتي في آية أخرى ليرشدنا بعد أن لدخلنا في مقام الإحسان ، إنه يصف ذلك الإحسان بشيء آخر وهو « الحسن » :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة النكاح)

وما هو المقابل « للحسن » ؟ إنه « القبح » ، إذن فالحق أدخلنا في مقام الجلال مرة ، وفي مقام الإحسان مرة أخرى ، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم ، أولاً : نجد أن المفروض في الشائع الغالب أن الوالدين يريان أبناءهما ، ومن النادر أن يصبح الولد يتيماً ويربيه غير والديه ، فقال : الحظ سبب التربية بعد الوجود ، فسبب الوجود : يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل في مقام الإحسان ، ولكنه جاء في آية وعلل ذلك فقال :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية في الدعاء لهما وفي البر التوصية بهما ، لكن لو أن إنساناً أخذ فيك منزلة التربية ولم يأخذ فيك سببية الإيجاد ، أله حق عليك أن يكون كوالديك ؟

إن الحق يقول : « كما ربيان » ، فإذا كان والدي لهما هذا الحق ، فكذلك من قام بتربيتي من غير الوالدين له هذا الحق أيضاً ! مادام جاء الحق بالوالدين في علة الإحسان : « وقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا » . . فمرة نلاحظ أنه لا يجيء بمسألة التربية كي نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود ، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين ، وشيء آخر : وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحساناً ، جاء في الحثيات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالأب :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلَتُهُ ۖ فَلَئِنَّ أَكْثَرَكَ لَشَقِيرٌ ﴾

﴿ فَلَنُؤَنِّسَنَّهُمْ أَثَرًا ۖ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحثيات للأم وترك الأب بدون حيثية ، وهذا كلام رب ؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جنيناً . فهي قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنيناً . وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر . بينما والده قد يكون بعيداً لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلاماً ليربيه لكفاح الحياة ، أما في فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحققه لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذي - إذن - يحتاج إلى الحيشة ؟ إنها الأم ، أما حيشة إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَضَعْنَا الْإِنْسَانَ يَوْزُدِيهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرَمًا وَوَضَعَتْهُ كَرَمًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ۖ

ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ

(من الآية ١٥ سورة الاحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذي يأتي بكل حاجة ، ومادام أبوه هو الذي في الصورة ، فتكون الحيشة عنه موجودة ، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة ، فكان لا بد من أن يذكرنا الله بالحيشة المتروكة عند الإنسان مكثفياً بالحيشة للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تجمد النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوصى قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء في الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك » (١) .

ولو حسبتهما تجمدهما واضحة ، وأيضاً فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسمى . والأمومة حنان وستر ، فهي تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسمى للرزق فأمر صعب على النفس ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وبالوالدين إحسانا » .. أو « بوالديه حسناً » إنها .. مقرونة في ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردهما بالإحسان في آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ونلاحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما في قوله :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنها وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يقول : ارحمهما ؛ لأن الحق أراد أن يمسح الولد والديه في الدنيا وإن كنا على الكفر .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان في الكون كله ، يتدبىء بالأقرب فالقريب فالجار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبلى القربى » . إذن ففيه دوائر . ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه . فلن نجد واحداً في شيخوخته مهيناً أبداً ، لذلك يوسع سبحانه دوائر المهمة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبلى القربى » أى صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نسبية بالإنسان يكون قريباً . هذه هي الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه وقادراً أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستدخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، وملامت الدوائر ستدخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجاً .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتامى ، واليتيم - كما نعلم - هو : من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيماً ، فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتيم ، والذي تموت أمه لا نسميه « يتيماً » ، لكن اليتيم في الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهى بسرعة ؛ لأن والدة الحيوان هي التي ترعاه في طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فقد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُرَبَّى لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل أنك عندما تأق لتررع - مثلاً - فيجلاً . . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تمكث كذا سنة ،

حتى تثمر . . إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشئ ، فإن كانت مهمته كبيرة ، تكن مدة طفولته أطول .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان . فليأكل أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط . خذ في الدائرة أيضاً اليتيم ، ، لأن اليتيم فقد آباء ، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم آباء ، ولو لم يوص الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفي قلبه جذوة من الحقد على المجتمع ، وقد يتمرد على الله ، ويتساءل : لماذا لا يكون لي أب وكل واحد من أقراني له أب يأتيه بحاجته ، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد في الجوار الإمامي آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أمات آباء .

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافاً ، عليهم بالإحسان إلى اليتيم . فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكْرَم في بيته أبوة إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً ، بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير ، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفسه راضية ، ولا يورق نفسه ، وهذه مسألة تشغل الناس فنقول لكل إنسان قادر : إذا كنت في بيته إيمانية . واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَبِئْسَ الَّذِينَ لَوِ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا

قَوْلًا سَبِيحًا ﴿٩﴾

(مسورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرحم
 أيتامك ، فإن جاء الموت أو لم يات فلا تشغل نفسك به ، لكن إذا رأى الإنسان يتضا
 مضيقاً ، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتى بالدنيا كلها لولده ، ونقول لمثل
 هذا الأب : اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله ، لأن الذي خلق
 آمن من المخلوق ، ولذلك قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص
 كانا يملسان - في أخريات حياتهما - يتكلمان معاً ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية :
 يا أمير المؤمنين : ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال معاوية : أما الطعام فقد سئمت

أعطيه ، وأما اللباس فقد ملئت ألينه ، وحظى الآن في شربة ماء بارد في يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إيمانية في الكون ، فبعدما صار معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظى في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف ، وهذه توجد عند ناس كثيرين . كان الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معاوية لعمره : وأنت يا عمرو . ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص : بقى لى أرض خوار - يعنى فيها حيوانات تخور مثل البقر - فيها عين خوار . . أى تعطى ماء وفيراً لتروى الأرض ، وتكون لى فى حياى ولولدى بعد عمائى ، وكان هناك خادماً يخدمها اسمه « وردان » . أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جواب العبد كى تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظى يا أمير المؤمنين : « صنعة معروف أضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه لى فى حياى » أى لا يرون هذا الجميل لى . حتى تبقى لعقبى فى عقبهم . إذن فحظه صنعة معروف يضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه فى حياى حتى تكون لعقبه أى لمن سترك من أولاده .

كانه يفهمنا أنه لا شىء يضيع ، فكما نمد بلك بمد غيرك بده لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بإصبعيه متجاورين ، أى منزلة هذه ، فبالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منا عن يتيم يكفله لكى يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابى .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالى أراك محزوناً؟ فقال: يا نبى الله شىء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال: نحن نغزو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١)

(سورة النساء)

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فبشره (١).

فالحق يقول لهؤلاء : لا تحزنوا ، فهاجتم بحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتفرحون في الدنيا لأنكم معه فلا تحشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه
في الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابحث عن يتيم تكفله
كى تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية في الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة
والوسطى وفرج بينهما » (٢).

فقل لى: إذا عاملنا اليتيم فى ضوء هذه التعاليم فلماذا يحدث ؟ سيتشر التكافل فى
المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » .. ونعرف أن المساكين .. كما قال
الفقهاء عنهم وعن الفقراء : إن كلهم فى حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك
حاجة ، أو الفقير هو الذى لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيراده
مثلاً عشرة بينما حاجته تحتاج إلى عشرين ؟ المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير »
مأخوذة من فقار الظهر أى مصاب بما يقسم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

وه مسكين : أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أى ليس له استعلاء فى شيء ..
مغلوب ومقهور .. فاللفظ نفسه جاء معبراً ، وه الجار ، كلمة « جار » تعنى :
عدل ، كقولنا : جار عن الطريق أى عدل عنه ، فكيف أسمى من فى جانبي
« جاراً » ؟ لأن من فى جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل عن دنيا واسعة وجاء جانبك ، فسموا الجار لمن جاور ، أى عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وباليتم وبالمسكين ، للجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقاً . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فالأول الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم » (١) .

ويقول صلى الله عليه وسلم في حق الجار :

« مازال جبريل يوصى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » (٢) .

أى سيجعل له من الميراث ، وماهى حدود الجار ؟ . حدوده : الأقرب بابا إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق : « والجار ذى القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال : « والجار الجنب » . لأن فيه جواراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله : « الجنب » أى البعيد ، « والصاحب بالجنب » « الصاحب » هو المرافق . « بالجنب » أى بجانبه . قالوا : هو الزوجة أو رفيق السفر ، لأن الرفقاء في السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ؛ فهو الملازم لك ، والخدام أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وما هو ذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول لأبي ثرٍ رضى الله عنه :

(١) رواه البزار وأبو الشيخ في الثواب ، وأبو نعيم في الحلية عن جابر ، وهو حديث ضعيف .

(٢) رواه أحمد وأبو داود ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر .

« يا أباذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » (١)

والمهم أن تتواصل مع جارك ، لو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ود ، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو الجار الجنب ، وهى الصاحب بالجنب وابن السبيل ، وابن السبيل ، فقد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول : فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول : ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تجد مكاناً ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أباً ينسب إليه ، لا يجد أمّاً ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئاً .

« وما ملكت إيمانكم » . وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد . هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟ . لأن الحرب المشروعة عرضة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا أخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبنائهم إن جاءوا فى يدي حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهت إليها العالم الحديث وهى تبادل الأسرى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : « عبدى » بل يقال : فتى . ولا يقال : « أمتى » بل يقال : فتاتى ، حتى التسمية أراد الشرع أن يهلبها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله منابع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشيء هو أن تسد منابعه . وبدل أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن فنكون قد حددنا المنابع فى نبع واحد ، وحددنا المصارف . . فالذنب بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

أو أحدثت ظهراً مثلاً تُعنى رقة ، وهذه رغبة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفية الرق وظل الفقى أو الفتاة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستبقيته فأحسن معاملته ، أطعمه بما تطعم وألبسه بما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفته فيذك معك ، وهات لي واحداً يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته نهد يد السيد بيده .. أليست هذه هي المعاملة الطيبة ! قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

ويعد ذلك يحىء الحق سبحانه وتعالى في ختام الآية بما يذك كبرياء ذى الإحسان ، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذى سبذله يعطيك في نفسك غرور الاستعلاء ؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذباً . وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتى وتزول . فالذى يريد أن يستعل ويستكبر فعليه أن يستعل ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعل ويتكبر على غيره فليتكبر - كما قلنا - بحاجة ذاتية فيه ، أى بشيء لا يسلب منه ، والمخلوق كلهم في أغيار ، والوجود الإنسانى تطراً عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اعمل كذا وأحسن لذى القربى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعل بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذى يتكبر هو الذى لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستحى ويتضائل ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعندما يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس في بآله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته في بآله لاستحى ، فإذا كان في بآلك من يعطيك لاستحييت .

إذن فمعنى التكبر أن ربنا غائب عن بآله ؛ لذلك يقول الحق في ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » وما « الاختيال » ؟ وما « الفخر » ؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمى الحصان « خيلاً » ؛ لأنها تتخايل في حركتها ، وعندما يركبها أحد تتبختر به ؛ ولذلك نسمى الخيلاء من هذه . إذن « الاختيال » : حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشى بعنجهية ، كما نهاه عن أن يسير ماثلاً بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٥ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٦ ﴾
(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدد الإنسان بالكلام فيحكي عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، ولماذا جاء الحق بهذا هنا ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته ، إنه يحسن بما وجهه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخطهم عبداً ؛ لأنك تحسن عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد ألزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك . يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

ويعلمنا قال الحق : « وبإلوالدين إحساناً » قال : « وبإلى القرى واليهامى » .

ونحدث عن البذل والأريحية والجود والسماح وبسط اليد ، أتى سبحانه بالحديث عن
المقابل وهو :

﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٣٧)

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها
لغيره يجد في ذلك مشقة ولا يقبل عليها ، لكن الكرم عنده بسط يد ، وأريحية .
ويرتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز
الحد بضم الشخص بالشئ الذي لا يضر بذله ولا ينفع منعه ، لأنه لا يريد أن
يعطى . وهذا البخل والشح يكون في نفس البخيل ، لأنه أولاً قد بخل على نفسه ،
فلذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يلزمه ، لأنه بخيل جداً ، ويظهر
صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط بل على نفسه أيضاً ، فيها لا يضر بذله
ولا ينفعه منعه . ومادام يقتر على نفسه فسيكون تقيره على غيره أمراً متوقفاً :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقي ولا خالد
فلو استطاع لتقيره لنفس من منخر واحد

إنه بخيلٌ للدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ،
حتى لا يتنفس بفتحتي أنفه .

والشاعر الآخر يأتي بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية

والإنسانية فيقول :

لو أن بيتك يا ابن عم محمد إير يضيق بها فضاء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قَدْ قيمته لم تفعل

فالشاعر يصور أن سيدنا يوسف لو جاء إلى هذا البخيل وقال له : أعطني إبرة لكي
أخيط قد القميص الذي مزقته زليخاء ، وهذا البخيل عنده بيت يمتلئ فناءه بالإبر ، لكن
البخيل ورفض .

إذن فالبخيل : هو من يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شيء لا يضر أن
يبدله ولا ينفعه أن يمنعه ، ويقول الحق عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَّهُمْ آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ
سَيُبْطَلُونَ مَا يُبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٨٠)

(سورة آل عمران)

فالحق يجعل للبخيل مما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل قليلاً ،
لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة . لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء
ازداد الطوق ثقلاً .

ولقد قال الحق أيضاً عن الذين يكتزون الذهب والفضة :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
(٢٤) يَوْمَ يُخْمَلُنَّ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا
مَا كُتِّرْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٢٥)

(جزء من الآية ٢٤ والآية ٢٥ سورة التوبة)

فإن كان اكتنازهم لكميات كبيرة فما سيحصى على النار منها يكون كثيراً ، ويكونون

به . إذن فالإنسان لا بد أن يخفف عن نفسه الكى ، والذين ييخلون لا يكتفون بهذه الحسيسة الخلقية في نفوسهم بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً ؛ يقول لك البخليل : لا تنفق ؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً ، ويريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ؛ كي لا يكون أحد أحسن منه .

إنه يعرف أن الكرم أحسن ، بدليل أنه يريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ، والبخل : ضن بما أوتيته على من لم يؤت . وهل البخل يكون في المال فقط ؟ . لا بل يكون في كل موهبة أوتيته وتنقص عند غيرك ويفطر إليها ، إن ضنت بها فانت داخل في البخل .

إن الذى ييخل بقلوته على معونة العاجز عن القدرة ، والذى ييخل بما عنده من علم على من لا يعلم ، هذا بخل ، والذى ييخل على السفه حتى بالحلم هذا بخل أيضاً ، فإن كانت عندك طاقة حلم فابذلها . إذن فالبخل معناه : أنك تمنع شيئاً وهبه الله لك عن محتاجه ، معلم - مثلاً - عنده عشرة تلاميذ يتعلمون الصنعة ، ويحاول أن يستر عنهم أسرار الصنعة ؛ يكون قد بخل .

« الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل » والآية معناها يتسع لكل أمر مادي أو قيمي . ونحن نأخذها أيضاً في المعاني العالية ، فالذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم مصداق لما معهم كفروا برسالته صلى الله عليه وسلم وكنتموا معرفتهم به عن الناس ، وكنتموا معرفتهم بما جاء به من علم وهو الصادق المصدوق . وهذا بخل في القمة ، وبعد ذلك استمروا يأمرؤن الناس بالبخل .

وأنتم تعرفون أن الأنصار كانت عندهم الأريحية الأنصارية ، وساعة ذهب إليهم المهاجرون ، قاسموهم المال ، حتى النعمة التي غرس الله في قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهاً لها ، وهي نعمة المرأة ؛ لأن الرجل حتى وإن كره امرأته فهو يغار أن يأخذها أحد ، ولكن الأنصار اقتسموا الزوجات ، فكم من

رجل كان متزوجاً من أكثر من واحدة ، طلق زوجته ليزوجها لمهاجر ، فالحق سبحانه وتعالى يصعد أريحية الأنصار حتى أن الأنصارى يأتي بالمهاجر ويقول له : انظر إلى إحدى زوجتي أو إحدى زوجاتي فاختر ما يروقك فأطلقها وتزوجها .

آية أريحية سامية هذه ؟ فإذا كنت ذا نعمة وأنت مؤمن فأنت تحب أن تعدى أثر نعمتك إلى غيرك ، فإذا كان عندك سيارة فاخرة قد تحب أن تصدق بها ، لكن المرأة ، لا . لكن هذه الإريحية جاءت من الأنصار وقالوا : هؤلاء مهاجرون وتاركون أهلهم . وكان هذا ارتقاءً إيمانياً في ذات الأنصار .

لقد جاء إليهم المهاجرون وفيهم شباب يمثلون فتوة ، وكانت قريش قد منعت أهلهم عنهم ، ليس معهم زوجات . فيقول الأنصارى : لماذا لا أطلق إحدى زوجاتي ، ولتزوجها أخى المهاجر لأنفس عن عواطفه . وأقل ما فيها أن أمنع نظره أن يتحول حراماً . لكن اليهود والمشركين والمنافقين يقولون لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . ويقول القرآن الكريم في هذا الموقف :

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ نَزَّاهٌ
عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

(سورة المنافقون)

لقد أخطأوا الظن بمن آمنوا برسول الله ، ظنوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم . ونسوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمن ترك أمواله للهجرة في سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا ؛ لأنه ترك كل شيء في سبيل الله . وما هوذا سيدنا مصعب بن عمير المدلل في قريش ، وكانت أمه تغدق عليه النعمة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة ، فيلبس جلد شاة ، فينظر له النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لأصحابه : انظروا كيف صنع الإيمان بصاحبكم ، فعندما يقول المنافقون كمبداه بن أبي الأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، يظنون أن المؤمنين يمكن أن يبيعوا إيمانهم بلقمة وكانهم نسوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو من يحمل على مبدأ باطل ، لكن من يعتق ويعتقد مبدأ حق يجد حلاوته في النفس ، وأجره مدخر عند ربه . إنه

لا يتحول عنه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

« فجئت المسجد ، فطلع علينا مصعب بن عمير في بركة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأزفة ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التي هو عليها فلزفت عيناه عليه ، ثم قال : أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خير نكفي المؤنة وننتفرغ للعبادة ، فقال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »^(١) .

وقلنا : يجب أن تذكروا جيداً أن من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أن المؤمن يضحى بكل شيء في سبيل رفعة الإيمان . لكن أصحاب المبادئ الباطلة لا يدخلون غيرهم فيها إلا إن دفعوا الثمن مقدماً ، أي أنهم يشترطونهم . فإذا رايت مبدأ من المبادئ يشتري البشر فاعرف أنه مبدأ باطل . . ولو كان مبدأ حق لدفع الإنسان من أجل أن يدخل فيه نفيس ماله ، بل ويضحى في سبيله بنفسه أيضاً .

ومن عجائب مبادئ الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذ العهد لنفسه في بيعة العقبة ، قال له الأنصار : فإن نحن وقينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذت مالك فماذا يبقى لنا ؟ . .

انظروا إلى سمو الإيمان ، ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشرهم بأنهم سيملكون الأرض ؟ هل بشرهم بأن هؤلاء المستضعفين هم الذين سيمكنون فيها ؟ لا ، بل قال لهم : لكم الجنة . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا ، لكان في ذلك نظر ، صحيح أن الدنيا دانت وخضعت لهم ، لكن منهم من مات قبل أن تدنو له الدنيا وتذل ، فأين صدق النبوة ؟

إذن فقد قال لهم عن الشيء المضمون ، الشيء الذي يجد المؤمن فيه نفسه من فور أن يموت . قال لهم : لكم الجنة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحوله

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة باب حال مصعب بن عمير بعد الإسلام وأخرجه الحاكم ، وأورده ابن سعد في

طبقاته وابن الأثير في «أسد الغابة» .

عصاة من أصحابه - : « تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم ولرجلكم ولا تعصون في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه » (١) .

لم يفرهم بأنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقل لهم : أنتم ستجلسون على البُسط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم في أول البيعة : لكم الجنة ، فإياكم أن يطمع أحد منكم في شيء إلا في الجنة ، ولذلك فالأنصار محببون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت غزوة حنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شيء ، وجد الأنصار في نفوسهم . فلفتهم رسول الله لفته إيمانية وقال لهم :

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ » فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً آخر لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » (٢) .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله نفساً وحطاً .
أى سمواً إيماناً هذا ؟ لكن المنافقون قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على من عند رسول الله حتى ينفضوا .

لكن المؤمنين لم ينفضوا . إنهم قد تركوا النعيم والأموال في مكة وجاءوا إلى الهجرة ، فهم لم يأتوا ليأخذوا نعيماً مظنوناً محدوداً قليلاً ، وحسبهم ما وعدوا به من نعيم متيقن عريض بلق . لقد عرفوا بالإيمان أن نعيم الدنيا إما أن تفوته بالموت وإما أن يفوتك بالتقلب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حدٌ ينتهى عنده ، ولا يفوته ولا تفوته .

(١) روى البخارى .

(٢) روى البخارى في كتاب المغازى ورواه مسلم في كتاب الزكاة باب إعطاء الزكاة للزكاة للزكاة .

ثم سبحانه يقول : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » ، وساعة ترى شيئاً يكتم شيئاً ، لابد أن تفهم منها أن هذا الكتم معناه : منع شيء يريد أن يخرج بطبيعته ، وكما يقولون : اكتم الدم فلو لم نكتمه يستطرق . كان المال أو العلم يريد أن يخرج للناس ولكن أصحابه يكتمونه . وكان الفطرة الطبيعية في كل رزق سواء أكان رزقاً مادياً أم رزقاً معنوياً أنه يستطرق ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة الإنسان ، فعندما يأتي إنسان ويمر شيئاً بما هو مخلوق لخدمة الإنسان ويحجبه فهو بذلك يمنع الشيء المكتم من رسالته ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة بني آدم . فعندما تعوقه عن هذه الخدمة فالشيء يحزن ، وليتسع ظنكم إلى أن الجهادات تحزن أيضاً .

﴿ قَابَكْتَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الدخان)

فالسما والارض لهما بكاء ، ليس بكاء دموع إنما بكاء يعلم الله كنهه وحقيقته ، إذن فقله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . كأنه يقول : ما آتاه لك الله من فضله ليس ملكك ، وليس ذاتية فيك ، فأنت لم تأت به من عندك . وانظر إلى الكون حولك لجدده كله أغياراً ، ألم تر في حياتك قلداً أصبح عاجزاً ؟ ألم تر غنياً أصبح فقيراً ؟ فالدنيا دول ، وما من واحد إلا ويمر أمام عينيه وفي تاريخه وفي سماع من يتق بكلامه أنه « كان » هناك غنى ثم صار فقيراً ، فليأذا لا تعتبر بالأغيار التي قد تمر بك ، وبعد أن كان يطلب منك أن تعطى ، صرت في حال يطلب الحق سبحانه من غيرك أن تعطيك ، ادخر لنفسك الآن - بالخير تبذله - حتى إذا جاءتك الأغيار تجد لك ما يتظرك .

« الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » انظر ماذا فعل فيه البخل ، إنه جعل صاحبه كافراً ، لأن البخل ستر نعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره ، فجاء له بالشيء الذي يخيف : « واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » « اعتدنا » أي أعدنا وهيأنا . فالمسألة موجودة وقد أهدت ، والنبي صلى الله عليه وسلم حينما يتكلم عن الجنة يقول :

(غُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ لَوْ مَدَدْتُ يَدِي لَتَنَاوَلْتُ مِنْ قَطُوفِهَا)^(١)

(١) رواه النسائي وأحمد ، ولزمه الطبري الحنفي في كتبه المال .

هذه ثقة اليقين في أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذي أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى ، قدرة القدر هي التي تعد ، وهو يعدها على قدر سعة قدرته ، عذاب مهين ؛ لأنه قد يتناول أحد ويقول : أنا أتحمّل العذاب ، كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لربب الدهر لا أتضعضع

فسبحانه يوضح : لن يلقى البخيل العذاب فقط ، بل سيلقى عذاباً مهيناً . ثم يأتي الحق سبحانه بالمقابل ، يأتي بغير البخيل ، فيقول :

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ
الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٢٨﴾

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذي ينفق ، لكن الغاية غير واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رثاء الناس ، إنه يريد بالإتفاق مراعاة الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطائك . فانت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يثمن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غالياً .

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة في سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاءني أكثر من ثمنكم ، وفي النهاية قال لهم : أنا بعتها لله - إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذي يعطى لثناء الناس نقول له : أنت خائب ؛ لأنك ما ثمنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فلماذا ترائيهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ من سورة التوبة)

ومادام سبحانه هو الذى اشترى فلا بد أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها . فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله :

﴿ كَتَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهو حجارة بيض براق ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكن بها بعض من الشاى يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب . والذى ينفق ماله رياء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغل فلماذا تعطيتها للأقل ثمناً ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق : مادمت تريد رياء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشتري بأغل ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم - ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) (١)

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيئ مجال الإعطاء فقال :

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن ابن عمر .

﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٧)

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رياء ، أما من يخرج الصدقة وفي قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ؛ لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

إن الذين ينفقون أموالهم رياء الناس هم من الذين « لا يؤمنون بالله » لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يجب أن يضع المسلم عطاءه في يده « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقي ، فانت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها ثمرة . . . أى كثيرة الثمار ، فللذى لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنسى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحد ، أما الذى أنفقه في سبيل الله فسيجده في الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله .

فالبخيل هو عدو ماله ؛ لأنه لم يستطع أن يشره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : في الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن » ورجل قتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى ؟

قال : بلى يارب . قال : فإذا عملت فيها علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان قارىء فقد قيل ذلك ، ويؤى بصاحب المال (١) لكن هل قال لك الدين : لا تفعل ؟ لا ، افعل لينتفع الناس بالرغم منك .

(١) رواه الترمذى في الزهد ، وأخرجه ابن عزيمة وسلم .

والبخيل عندما يكثر ماله يكون قد حرم على نفسه هذا المال ثم يأتي ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولذلك يقال في الريف : مال الكثرى للنزهي ، ولا أحد بقادر أن يخدع خالقه أبداً !! فسبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكني سأبسر السبيل لطائع لي ، إياك أن تظن أنك خدعتني عندما بخلت ، فبخلك يقع عليك . إذن فأنت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أنفقت لأعطاك الله خيراً كثيراً . وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، لكنك تركته لورثتك وسيأخذونه ليكون رزقهم متسعاً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فأنت قد بسرت سبيلاً لمن يبدل .

كيف ؟ لنفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، والناس لها أمل فيه . وبعد ذلك لم ينهض دخله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدانان » فهو يبيع فداناً ليفرج به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدان سيشتريه من يكثر ، فيكون المكتنز قد بشر سبيلاً للكريم ، فإياك أن تظن أنك قادر على خداع من خلقت وخلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذي من الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إننا نقول له : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من الله أبداً . أنت اختلست شهوة ستلهيك أخيراً ، وتجعلك تفعل حسنات مثلها عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فأنت لن تضحك على خالقك لأنه سيجعلها ورامك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخيل نقول له : ستبسر سبيلاً للكريم بذلك ، والحق سبحانه وتعالى بين في آخر الآية السبب الذي حمله على ذلك ، إن الأسباب متعددة . لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يمنعك من سبيل الهدى هو شيطان ، ابتداءً من شهوات نفسك وغفلة عقلك عن المنهج ، إنها قرين سوء يزين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إن وراء كل هذه الأمور شيطاناً يوسوس إليك ، وكل هؤلاء نسميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يعملك عن المنهج ، وهناك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس . فالنفس حين تحدث الإنسان ألا يلتزم بالمنهج ، لأن التزامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة - هي شيطان . إن النفس التي ترى الشهوة العاجلة وتضيق منها شهوة آجلة لا حدود لها - هي شيطان . فالشيطان إذن هو الذي جعلهم

يخجلون ويأمرون الناس بالبخل .. وهذا الشيطان وساعة يكون قريباً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقرن بكسر القاف - هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هي مائة عام ، لأنها تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قرين أى ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناه ، أى بشى هذا القرن لأنه القرن الذى لا ينفعنى ولا يصدنى عن مجال ضار .

ولذلك فالناس قد يحب بعضهم بعضاً فى الدنيا لأنهم يجتمعون على معصية . أما فى الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧)

(سورة الزخرف)

لأن المتقين يعين بعضهم بعضاً على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعيننى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكرنى إن غفلت ، فيزداد الحب بينهما . لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يوم القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ يتبرأ منا ؛ ولذلك فعندما نحين المجادلة نجد الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو : القوة العالية التى تجبر من دونها ، فالإنسان تجبر مادته وبنيتة بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القلب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فقد تكون ضعيفاً أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطاً وتقول له : اسجد لى . اخضع ، فيسجد لك ويخضع . وأنت بذلك تقهر القلب ، لكنك لم تقهر القلب ، هذا هو السلطان المادى الذى يقهر القلب ، لكن إذا جاء لك إنسان بالحجج وأقنعتك ، فهذا قهر إقناع ، وقدرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضاً .

إذن فالسلطان يأتي من ناحيتين : سلطان يقهر القلب ، وسلطان يقهر فقه القلب ، فسلطان القلب يجعلك تخضع قهراً عنك ، وسلطان الحجّة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتبعوه : يا من جعلتموني قريباً لكم لا تفارقوني ؛ أنتم أغبياء ؛ فليس لي عليكم سلطان ، وما كان لي من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن تركبوا المعاصي . وما كان عندي منطق ولا حجة لكي أقنعكم أن تفعلوا المعاصي ، لكنكم كنتم غافلين ، أنا أشرت لكم فقط فليست أملك قوة أقهر مادتكم بها ، ولا برهان عندي لآسطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْؤُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فالخية منكم أنتم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِئِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذا يعني « مصرخكم » ؟ إنها استغاثة واحد في أزمة لا يقدر عليها وضاعت به الأسباب ، عندئذ يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أي يتادبهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذي يستجيب له ويأتي لإنقاذه يقال له : أزال صراخه ، إذن فأصراخه يعني سارع وأجاب صراخه ، والشيطان يقول : إن استجبتهم في فلان أنجدكم وأنتم لن تنجدوني ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريباً ، « فساء قريباً » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بش » ، كلتاهما تستعمل للذم وتقبيح الشيء أي ، فبش أن يكون الشيطان قريباً لك ؛ لأن الشيطان أخذ على نفسه المهد أمام الله ألا يفوى من يطعمه سبحانه ويفوى من سواه من الناس أجمعين .

وعندما نتأمل الآية ، نجد أن الحق يقول : « والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » . فالآية إذن تتناول لونا من الإنفاق يحبط الله ثوابه . فنفقة المرائي تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائي منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذي يتطلب من الإنسان أن يكون في كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر في النفس البشرية وفي شهواتها التي تزين الإقبال على المعصية للشهوة العاجلة ، وتزين الراحة في ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتمثل في المعوقات ، والشيطان كما نعلم : اسم للمعاصي من الجنس الثاني من المكلفين وهم الجن ويتمثل في إبليس وفي جنوده ، ويطلق على كل متمرد من الإنس أيضاً يقول تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهو من نفسك أم من الشيطان ؟ . فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أمي معصية تدفعك نفسك أن تأتينا وحدها ، أم معصية إن عز عليك أن تفعلها فأنت تتنقل إلى معصية سواها ؟ هل هي معصية ملازمة أو معصية تنتقل منها إلى غيرها ؟ .

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه في أن يشتهي ما حرم عليه . أو أن يسرق مال غيره ، نقول له : أوقفت في المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصي لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى . فهذا لون من المعاصي ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ؛ لأن الشيطان يريد المعاصي عاصياً على أي لون من المعصية ، فإن عز عليك أن يلوى زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكن النفس حين تشتهي فإنها تشتهي شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلتح عليك هذه المعصية ، وكلما عز عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فذلك شهوة نفسك . وإن عزّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان - كما نعلم - هي عداوة مسبقة ؛ فقد امتنع الشيطان عن السجود لأدم بحجة أنه خير من آدم . وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نقل هذا التحذير لذريته وأعلمهم أن الشيطان عدو . ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تفسح مجالاً للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان - كما نعرف - لا يأتي للمعاصي الذي تغويه نفسه ؛ لأن المعاصي تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتي الشيطان للطائع ليفسد عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه :

﴿ لَا أَقْعِدَنَّ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فمقعد الشيطان ليس في الخيلة أو في مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكي يفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لا أقعدن لهم سراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة في أي بلد إسلامي لا تحدث بينهم الشحناء ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سَمّ المواشي ، ولا القتل ، وتأت هذه المعاصي في جمهرة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إخوانهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان في عمله معهم ، إذن فيأدام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتي لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذي كَفَرَ كُفْرَ القمة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين يتفقون أموالهم رياء الناس ، أي : أنفقوا وأنقصوا ما لهم فليأذا المرادة إذن ؟ لأن الشيطان قريبهم ، وعندما يتفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذي عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريباً فساء قريبنا » مثل هذا القرن أمدح أم يذم ؟ إنه يذم بطبيعة الحال ؛ ولذلك قال الله : « فساء

قربنا ، أى بشئ ذلك القرين ، فالقرين الذى يلفتك عن فعل الخير هو الذى بعد أن
أنقص مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ ٣٩

وقوله سبحانه : « وماذا عليهم » أى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان
والإنفاق في سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه - جل
شانه - يذمهم ويوبخهم ويصفهم ويصممهم بالجهل والغفلة عما ينفعهم .

فالتلميد الذى يلعب ، فيرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعنى
أى ضرر عليك في هذا ، إذن فمعنى ذلك أنها لا تقال إلا للإنسان في قدرته أن يفعل
الفعل ، فمثل هذا التلميد يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأتى لإنسان فيه صفة لا دخل له
فيها كالقصر في القامة مثلاً ثم نقول لك : ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول
لا ينفع ولا يصح .

إذن فهذا عليك . لا تقال إلا لمن في قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما
من لا يكون في قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ونقول ذلك لأن طائفة الجبرية
قالت : إن الذى كفر لا يقدر أن يؤمن فالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول
ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب
مفتوح . وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال ربنا : « وماذا عليهم » . وهذه الآية
لا ترد فقط على مذهب الجبرية ، بل تهدم مذهب الجبرية كله . فالإنسان ليس مجبراً
على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون : كالريشة في مهب الريح . ومثلها قال
الشاعر :

القاء في اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبطل بالماء

نقول لهم : أنتم نسبتم لله - والعباد بالله - الظلم ، فافقه سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تفتنوا إلى حقيقة كتابة كل شيء أولاً فاختتمت منها الشيء الذي لا بد للناس أن تنفذه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب ليلزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أولاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان : صفة تكشف الأشياء على ما هي عليه بصرف النظر عن أن تفهم أو لا تفهم ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذي يأتي فيقول لأستاذ مادة من المواد : جاءت لي مكافأة للطلاب النابغ في مادة كذا ، فاصنع اختباراً للطلاب حتى نعطي هذه الجائزة لمن يستحقها . فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأنني أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجدد ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه العلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية ، ويضع هو اختباراً أو يأتي بأساتذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ . وبعد ذلك يفوز الطالب الذي حدده الأستاذ مسبقاً بالدرجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التي وضعت له . أكان مع الطالب الذي فاز بالمركز الأول من يرغمه على أن يكتب المادة العلمية التي جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ عند ذلك ؟ لأنه علم بمن عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالحق سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البديلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدى سيختار كذا وكذا . إذن فهذه سبق علم لا قهر قدرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر . وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقله : « وماذا عليهم » تعنى أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » بل يقول : أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله ، ولذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)
لم يقل سبحانه : الذين يتيقنون . بل إن مجرد الظن بقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح من باب أولى . ولذلك فهذه المسألة أخرجت « المعرى » عما اهتموه به من أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تَحْطَمْنَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانْنَا زَجَاجٍ وَلَكِنْ لَا يُعَادُ لَنَا سَبْكُ

فقالوا : إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفى قدرة الحق على أن يعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك فى حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية . ونقول كذلك : إن هذه قائلها فى أول حياته . ولكنه قال فى آخر الأمر :

زَعِمَ الْمُنْجَمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا لَا تَحْشَرُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفيا عن إفساد العقول بالشك . وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، نقول له : إما أن يجيء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يجيء بعث ، فإذا لم يجيء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال : إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا .

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ، إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رثاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تسمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً » . وعلم الله متغلغل وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شيء علماً ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

والظلم : الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهد وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شر من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا)^(١) .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصاً بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه - وهو قوة القوى - إذا أراد أن يظلم - وحاشا لله أن يظلم - فإذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

الظالم ، إذن بقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغن ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذلك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله واهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير متفع بأثاره في خلقه . إن الحق سبحانه وتعالى ينهى عن نفسه الظلم في قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤٦)

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فكلمة « ظلام » مثل قولنا : فلان « أكل » وفلان « نَوَام » . وهي تختلف عن قولنا : فلان نائم ، يعنى نام مرة ، ولكن « نَوَام » فهذا يعنى مداومته على النوم كثيراً ، أى أنه إما أن يكون مبالغاً في الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث ، فالمبالغة - كما نعرف - تأتى مرة لأن الحدث واحد لكنه قوى ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هى المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى : « وما ربك بظلام » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضى نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه مناسباً قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظالماً لشمل ظلمه وعمّ الخلق جميعاً فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله - سبحانه - يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه بحسب السيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » : يعنى ثقل ووزن ، والثقل هو : مقدار جاذبية الأرض للشيء . فعندما يكون وزن الشيء قليلاً وتلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشيء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمقياس الميزان هنا « الذرة » . وما « الذرة » ؟

قال العلماء فيها : هى رأس النملة الصغيرة التى لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب في الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموجودين في مكان واحد لا نرى شيئاً في الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية - أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس - فساعة ترى ثقباً يدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جازياً إلا في شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟ . لأنه بلغ من الصغر واللطيف مبلغاً فوق طوق العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ، واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن كل شيء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا في نور مججوز ، لأننا في النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط في نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذى يُقْتَبَر به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا أسطوانات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أى شيء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صنعت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! . كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شيء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً في نيويورك في هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر .. لماذا ؟ .. لأن صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون مجزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أئنفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن ئنفى عليه سبحانه ذرة ، لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن ئنفى على نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة ئحطيم الجواهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب بعصر ، إذن فكلمها ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان ئهبرى كل واحدة منهما على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضيق الاسطوانتين تضيقاً ئفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شئ آخر أقل من الذرة .

وظن السطحيون الذين يترصون بالإسلام ويكتب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه منفذاً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . عل أنها أقل شئ وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ، لأن الذرة ئحطمت . وقلنا هؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أى حكم . بل ظلت الأحكام كما هى . فالأحكام واضحة كل الوضوح ، لأن من

يفعلها بثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبی علیه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان في زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولا بد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز في الآيات الكونية التي لو لم نعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك : لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . . فنحن نستفيع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية في الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شيء . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتهم إلى آية ونسبتم آيات . أنتم لم تتبهموا - كما قلنا - إلى أن من فتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتوا ما فتت . والآية التي نحن بصددنا الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التي تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا في بالكم أن « أصغر » هذه أفضل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتوها فلنا
رصيد في القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتم المفتت ، فلنا رصيد في القرآن بأصغر ،
لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد
من القرآن يسبق عقولكم في الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع
جاز ، لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول : لا يغيب الأصغر
والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر
وواضح ؟

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف في غاية الدقة
بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يرى ، وأيضاً لا يدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن
تحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة
فانت لا تدركه ، لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله
يختلف فلا يوجد صغير يذوق لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتي
« ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ① ﴾

(سورة سبا)

وانظروا إلى دقة الحق في الرد على الإنكار للساعة وهي قضية كونية تسحب على
كل المصور . . فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَنِ الْغَيْبِ لَا يَعْرُبُ

عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ② ﴾

(سورة سبا)

كان يكفي أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اهرقوا أن الساعة آتية ،
وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون : لا تأتي الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب
النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذي لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك - أن تكون مسألة الساعة كذب ، لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكي تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً فمن مصلحتهم الأملية ألا تأتي الساعة ، كي لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم ألا ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهني للمقولة ، فأوضح سبحانه : أنا عالم كل أمر ولن يغيب عني عمل من أعمالكم .

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعني : وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة يمثلها « والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة في كثير من الآيات » والله يضاعف لمن يشاء .

وفي آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِثَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبُّلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول :

﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمئة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كنا نحن - كبشر - عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفي ، وتبدأ السلم الوظيفي من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتي رئيس الدولة ليعينك في درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطي بعملية حسابية فيها زيادة فضل ، ولذلك قال بعد هذه الآية : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أي إنه سبحانه يعطي من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالي فلا ينال فضلاً وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعاني ؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مثلاً إنسانية في الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة . فيوضح لك : هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها في الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبل فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض - وهي مخلوقة لله - أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب .

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . . والذى عنده ويده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإنسان التمثيلية في الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه . فالإنسان من مادة : هي البدن وتحمل فيه الروح . وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير ؟ يصير الجسد رمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هي السبب في الحركة ، وفي أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفي النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هي التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف نتركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل في جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حَدَّثْتُ أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الانعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تتركه الأبصار ، أفتريد أن يُدرك من خَلَقَ ؟ لا يمكن . وهو سبحانه من عظمت أنه لا يُدرك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ونقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقاً بين الإتيان بالناموس - وهو النظام الموضوع - والمطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعني أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى في وصف العبد الصالح : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعني أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد . بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذي جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه في أمور جاءت على خلاف ما تجري به التواميس والعادات . فكلمة « من لدنا » تعني تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة .

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم ، لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝١١ ﴾

وساعة نسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئاً عجبياً ، تقول مثلاً : أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

السلطان ذاتها مسألة فوق التصور . . فكل شيء يتعجب منه يؤق فيه بـ « كيف » ،
ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعنى تعجيباً من مصيبة و كارثة هى الكفر بالله ، فقولوا لنا : كيف جاءت
هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ونقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون
حال هؤلاء العصاة ، فى يوم العرض الأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد »
و « الشهيد » هو : الذى يشهد ليقرر حقيقة ، ونحن نعلم أن الحق أخبرنا :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بلغها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه
وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، فقله : « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ ننظر
قله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذى بلغ عن الله منهجه ،
وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال : أنا أبلغنهم الموقف ولا عذر لهم لأننى أعلمتهم
به ، « وجئنا بك » يا محمد - صلى الله عليه وسلم - « على هؤلاء » فهل المعنى
بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضاً
شهيداً على هؤلاء مثلما أنت شهيد على أمتك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلغوا أمهم ، فكان
الرسول حين سُجِّلَ فى كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أمهم فهو
سيشهد أيضاً : هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لى فى كتاب المعجزة وفى المنهج .
ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة . فالمعنى
هذا يصلح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح يطرد معنى صحيحاً فى
كتاب الله ، وهذه هى عظمة القرآن . إن عظمة القرآن هى فى أنه يعطى إشعاعات
كثيرة مثل فصوص الماس ، فالماس غالٍ ونفيس ، لأنه قاسٍ ويكسر به وكل ذرة فيه لها
شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة فى الماس لها إشعاع ؛
ولذلك يقولون إنه يضوى وتتلاها ، فكل ذراته تعطى إشعاعاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فظيماً حينها يأتي يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إننا بلغناكم ، أو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للمرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمنته أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء :

﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هي الأمة الوحيدة التي أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة ، فلن يأتي أنبياء أبداً بعد رسول الله ، فيقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ على القرآن فقلت يا رسول الله : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ »

قال : نعم إني أحب أن أسمع من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا به على هؤلاء شهيداً) فقال: حسبك ، فإذا عيناه تذرفان الدموع (١) .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذي سيشهد بكى من الآية ، نعم؛ لأنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملء قلبه رحمة بأمنته ، ولذلك قلنا: إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمنته جعل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمته ، بعد أن علم سبحانه مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة :

﴿ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

(سورة الشعراء)

فأمر أمته صلى الله عليه وسلم كان يقلقه جداً على الرغم من أن الحق سبحانه قد أوضح له : أنت عليك البلاغ وليس عليك أن تهدى بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا . إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن من سيشهد عليهم يوم الحشر . فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له : لو شئت جعلت أمر أمتك إليك .

وانظر إلى العظمة المحمدية والفهم عن الله ، والفتنة ، فقال له : لا يارب . أنت أرحم بهم مني .

وكانه صلى الله عليه وسلم يقول للخالق : « أتقبل مسألتهم في يدي وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله : نعم أعطى أمر أمى لكنه صلى الله عليه وسلم قال : يارب أنت أرحم بهم مني . فكيف يكون رد الرب عليه ؟ . قال سبحانه : فلا أخزيك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحمة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن النبی صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : « رب إني أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني . . » وقول عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمى أمى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربيك أعلم فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوئك » (١) .

« فكيف إذا جئنا » أى كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . « إذا جئنا من كل أمة بشهيد » أنه أتى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿يَوْمَ يَذْرِبُوذَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ
لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤٤﴾

وساعة ترى «يومئذ» ونجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذ نجىء من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، في هذا اليوم «يؤذ الذين كفروا وعصوا الرسول» لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهى ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ «يؤذ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض» وما معنى «تسوى بهم الأرض» ؟ كما تقول : سأسوى بفلان الأرض ، أى تدوسه دوسة بحيث يكون فى مستوى الأرض .

«ولا يكتُمون الله حديثاً» . فكيف لا يكتُمون الله حديثاً ؟ وهو قد قال فى آية أخرى :

﴿قَالَ أَخَفِّقُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُوا﴾ ﴿١٤٨﴾

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل : فمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون :

﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٣﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التى عبدوها :

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾

(من الآية ٢ سورة الزمر)

إذن فقله : « ولا يكتُمون الله حديثاً » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه . والواحد منهم في الآخرة : لا يقدر أن يكتُم حديثاً ، لأن ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبالسستهم ويجوارحهم ، لأن النطق ليس باللسان فقط . فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ، لأن هناك ما نسميه « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن : هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه . ولكي نقرب الصورة ، عندما توجد كتية من الجيش وعليها قائد . وبعد ذلك قامت الكتية في مهمة ، والقانون العام في هذه المهمة : أن يجعل لهذا القائد قادية الأوامر وعلى الجنود طاعته ، وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب في فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقولون أن يقولوا : هو الذى قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى . فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفصلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره . وإرادة الطائع إطاعة أمر واجتناب نهى ، وإرادة العاصى على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتجنب النهى عنه . فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشى ، ولسانه نطق للرجل الذى يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح التى تقوم بهذه العملية هى خاضعة لقادية إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة تقول له : يارب هو عمل ي كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قادية الإرادة امتنعت :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وليس لى ولا لأحد إرادة في الآخرة ، ومادام ليس لى إرادة فاليد تتكلم وتعترف : عمل ي كذا وكذا وكنت يارب مقهورة لقادية إرادته التى أعطيتها له فبمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع . ويعترف اللسان بسببه لفلان ، أو مدحه لآخر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح . لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة ، فلا يوجد أحد له إرادة . فكان الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛ لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة ، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث :

﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول :

﴿ يَلَيِّنِي كُنْتُ تُرَبَّابًا ۝١٠ ﴾

(من الآية ١٠ سورة النبا)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا

إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ

لَمْ تَسْمُوا الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا

طَيِّبًا فَاَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراف بالله ، من التحذير من النفقة رثاء الناس وأنه سبحانه لا يظلم أحداً وأنا كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل إلا ظله ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العبادية التي تجعلك تعين ولاءك لله في كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغيب منك شيء .

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أى لا تقربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد ، فقد مرّ هذا الأمر على مراحل ؛ لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل ، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً باتاً لا مَرَحَلِيَّةَ فيه ، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها . لكن المسائل التي تتعلق باللف العادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نتدرج في المسائل الخاضعة للعادة مادام هناك شيء يقود إلى التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل في مسائل العادة والرتابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هي : الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتبهة بالتسليم بشرائطها الخاصة ، هذه هي الصلاة ، اصطلاحياً في الإسلام وإن كانت الصلاة في المعنى اللغوي العام هي : مطلق الدعاء .

و« سكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السكر ما سد به النهر؛ فالماء حين ينساب يضعون سدّاً ، هذا السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله ، والسكر والخمر ؛ وهو ما يمكث من أثر المسكر في النفس ، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع في الأوقات المتقاربة بالنهار . إذن فقد حلهم على أن

يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السكر . وماداموا قد اعتادوا أن يتركوها طوال النهار وحتى العشاء ، فسيصل الواحد منهم العشاء ثم يشرب وينام . إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة مرحليات تتقبلها النفس البشرية . فأول ما جاء ليتكلم عن الخمر قال :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « السكر » مقدم ، على الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه خمرًا ، فقدم ربنا « السكر » لأنهم يفعلون ذلك فيه، ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال : « تتخذون منه سكرًا » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن . بالله عندما نسمع « سكرًا ورزقًا حسنًا » ألا نفهم أن كونه سكرًا يعني غير حسن ، لأن مقابل الحسن : قبيح . وكأنه قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا أي شربًا قبيحًا ورزقًا حسنًا ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأمر بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة ، فالنصيحة ليست حكمًا شرعيًا ، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر في أن تختار فقال : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا نفعل ؟ لا ، لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجع من نفسها الحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمهما أكبر من نفعيهما » فمادام الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدائل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين ثم تعرف أقل البديلين شرًا وأكثر البديلين خيرًا .

فحين يقول الحق : « فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها » إذن فهذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستأن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فظل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصل وقرأ سورة الكافرون ، ولأن عقله قد سدّ قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدي بك أن تكفر في الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت غمور . هذا نهي ، وأمر ، وتكليف . « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ومادام لا تقرب الصلاة ونحن سكارى فسنأخذ وقتاً نمتنع فيه ، إذن ففيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التي طلبوا فيها أن يفتي الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الخمر ، فقالوا للنبي : بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

إذن فقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف في تحريم الخمر ، فحرمها زمناً ، هذا الزمن هو الوقت الذي يلقي الإنسان فيه ربه ، إنه أوضح لك : اعملها بعيداً ، لكن عندما تأتيني فعليك أن تأن بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكان هذه أعطتنا حكماً : أن الذي يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان في المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما في العبادة وفي القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحد ، وعندما تصل إلى هذا الحد يتدخل ربنا فيقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم جاء بحكم آخر . « ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هي الجنابة : إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة . ويقال : إنها اللذة التي يغيب فيها الفكر عن خالقه ، وهذه لذة يسمونها « جماع اللذات » ؛ لأنها تعمل في البدن تلك الرعشة المخصوصة التي تأخذ خلاصات الجسم ؛ ولذلك قيل : إنه نور عينيك ومع سابقك فأكثر منه أو أقلل . يعني أنا أعطيك هذه المقدرة وأنت حر . ونحن نغتسل لنعيد النشاط إلى النفس البشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم في ضوء

شريعة الله وشأننا في ذلك أن نأتمر بأمر ربنا ونغتسل من الجنابة سواء فهمنا الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم .

« ولا جنباً إلا عابري سبيل » إذا كان المراد بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ، بالسكر أو بالجنابة ولم يقل : « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً » ، أى لا تقربوا الصلاة ، والقرب عرضة أن يكون ذهاباً للمسجد ، فكانه يقول : لا تذهب إلا إذا كان المسجد لا طريق للماء إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر » أى كان عندكم عذر يمنع من الماء . « أو جاء أحد منكم من الغائط » . و « الغائط » هو : الأرض الوطیئة ، الهابطة قليلاً ، وكانوا يقضون فيها حاجاتهم ، وأصبح علماً على قضاء الحاجة ، وكل واحد منا يكفى عنها بأشياء كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساءل آخر أين « دورة المياه ؟ » وفي هذا تلميح في الإخبار عن عملية تستقذرها النفس ؛ ولذلك نقول في العبارات الشائعة : أنا ذاهب - أعمل زى الناس - يعنى أنا لست بدعاً أن أقضى حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربنا سبحانه وتعالى يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليقل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا تقل لى مثلاً : أنا أتوضأ لكى أنظف نفسى ولكننا نقول لك : هل تتوضأ لتنظف نفسك وعندما تفقد الماء تأتى بتراب لتضعه على وجهك ؟ فلا تقل لى النظافة أو كذا ، إنه استحابة الصلاة بالشئ الذى فرضه الله ، فقال لى : توضأ فإن لم تجد ماء فتيمم ، أينقلنى من الماء الذى ينظف لى أن أمسح كفى بالتراب ثم أمسح بها وجهى ؟ نعم ؛ لأن المسألة أمر من الله فهمت علته أو لم نفهم ؛ ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « أعطيت خمسا لم يُعطيهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعِلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأبما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبل وأعطيت الشفاعة وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة

وبعث إلى الناس عامة^(١).

« فتييموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خلف وبدل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفى هذه الآية يوضح الحق : ملأمت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنب ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهي ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسر . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ٤٤

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين - وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التي تتعرض لها العين - والشئ المرئي دليله معه ؛ لأن الشئ المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أي كذب أم يصدق ؟ أما المرئي فدليله معه ؛ ولذلك قالوا : ليس مع العين عين ، أي أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل : أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذي تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال : دلت على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرايت . ولذلك فانت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا مارأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : أرايت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرايت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرايت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرايت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتي بهمة الاستفهام « أرايت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبيراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرايت » لكي ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتي الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه أكد أنواع البيان وأكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرايت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ « ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر » ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فأعلم أني أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعني أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعني إلا الصدق ، إذن رؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن لإخبار الحق أوثق وأكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۖ ﴾ (سورة النمل)

(سورة النمل)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ نَرْكَفِ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَخِيهِ الْفِيلِ ۖ ﴾ (سورة الفيل)

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ « ألم تر » تعني كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئي أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار في تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشنرون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمراً مشهدياً بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعني : أن النبوة كان لها ركب . وفي كل عصر من العصور يأتي نبي على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين في الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التي تأتي في المجتمع ، ولكن الله علم أولاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتي في فترة ورسالته ومنهجه يتنظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهي ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهي ، فيحدث الخبر في أدنى الشرق وأعلاه تسمعه في أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر في الغرب تسمعه في الشرق . والداء يوجد مرة في أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد في أي بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات في المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء في جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها، لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتي رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدثت حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتي رسول ليستترك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتي رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خلفية تطلبتهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ أَتَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا اقْرَرْنَا وَقَالَ فَاشْهَدُوا ۖ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ ٨١ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذي نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهاوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيباً من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شئ من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وماداموا قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفاً لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتكم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فليأذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إنا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل . فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۖ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ

عِلْمُ الْكِتَابِ ۚ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ قَلْبًا جَلَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نظن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية في الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا أنت تفعل ذلك لشهوة في نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً في هذا الموقف . فإليك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكي تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أهدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وهلك وذر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبي هو الذي توعدتنا به اليهود ، فهي نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظن عاصٍ أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ووضع : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنني حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ آلِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذي جعلهم يتركون القبلة التي كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هي الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتل ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعل الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام « مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر في ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكيا بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيأ لا نقول كي يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) (١) .

فالحق سبحانه وتعالى يبين : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا في الشر على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشتركون الضلالة ، ليس فقط في نفوسهم بل يريدون أن يضلوا غيرهم ، وهذه هي المرحلة الثانية ، فهناك من يضل في ذاته وهو حر ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضللت وانتهيت ، فلماذا تريد أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذي ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة في أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن ؟ »

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه في صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد . فإذا رأيت مثلاً في بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

ولذلك يجب على المستقيمين أن يتنبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تركهم في طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ؛ لأنه يعزّ عليهم أنهم لا يقدرّون على أنفسهم ويمزّ في نفوسهم أكثر أن يمجّدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً في العصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر . فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز في قلبه !! والحائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل في قلبه ؛ فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترّون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء في النار ، فلماذا تريدون أن تضلّوا الناس ؟ إذن فيجب أن يتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزئ أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ۖ وَإِذَا أَنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلي ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هي الصورة التي نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۚ ﴾

(سورة المطففين)

قاله سبحانه وتعالى بوضوح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تياسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأنني سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتي يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق يتساءل لياتي الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم في الدنيا .

وفي الآية التي نحن بصددها نحن نعلم أنها تقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة نسمع كلمة « يشتري » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمن ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول في آية أخرى :

﴿ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه بضع من هدنا ، وما نشتره نأخذه لنا . فحين تشتري سلعة بجنيه . فالجنيه بضع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشترى الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعي ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء في الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيراً . ألك قدرة على شيء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجيء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجيء بالنعم موجودة ، إذن فهو قد طرأ عليها ، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذي أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذي صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من

قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو في الصحراء ولم يجد ماء ولم يجد طعاماً، ثم يشس فنام، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطيب الطعام، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول في نفسه: من الذي أعد وأقام تلك المائدة؟ أنت - إذن - وارد على الكون بخيره كله، ولا أحد قال لك: أنا الذي فعلته، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا، فلا بد أن تشبه إلى أن له خالقاً.

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة؟ نعم كان معهم هدى الفطرة، ولذلك حين سئل الإمام علي - كرم الله وجهه - : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك؟

قال: لو عرفت محمداً برى ما احتجت إلى رسول، إذن فلا يصلح أيضاً أن يقال لأحد «عرفت ربك بمحمد»، لذلك قال علي كرم الله وجهه: ولكنني عرفت ربي برى، وجاء محمد فبلغني مراد ربي مني. إذن فقوله: «الذين اشتروا الضلالة بالهدى» ماذا فعلوا؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة. وهنا يقول الحق: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة».

ولم يأت بـ «الهدى» هنا، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماشاً بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى.

«ويريدون أن تضلوا السبيل» أو الإرادة هي: أن يرجح الشخص المختار حكماً على حكم، ومثال ذلك: أنت أمامك جوربان مثلاً، فلك أن تختار واحداً منهما، لكن لو كان أمامك جورب واحد فأرادت لك لا ترجع. إن الإرادة ترجح اختياراً على اختيار، وما معنى «تضلوا»؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة، فمحوها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك، فهل يحدث ذلك لأنك نسيت أو عرفت وتعمدت أن تتركه؟ فالذي نسي هذا الأمر معذور. لكن هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما في قول الحق:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما في قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ (٧)

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فبرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتعب نفسك لأن سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ . السبيل - عندنا - هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نهدده ونعبده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولا يعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفاً ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لا يذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ، لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلا بد أن تنظر إلى الغاية التى سيدهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتي من أنها تعمل للغايات الدنيا ، لذلك نقول لكل إنسان :
انظر الغاية العليا التي سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا
ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والفرق في الغايات المحدودة ،
مثلاً : أنت تبحث ابنك ليتعلم من سن الحضنة ثم إلى الروضة ثم الابتدائي ثم
الإعدادي ثم الثانوي ثم التعليم العالي ثم يتخصص في مجال معين في التعليم
العالي ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش
بكدّه وعرقه، والاب يعمل هذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب
الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التي
لا تفلت ، فأنت الآن تعيش في أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش
مع الحق .

إنك في الدنيا تعيش مع الأسباب التي خلقها لك الحق ، لكنك في الآخرة
ستكون مع الحق نفسه . أنت في الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش في الآخرة
بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة
الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك في الدنيا فقد تضغط على زر في الحجرة
ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فياتيك الأكل ، ولكن قل لي مهما ارتقت
الحياة أوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما
سيكون لنا في الآخرة ، إذن فهذه هي الغاية الحسنة ، ونحن نعيش في الدنيا مع
أسباب الله المحدودة لنا ، أما في الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك أوضح
سبحانه : ساعطى المؤمنين والكافر الأسباب في الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد
نتاجاً ، وعندما يبحث في الكون وينظر أسرارته فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب
خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من
آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعه الله منه :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ زِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرْيِدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِهُ

مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، مستجد أنها قد تنتهى قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كي يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفي آخر الأمر تنتهى المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقه النعمة ، ولكن فى الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقه . فهذه - إذن - هى الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك فى دنياك كما قلنا على قدر أسبابك . أما متعتك فى الآخرة فهى على قدر المسبب . وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله فى فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذي يجعل الناس تتعب فى الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سبها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وعندما تحدد الغاية تختار السبيل الذى يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقاً بين واقع ودافع ، الشيء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحدددها ، فالتلميذ يجهده كي ينجح ، وينجح لكى يأخذ حظه فى الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد فى ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته فى ذهنه فهو يبدأ فى المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهى النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذى يحدد الغاية ؟

إن الذى يحدد غاية كل شيء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذى يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأهل ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذى يحددها لأنك صنعته وخلقه ، لذلك تسأله : أنت سبحانه الذى تعلم موقعها فهى لنا الطريق الذى يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هى أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أى أن سبيلكم انتم لا توصلكم إلى ، لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أما أنا فقد

حددت السبيل بغايى فمن أراد أن يصل إلى فلينظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، وه الطريق ، كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها - سبحانه - بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرفك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، وتمثل لهذا بشيء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصل . وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فيتحرف القطار لينتظم الخط ويصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة - رضى الله عنه - حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال - أى أن الإيمان فطرى - ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

« ينام الرجل النومة فتغيب الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت - وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد - ثم ينام الرجل النومة فتغيب الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجمل » (والمجل هو أثر الجمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه - كجمر دحرجته على رجلك فنقط - أى انتفخ - فتراه متبهاً وليس به شيء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً » (١) .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر على زمان وما كنت أبالى أبكم بايعة لئن كان مسلماً ليردنه على دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه واحد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه على ساعيه - أى المحتسب - وأما الآن فما كنت أتابع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إن قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تنصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمستم بها إيماناً مجملأ اسمها « الله » . فلا بد أن نصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيئ ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه، وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة . فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ؛ ولذلك فعندما يأتي الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق .
أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك
وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً - والله المثل الأعلى -
هب أننا نجلس في غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن
الجلوس في الغرفة في أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه
رجل . . ويقول آخر : لا إنه امرأة . ويقول ثالث : لا إنه طفل . ويقول رابع :
هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة .
ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف في تحديد من الطارق . وهكذا
الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله
أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها
رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففي ذلك حسم
للخلاف .

إن الذي أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهايز التيه ، هو أن بعضهم لم
يكتف بتعقل القوة التي خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هيأتها
ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة
يظلون في التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذي يحسم هذه المسألة .
والحديث الذي رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم
المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذي يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبها :
احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى
ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك
الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشتركون الضلالة » ويريدون أن تفضلوا السبيل ، كي لا ينفردوا - وحدهم - بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء؛ لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تفضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذي عندهم وسيلة كي يضلوكم .

وفي عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوى الظاهر الكافر يجابهني وأنا واثق أنه يريد أن يدس لديني ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثل يأت ليكلمني فربما أخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يشعرون أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقي من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء المؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأ المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس في الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارئ يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها في مناهج تعليمنا ، وفي برامجنا ، وفي وسائل الإعلام ، وفي الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب ، وهم يعيشون على هذه . »

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى ﴾

بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعاً ؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كل هذه العداوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعاً ، لكن الله أعلم بهم وما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أي مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : « وكفى بالله ولياً » وحين يقول هذا ، فالقول يعني أنك لا تريد ولياً بعد ذلك ، كما يقولون : كفاي فلان ؛ أي أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكن فلاناً عرفته فكفاي عن كل ذلك ، أي لا يهوجني إلى أحد سواه ؛ لأنني أجد عنده الكفاية التي تكفيني في كل حركة حياتي .

« وكفى بالله ولياً » . . نعم كفى به ولياً لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۖ ﴾

(سورة الطلاق)

« الولي » دائماً هو من يملك مباشرة أي أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيراً » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضاً نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك ، لكن الله ولي ونصير ، فإدامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس

النصرة عند أحد ، اصنعوا ما في استطاعتكم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق
الاستطاعة إلى الله . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من
أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تقولوا : ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون في
حماية أحد ، وماذا نفعل في أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك ؛ لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم
بالرعب بأن ألقى في قلوب أعدائكم الخوف فينهمزوا من غير سبب وفيهم قوة
وغلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة فأنصركم بالرعب . ومادام سينصرنا بالرعب
فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرفي بالرعب ؛ يلقي عدوي سلاحه وأنا أخذه ؛ ولذلك
قال : اعملوا ما في استطاعتكم ، ولم يقل : أعدوا لخصومكم ما تحققون به النصر ،
فهو سبحانه قادر على أن ينصرنا بالرعب :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

ومادام ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهي
المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعَيْنَا
لِيَأْتِيَ السَّبْتَ وَلِأْتِيَ الدِّينُ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن
لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

تكلم الحق في سورة النساء عن الخلق الأول وأوضح : أنى خلقتم من نفس واحدة وهى « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثت منها رجالاً كثيراً ونساء ، والبث الكثير للرجال والنساء لتستديم الخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتي ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليتيم . وبعد ذلك مادت أريد استدامة هذا الاستخلاف فليأخذ الأيتام نصيباً ، وتكلم - سبحانه - عن التركة ، ثم تكلم عن السفهاء غير المؤمنين على ما لهم ، وبعد ذلك تكلم عن كيفية الزواج .

إذن فكل هذه العملية ليبنى لنا نظام حياة متكامل ، لأن الخلافة فى الأرض تقتضى دوام هذه الخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدى مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع . فإن كان فيكم يتيم لا بد أن تلاحظوه . وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر ماله فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقوى نفوسهم على الحركة . وأوضح سبحانه منهاج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزوجوا ، لكن للزواج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطانا المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » ، ووضح هذه الأحكام كلها .

وبعد ذلك ما الحكمة فى أنه - سبحانه - يرجع بنا مرة ثانية لليهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شيء وحمل النفس على مراد الله فى الأحكام شيء آخر ، فيوضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، فإياكم أن تكونوا كذلك . واعلموا أن هناك أناساً عندهم نصيب من الكتاب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن فهو شرح لنا : إنه الواقع الملموس ولا يأتينا - سبحانه - بكلام خبرى أو إنشائى ، قد تقول : يحدث أو لا يحدث ، إنه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، وينبهنا : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والتحريف : أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين : معنى خير ، ومعنى شر ، ولكنك تريد منه الشر ، مثل الذى يقول : « السام عليكم - والعباد بالله - » هى فى ظاهرها أنه يقول : السلام عليكم ، لكنه يقول : السام . يعنى « الموت » ، إذن ففى اللفظ ما يُلحظ مَلحَظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشر .

ومثل هذا ما قالوه للنبي : « قالوا راعنا » وهي من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتى الأمر : اترك الكلمة التى تحتل المعنيين . واقطع الطريق على الكلمة التى تحتل التوجيهين ، لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شراً ، فمعنى تحريف الكلام أى أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذى ذهب لخياط ليخيط له قباء^(١) . وكان الخياط كريم العين . أى له عين واحدة . فلم يُعجب الرجل بخياطة القباء فقال : والله مادمت أفتضح بهذا الثوب الذى خاطه لى أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً يفضحه فى الناس ، فقال :

خياط لى عمرو قباء لبت عينيه سواء

فقوله : لبت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمنى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتمل الخير والشر ، ومثلها حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا علياً - كرم الله وجهه وآله - وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفى .

فقال الوالى : لا ، عزمت عليك إلا فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت على إلا فعلت ، فسأصعد المنبر وأقول : طلب منى فلان أن أسب علياً فقولوا معى يلعنه الله .

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد فهم الوالى مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تتبهاوا إلى أن أسلوب القرآن يأتى فى بعض المواقع بالفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة (١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ويتمنطق عليه .. أى يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالقفطان .

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرر ، ولكنه ليس كذلك ،
مثلاً يقول مرة : « يشترون الضلالة بالهدى » ومرة لا يأتى بالهدى كضمن للضلالة
ويقول : « يشترون الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن هدى الفطرة مطموس عندهم
هنا ، ومثال آخر هو قول الحق :
﴿ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفي الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » ، فكان المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزل من الله وضع - أولاً -
وضعه الحقيقى ثم أزالوه وبدّلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره مثل تحريفهم الرجم
بوضعهم الحد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق
ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ،
فكانه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى
لا موضع له ، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يحرفون كلام
الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعنا وعصينا » . فهم يقولون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون فى
أنفسهم « إنا عصينا » . فقولهم : « سمعنا وعصينا » ففى نيتهم « عصينا » ، إذن
فقولهم « سمعنا » يعنى سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهى تعنى : عصيان
التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعنا جهراً وقالوا عصينا سراً أو هم قالوا : سمعنا ،
وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو
الذى يُسْمَعُكُمْ ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فإذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل
تطلبون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون
استخدام كلمة تحتل وجوهاً أخرى فتقلبونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم : « غير
مُسمع » ما يترك ، أو « غير مسمع » أى لا سمعت ، لأنهم يتمنون له - معاذ الله -
الصمم ، وقد تكون سبباً من قولهم : أسمع فلان فلانا إذا سبه وشتمه ، فالكلام
محتمل .

« واسمع غير مسمع وراعنا لئاً بالسّتهم » لم يقولوا: « راعنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ؛ لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « والى » : هو قتل الشيء ، والقتل : توجيه شقى الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا القتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم .

« لئاً بالسّتهم وطعناً فى الدين » ، وما داموا يلبون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شراً ؛ لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد فماذا يريد ؟ . . إنه يريد « طعناً فى الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرنا » بدلاً من « راعنا » ، فد انظرنا ، لا نحتمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبر أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذنم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أن تحول إلى شر . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرع ؛ لأنه يقول : « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » « واللّعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل تُعنى الله عليهم فى لعنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقولن أحد : لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ نقول : لا . هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . وساعة تسمع نفى حدث « لا يؤمنون » ثم يأتي استثناء « إلا » ، فهو يشبّه بعض الحدث ، تقول مثلاً : لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نفى الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضى محدثاً

هو : من آمن ، إذن ، فعندى حدث وفاعل الحدث ، فساعة تسمع استثناء تقول : هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة « فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعنى : فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ؛ لأنهم يؤمنون قليلاً بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست فى بالهم ولا يؤدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذى يؤمن ، وهذا صحيح عندما نقوله ؛ لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلى القرآن وراوا صورته فوجدوه مثلها وُصف عندهم تماماً فأمنوا ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، إنما عبد الله بن صُورَيا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذى آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفى ذلك تعبير من الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » ؛ لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا القول فمن الجائز - وهذا ما حدث - أن هناك أناساً من اليهود يفكرون فى أنهم يعلنون الإيمان برسول الله ، فلو قال : « فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن يعلنوا الإيمان - لكن عندما يقول : « إلا قليلاً » ، فالذى عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن الذى يخبر هذا الإخبار عالم بدخائل النفوس ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء القلة للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَتَبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا
فَنَرُّدَّهَا عَلَىٰ آذَانِهَا أَوْنَلَّعْنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ
السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التي جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ، فالمرجع واحد . ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتي رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التي جاء بها ركب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا في بعض الأحكام التي تتطلبها ظروف العصور ، وفي التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده يأتي لمسألة من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكن من تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتي لينهيها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا في العقيدة . لكن المسائل التي تحتاج إلى التعود فالحق يتلطف في أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كي لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكننا أن نشبه فجوة الانتقال : مثلاً يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه في اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد وزعنا عادته على بعض الزمن ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلنجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتياد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التي تنشأ من رقابة التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ۚ ۖ فَالْحَقُّ يُوضِّحُ : لم تأت بحاجة جديدة ، بل كلها مما عندكم . قد يقول قائل : مادامت مما عندهم فما الداعي لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً في أقضية العصر التي لم تكن موجودة عندهم ، والذي زاد هو معالجة تلك الأقضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان موجود بالقرآن المعجز الذي ينزل من السماء ، بالمعجزة ، بالتوحيد ، والقضايا العقدية ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « أوتوا الكتاب » إلزام لهم بالحجة ، وتعني : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ، لأنه يقول : « مصداقاً لما معكم » إنهم يعلمون ما معهم جيداً ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاء لهم من جديد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، فإن وجدوه مصداقاً لما عندهم فقد انتهت المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، وكان أمر الله مفعولاً ، سبحانه يناديه : بادروا ، كما نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشيء الذي طمس هو الذي غيى بعدما كان شيئاً مميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت في القرآن بمعاني متعددة ، فتطلق مرة في البدن على ما يواجهه وهو « الوجه » كما في قوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

ونطلق الكلمة مرة على القصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

وه أسلم وجهه ، تعني قصده ووجهته ونيته .

إذن فمرة يطلق الوجه على الوجه الذي به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ، وما العلاقة بين القصد ، والنية ، والوجه ؟ . لأن الإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق على القصد والنية . ومادام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فينا ، ويطلق على القصد والنية التي توجهنا فالأثنان يصحان .

وقوله: «نطمس وجوهاً» لأنه سبحانه أوضح : أنا مكرمكم وجعلت لكم سمات تميزكم ، بشكلها : حواجب ، وعينين ، وأنفاً جليلاً ، وفماً ، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة ، لما استطعت ، وسبحانه يعلن : أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التي تميزكم ، بحيث أردناها على الأدبار ، فيكون الوجه مثل القفا ، وتصبح كقطعة اللحم ، هذا إن أردنا بقوله: «وجوهاً» الوجه الذي في البدن .

وإن أردنا بالوجه «القصد» نقول : الذين يشترون الضلالة ، والذين يريدون أن تضلوا السبيل ، والذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، والذين يقولون : «راعنا» ، والذين يقولون : «اسمع غير مسمع» . أليس لهم وجهة ؟ وما وجهتهم في هذا الموقف وما قصدهم ؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد ، فكأنه يقول لهم : بادروا وأمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى انتهاء من صدكم عن الإيمان برسول الله ، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك ونلعنكم ونطردكم من رحمتنا ، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية ، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال : والله لقد خفت قبل أن أسلم أن يطمس وجهي .

وهذا دليل على أنه آمن بأن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ . وفي عهد سيدنا عمر - رضي الله عنه - نجد كعب الأحبار يذهب له ، ولم تكن الآية قد بلغت ، فلما بلغت ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضح يده على وجهه خائفاً أن يطمس وجهه قبل أن يعلن إسلامه . وذلك دليل على يقينه من أن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ .

وقد يقول قائل : ولكن منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا الطمس . نقول : أمر قال سنطمس الوجوه فقط ؟ لا ، بل قال أيضاً : «أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت» ويكفي أن هناك أناساً اعتقدوا أن الطمس قد يجيء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم ، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود ، فسيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنا أحب أن أسلم ، ولكنني أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود في شراً فقبل أن أسلم أسألهم عني ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار اليهود : ماذا تقولون في عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وحبرنا ومجدوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام : يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت^(١) .

لقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر ، فقال له : إني سأثلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول شرائط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعته ، وإن سبق ماء المرأة نزعته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوا عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أي رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : رأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا أحاذره الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر . قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزل : « قل رأيتم إن كان من عند الله وكفرتكم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله »^(٢) .

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذي خاف منه عبدالله بن سلام وكعب الأحبار ، هذا ذهب إلى رسول الله

(١) قولهم بهت فلان فلاناً . قدله بالباطل وافترى عليه الكذب ، واسم الفاعل بهوت والجمع بهت مثل : رسول ورسول .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

وذاك ذهب إلى عمر ، وكل منها كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله :
 « نطمس وجوهاً » أى نجعلها مثل « القفا » مجرد قطعة لحم من غير تمييز ، أو نحول بينهم وبين قصدهم
 أى لا نتمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صدهم الناس عن الإيمان برسول الله .. « من قبل أن
 نطمس وجوهاً فردها على أديارها أو نلعنهم » أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول
 الحق :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

ماداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم : ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيزيد
 لك الختم على قلبك وستعينك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى :
 ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة البقرة)

فإذا كنت أنت تريد هذه فستعطيك ما في نفسك « فردها على أديارها أو نلعنهم
 كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يخاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت
 ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وطردهم الله وأهلكهم ولعنهم وأعد لهم عذاباً عظيماً .
 إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد .. أنتم
 - يا معشر يهود - تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم ، « كما لعنا أصحاب
 السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ستأتى في سورة أخرى ، وه السبت وهو
 السكون والراحة ، ومنه السبات أى النوم ، فسبت بسبت يعنى سكن واستقر وارتاح .

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ،
 وقالوا في معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا في مفهومات آيات
 القرآن يقولون : أنتم لا تفقهون عند معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن
 يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة فى اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة
 فتعلمكم اللغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة . وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن
 لا يعطيك قدرة وضع اللفظ فى معناه الحقيقى ولا بيان المراد منه - واللحن - إذا كان

معناه الطرد - كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقتضى مطروداً ويقتضى مطروداً منه .

ومن الذى يُطرد ؟ .

ومن الذى يُطرد ؟ .

وعن أى شيء يُطرد ؟ .

حين تأخذون المعنى على هذا الوضع لا تجدون غمضة في أن تتعدد معانى الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جارك كلبك الذى تعز به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟ . تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أن ابنك مثلاً صنع شيئاً وعندك ضيوف فأردت أن تخرجه من المجلس وقلت له : اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد . وإذا كان ذنب الابن لا يحتمل فأنت تخرجه من القرية ، وهذا طرد . فإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحية كلها فتكون قد أبعدته من الحية كلها . إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزي والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير في المعارك ونالوا الخزي والهوان ؛ لأننا سبنا نساءهم وبناتهم وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أذرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معانى الطرد تتأتى . فقد جاء بمس كل الذى حدث لهم ، ولكنه يختلف باختلاف الطارد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سأخذ منها لعن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية في الأسبوع ، ونلاحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحداً ويوم الاثنين يعنى اثنين وهكذا في الثلاثاء والأربعاء والخميس ، فيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيها العدد : يوم « الجمعة » ،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أخذتا معاني غير العددية ، ولكنها بأخذان معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

يعنى عندما نقول مثلاً « الخميس » فيكون يوم الجمعة يعنى « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدى بعد الأعداد : واحد . اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لها اسمين مختلفين ؛ لأن في كل واحد منها حدثاً غلب العددية . فـ « الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأخذنا بدلاً منها « الجمعة » ، و « السبت » للسكون ، لأن مادتها في اللغة : سبت يسبت ، أى سكن وهذا ولم يتحرك ، مثل قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ ﴾

(سورة النبا)

أى سكوناً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليَعْلَمَ منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأتى فيحرم حدثاً في زمن وهو مباح في غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد في أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا في كل يوم . وكانوا يأتون بالسمك كرزق من البحر ، فجاء في هذا اليوم خصوصاً وقال لهم : لاتصطادوا في هذا اليوم ، أى أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و « أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أى تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقضية أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالياً في سورة البقرة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة البقرة)

وقوله هنا : « كما لعنا أصحاب السبت » ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الأمر ، والرسول هو الذى سأله الله أن يسأل ، والمستولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خيراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خيراً فيصدقه أهل اليقين الذين
يثقون في الله ويصدقونه ، وقد لا يتركه خيراً ، بل يأتي به في صيغة الاستفهام ؛ لأنه
وائق أن المستفهم منه لا يجد جواباً إلا الحق الذي يريده سبحانه وتعالى ، وعندما
يقول ربنا لنبيه :

﴿ وَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي اللَّيْلِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِجَابُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّاءَ يَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(١٦٣ سورة الأعراف)

ذلك حدث لا يستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يفص الله الحدث من
عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لا يجتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ،
فاوضح : أنا لا أقول عن الحدث ، ولكن يا محمد أسألك أنت عن هذه الحادثة
فسيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« وأسألكم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، وكلمة « قرية » تأخذها من
« القرى » . والقرى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كضيف مثلاً . ولكن ليس
عندك ما يعطيه « قرى كاملاً » أي ما يقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قرية
واحدة » ، أي أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فإدام قد مر عليك فأنت تعطيه
قرية واحدة - وجبة واحدة - فإن كانت البلد « أم القرى » : فيكون فيها حاجات
كثيرة ؛ أو لأنها أعظم القرى شأنًا . والقرية التي جاء ذكرها في سورة الأعراف يتم
تعريفها بأنها : « حاضرة البحر » والحاضر هو القريب . فيقال : حضر فلان أي
أصبح على مقربة مني ، و « الحاضرة » أيضاً هي : التي إن طلبت فيها شيئاً وجدته ،
كما قال شوقي - رحمه الله عليه :

ليل بجاني كل شيء إذن حضر

فكذلك « الحضر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها
تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك فـ « حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها
« الحواضر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاضرة البحر » تأخذها بمعنى قرية

من البحر ، أو أنها هي البلد المتحضر على البحر ، أو الجامعة لأنواع الخير على البحر ، وهي التي كانت بين « مدين » و « الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن يتليهم بشيء وهو : تحريم الصيد في ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال : لاتصطادوا في هذا اليوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الابتلاء ليعلم علم إبراز لخلقهم مدى تنفيذهم للابتلاء ، وإلا فهو عالم ماذا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا في هذا اليوم . قد يقول قائل : لماذا حرم هذا الحدث في ذلك الزمن ؟ . نقول له : أنت تريد أن تعلم من الله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك : لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واختبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَيُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

« الطيبات » هي الحلال ، لكنهم هم فعلوا ما يستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاوزتم حدودكم وأخذتم مالمس حلاً ، فجعلتموه حلاً فلا بد أن أجعل من الحل الذي هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجتازت على محرم فأحللته ؟ وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليل وتحريمي فأنا سأخذ شيئاً من الذي كان حلاً لك وأحرمتك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ

أَنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١١﴾

(سورة الحج)

إذن فالحق لا يريد من الناس أن يعبدوه على حرف .. أى على طرف من الدين بل في وسطه وقلبه .. أى أنهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذي على طرف العسكر والجيش .. فإن أحسن بظفر ونهر وغنيمة سكن واطمأن ، وإلا فرّ وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك في بعض الناس

يقول : سأزكى لأزيد من مالى . نقول له : اخرج من بالك ظنك أن مالك سيزيد ، بل أنت تزكى لأن الله طلب منك أن تزكى . أما أن يزيد مالك فهذا شيء آخر ، فلعل الله يتلى إيمانك ويريد أن يرى : ألنت مقبل على الحكم لأن الله قاله ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطى ربحاً زائداً ستزكيه أيضاً ، لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قاله .

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألا يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يبلوهم بلاء حقاً فيأتى في اليوم المحرم فيه الصيد ويكثر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إغراء بالمخالفة ، فلو لم يظهر السمك في هذا اليوم لكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحاً في الماء ، « إذ تأتيهم حينئذ يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم تأتى الحيتان شرعاً ، وفي غير يوم السبت لاتأتى ، وهذا الأمر يجعلهم في حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يحصمهم التمهيص الدقيق ، فإذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إنما طمعهم المادى يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذى يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وثقوا بعتاء الله فى المنع لنجحوا فى الاختبار . ذلك أن الحق قد يجعل فى المنع عطاء ، لكن من الذى يتنبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خير من هذا السمك الشرع الذى يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً : صنعوا من الأسلاك والخيال « مصايد » و « جُجى » .. و « ملاقف » يمحزون بها هذا السمك الشرع فى الماء ثم يأتون فى اليوم التالى فيجذونه محبوساً ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يضرهم معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك فى حيازتك ، وما دمت قد عملت بحيث تتمكن من حيازة السمك فى أى وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يحتالون على الله ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَسَعَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ
يَوْمَ سَبِيهِمْ تُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(سورة الأعراف ١٦٣)

ومادام الواحد منهم يفسق ويحل لنفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا :
مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحلته لك ، لأنك أعطيت لنفسك
حرمة في أن تحل ما حرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا
مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (سورة الأعراف ١٦٤)

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيما بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله .
فقال لهم آخرون : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة
خالفوا ، وجماعة أرادوا أن يعظوهم كي لا يقعوا في المخالفة ، وجماعة لاموا من
يعظونهم وقالوا : دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم . . . « الله مهلكهم أو معذبهم
عذاباً شديداً » ، فقالت الجماعة التي تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام
الله بأننا لم نسكت على المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضاً
فلعلهم يتقون ربهم بترك ما هم فيه من المعصية والفسق . فماذا حدث ؟ . . يقول
الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ
بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (سورة الأعراف ١٦٥)

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلها وهو « أهلكنا » ، إذن فجاء هنا
« اللعن » بمعنى الهلاك .

ونختم الحق الآية التي نحن بصدد خواتمها : « وكان أمر الله مفعولاً » نعم
لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة ، لا يتخلف شيء في

وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلا بد أن يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هي التي تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ، ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هي التي تحتاج إلى أداء الخير . أو تعد إنساناً وتهده بشر ، وسنعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غدا مرض يعمدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فانت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعيدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأغيار ، ومادامت قدرتك من الأغيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعده أو قال بوعيد أيوجد شيء يغير هذا ؟ لا . إذن فساعة يقول ربنا بوعده أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيد به ؛ لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتكلم عن الحدث حسب زمانه . فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فتقول : فعل « ماض » . أي أن الحدث قد وقع في زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع في وقت تكلمك ، كان الفعل « مضارعاً » ، والمضارع صالح للحال وللاستقبال ، تقول : فلان يأكل . وذلك يعني أنه يأكل الآن . وإن قلت : « سيأكل » - أي أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحق وأخبر عن أمر مستقبل وعبر عنه بالفعل الماضي فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ؛ ولذلك فالزمن عند ربنا ملغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

« أتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أتى » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث ، فالذي يشكك في القرآن يقول : ما هذا الذي يقوله القرآن ؟ يقول : « أتى » وهو لم يأت ؟ . . . نقول له : هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أتى » فهو آتٍ لا محالة ، فاحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا رادّ لأمره . « أن أمر الله » فهي تعنى سيأتى . ولا توجد قدرة فى خلقه تصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولاً » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل . وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعنى أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ونقول : لا ؛ لأن أمر الله كان مفعولاً ، فإياك أن تأخذ « نلعن » هذه التى للمستقبل كى تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذى عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ؛ لأنك لا تملك أسباب نفسك ، تقول : سأعمل الشيء الفلانى غداً . وقد يأتى غداً وتكون أنت غير موجود هذه واحدة ، أو تقول : سأقابل فلاناً . وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فقد يموت ، أو قد يتغير رأيك ويأتيك الشيء الذى كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد تقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتى وقت الانتقام يهدأ قلبك .

إذن فانت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تجادل ؛ ولذلك يعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ونخرجنا عن أن نكون كذابين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاباً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك غداً ثم لا تفعله ، وملدمت لا تفعله فتكون كذاباً مجترئاً ؛ لأنك افترضت فى نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلما قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه فى المستقبل ، قل لى بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فادباً منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث
نقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد خرجت من التبعة ، ولم تكن
كذاباً . إذن فنقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » .
« ونلعن » هذا فعل مضارع ويأتى من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال :
سيلعن ، فهل مستحق اللعنة ؟ نقول له : نعم ؛ لأنه قال : « وكان أمر الله
مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن
تضيف : ولا يزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ،
لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذي وجد ليتلقى رحمة سبحانه إنما
جاء بعد أزلية رحمة الله ومغفرته . فسبحانه أزلى قديم . والصفة أزلية وقديمة بقدمه .
سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتبه أفعال . وما دام سبحانه رحيماً قبل أن
يوجد مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أتخل الصفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائماً فكان
الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان أمر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد يفعله بأسبابه وقد
يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فلما أن يوجد الشيء من غير سبب أو يوجد
بسبب ، والشيء الموجود بالسبب مخلوق بالمسبب . فسبحانه خلق الأسباب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية في صلة الإنسان بالحق
سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا
عَظِيمًا ﴾

هذه من أرجى الآيات في كتاب الله ، ولذلك فحينما سئل رسول الله صلى الله
عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أى ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه
وسلم :

« من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » (١)

ونحن نقول إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقديّة العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعيّة ، وإن كانت القوانين الوضعيّة ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً .
هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة في نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة في أن تكون له لا للآخر ، أي ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى . إذن ففي قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذي لا يتعرض للسيادة ، لكن أي حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له . فأنت تدخل حصن الأمان ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« أشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك منهما إلا دخل الجنة » (٢) .

وأبوذر عندما قال للنبي في محادثة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً)

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر^(١) .

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبي ذر ، هل هذه أحزنت أبا ذر ؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبي ذر وهو مسرور ، لماذا ؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز . وكل جريمة موجودة في الإسلام والحق سبحانه . قد جرمها - فهذا يعني أنها قد تحدث . مثال ذلك . . . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا يعني أنه من الجائز أن يسرق المؤمن ، وكذلك قد يزني في غفلة من الغفلات ، وفي أسس الاستغفار يأتي البيان الواضح : من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر »^(٢) .

أي أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة ، وهو سبحانه يقول : « إن الله لا يفر أن يشرك به » وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تعتمد آلهة البشر في البشر ويرهق الإنسان ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويا عنه ، فأعفك الله من هذا وأوضح لك : لا ، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه ، وفي ذلك راحة للمؤمن .

إن الإيمان إذن يعلمنا العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تنحنى لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله ، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة ، هل أنتم زدتكم له صفة ؟ لا . فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم ، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم والترمذي .

ما مصلحتها بالنسبة لله ؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب .
ولذلك قلنا: إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يجتمعوا كل أسبوع مرة ،
لأنك قد تصلى فرضاً فرضاً في مصنعك أو في مزرعتك أو في أى مكان ، إنما يوم
الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه ،
تخضع وتسجد وتبكي بينك وبين الله ، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس ، لترى
كل من له سيادة وجاه يسجد ويخضع معك لله . وفي الحج ترى كل من له جاه ورياسة
يؤدى الناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استوفينا في
العبودية ، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يذل له بل كلنا عبيد لله ونخضع له وحده .

إذن فالمسألة في مصلحة العبد ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، لأنه لو غفر أن
يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض ، وحين تعدد الشركاء في الأرض يكون لكل
واحد إله ، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر
جميعاً بأوامره بعزنا جميعاً . . فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عند أحد ، فقله :
« إن الله لا يغفر أن يشرك به » . . هذا لمصلحتنا .
« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

ودرى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشياً وهو قاتل سيدنا حمزة
في غزوة أحد ، أتى على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً
فأجرتني حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير
جوار فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله قال : فإن
أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنت هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت
رسول الله حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ
فِيهِ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾

فتلاها عليه فقال : أرى شرطا فلعل لا أعمل صالحا ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ إِنْ أَلَّهِ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ۝١٨﴾

(سورة النساء)

فدعا به فتلا عليه قال : فلعل من لا يشاء ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٢﴾

(سورة الزمر)

فقال نعم : الآن لا أرى شرطا فأسلم .

إذن فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، ومادام الحق يقن تقنيات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتي بسيرتها عنده مرة أخرى وتذكره بها وافرض أن واحدا شهد زورا ، افرض أن واحدا ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب . إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ، لأن الذي يملكها انتهت عنده المسألة .

لماذا ؟ لكيلا يذل الناس بمعصية فعلت ، بل العكس ؛ إن أصحاب المعاصي الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون في نظر بعض الناس هينين محقرين . ولذلك نقول : إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كتبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها ، وهذا هو السبب في أن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحقر المسرفين على أنفسهم . بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولانجعل لهم أثرا رجعيا في الزلة والمعصية .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » و « الافتراء » هو الكذب المتعمد . لأن

هناك من يقول لك قضية على حسب اعتقاده ، وتكون هذه القضية كاذبة ، كان يقول لك : فلان زار فلاناً بالأمس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثراً للزيارة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعمد الكذب على الله وهذا يطلق عليه : « افترى إثماً عظيماً » ، لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا تقل إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألا تخالف فطرتك متعمداً وتجعل الله شريكاً .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فننتهي ، وإما ألا تكون صادقة - والعياذ بالله - أى أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا . أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شيء . إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدي في الكون ولا شريك لى ، ولم ينازعه في ذلك أحد فالمسألة صادقة لله بالبدهة ولا جدال .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون في الفعل وفي الكلام ويكون في الاعتقاد أيضاً . « إنهم عظيم » ، وهذا يعنى أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإنم العظيم » هو الذى يخلّ قضية عقدية واحدة في الكون تشمل الوجود كله هي أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوداً عل هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي

مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا ۝٤٩﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التي يخاطب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرثية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن مرثية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يعلم بها وهي غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعني : ألم تعلم ، وكان العلم بالنسبة لخبر الله يجب أن يكون أصديق مما تراه العين ؛ لأن العين قد تكذبه والبصر قد يخدعه ، « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » و « التزكية » هي أولاً : التطهير من المعاييب وهذا يعني سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها غناء ، والتزكية التي زكوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم في هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعنى : إن كنتم أحياء وأبنائه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها لنا ؟ أغللك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على من يملك لكم كل شيء وهو الله - سبحانه - فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التي فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل وبرأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحياء ، وقالوا أيضاً :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكن باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة في أمر يحتم ذلك . مثاله : عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يهدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها. هنا يتقدم إنسان يفهم في قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فانا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهي مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق .

ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف !! وكان المفروض العكس ، انظر إلى الملحظة ، لأن سنين الجذب ستأكل سنين الخصب ، لكن من الذى يتنبه إلى رموز الرؤيا . فتعبير الرؤيا ليس علماً . بل هبة من الله يمنحها لأناس ويجعلهم خبراء فى فك رموز - شفرة - الرؤيا ، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث أحلام » ، و « أضغاث » مفردا « ضغث » وهو الحشيش المخلوط والمختلف ، لكنهم أنصفوا فقالوا :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أنصفوا فى قولهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أفنى ، فإدام قد قال : لا أدري فببطلت إلى أن تسأل سواء ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به وتتورط ، إذن فمن قال : لا أدري فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضا وقالوا : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو فى السجن عندما دخل عليه الفتيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ الْيَتَمَنُ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أُرْسِيْ أَعِصْرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ

إِنِّي أُرْسِيْ أَجَلٌ فَوْقَ رَأْسِيْ خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتين يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالوا وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا تَرَكْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنها شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما خزيها واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالوا : لا يوجد أحسن من هذا الإنسان نسأله ، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هي القيم ، والصادق محترم حقّ عند الكذاب ، والذي لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنها عندما خزيها أمر قالوا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالوا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤيائهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منهما قبل أن ينفذ إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما : وماذا رأيتهما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأٌ كُفٌّ يَخْلُو إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

إذن فالتركية هنا مطلوبة ، وقد ردّها الله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثل :

﴿ إِنِّي زَرَعْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال :

﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثل إذا ما اتبعتم هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النجم)

أى إله واحد أحسن أم آلهة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الآلهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد - فى الظاهر - يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الآلهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد :

﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامها لكى يأخذها إلى جانب من زكى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : اتئون به أستخلصه لنفسي ، ويكون مقرباً مني . ثم بعد ذلك جاءت سنون الجذب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجذب ، لقد كانت التجربة إخباراً لآثياء متحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست محارب بل هى مسألة دقيقة . فقال للملك :

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحيشية :

﴿إِنِّي خَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير خاضع للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، إنها تحتاج لحفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يا عمداً فيقول لهم : والله إني لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمضى تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند

من يعلم التزكية وإلى من يعطيك التزكية ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه تزكية صحيحة ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٣٣)

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكي نفسك عند الذي سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحق أن يزكي الإنسان نفسه في غير المواقف التي يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين لا لفائدته الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلَى أَفْضَلُ لِمَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴾ (٣٤)

(سورة النساء)

إن الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف في نفسه مدة من الزمن أمامك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكي تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك أحيان يزكون أنفسهم . أهذه محت حسناتهم ؟ لا . فعلی الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لن يأخذهم هكذا ، ويضيع حسناتهم ولكنهم « لا يظلمون قتيلا » وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن نزل بلسان عربي على نبي عربي ، والذين باشروه أولاً عرب ، ونعرف أن أغلب إجماعاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهي الشجرة المفضلة ؛ لأنها شجرة لا يسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شيء في النخلة إلا وفيه فائدة .

عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل المسلم ، حدثوني ما هي ؟ »

فوقع الناس في شجر البادية ووقع في نفسى أنها النخلة . قال عبد الله فاستجيب ، فقالوا : يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هي النخلة » قال عبدالله : فحدثتني أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا^(١) .

وللنخلة فوائد كثيرة ، فكل مانأخذ منها نجد له فائدة حتى الليف حولها يحمل الجريد نأخذ ونصنع منه مكانس وليفاً ومقاطف ، وكراسي . وحينما يطلب سبحانه وتعالى مثلاً على شيء معنوي فهو يأتي بالشيء المحس في البيئة العربية .

« ولا يظلمون فتيلاً » و« الفتيل » من « الفتلة » ، ومن معناها : الشيء بين الأصابع ، فانت حين تدلك أصابعك مهما كانت نظيفة يخرج بعض « الوساخات مثل الفتلة » ، أو « الفتيل » هو : الخيط في شق نواة البلحة ونواة التمرة ، جاء سبحانه وتعالى في القرآن بثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقيير » : وهو النقرة الصغيرة في ظهر النواة وماخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « القطمير » : وهي القشرة التي تلف النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهي قشرة ناعمة ، إذن ففي النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقيير » ، و « القطمير » .

والحق يقول :

﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشيء المحس أمامنا أمثالا يراها العرب في كل وقت أمامه ويأخذ الحق أيضا أمثالا من السماء فيأتيها بمثل : « الهلال » ، يقول في الهلال وهو صغير :

﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة يس)

فسباطة البلح فيها شماريخ ، وفيها يد تحمل الشماريخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيماً ، لكنه كلما

قَدْ يَتَنَبَّه وَيُنْحَنِي ، فَبِجَاءِ لَهْمٍ مِنَ الْهَلَالِ فِي السَّيَاءِ وَأَعْطَاهُمْ مِثَالًا لَهُ فِي الْأَرْضِ
« كَالْعَرَجُونَ الْقَدِيمُ » ، وَالْعَرَبُ قَدْ أَخَذُوا أَمْثَالًا كَثِيرَةً ، لَكِنْ هُنَاكَ حَاجَاتٌ قَدْ
لَا يُتَنَبَّه إِلَيْهَا مِثْلَ قَوْلِ الْعَرَبِ :

وِغَابِ ضَوْءِ قُمْرٍ كُنْتَ أَرْقَبَهُ مِثْلَ الْقَلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفْرِ

فَسَاعَةَ تَقْصُ أَظْفَارُكَ تَجِدُهَا مَقْصُومَةً . لَكِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ لَا يُتَنَبَّه لَهَا كُلُّ وَاحِدٍ ، فَهُوَ
جَاءَ بِشَيْءٍ وَاضِحٍ وَقَالَ : « كَالْعَرَجُونَ الْقَدِيمُ » ، إِذَنْ فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَيْثُ
يُعْطَى مِثَالًا لِأَمْرٍ مَعْنَوِي فَهُوَ يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ الْمَحْسُ أَمَامَكَ لِيَقْرَبَ لَكَ الْمَعْنَى ، وَعِنْدَمَا
تَأْكُلُ التَّمْرَةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى الْفَتِيلَةِ عَمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا شَيْءٌ تَافَهُ ، وَالنَّقِيرُ وَالْقَطْمِيرُ
كَذَلِكَ . إِذَنْ فَرَبَّنَا أَخِذْ مِنَ النُّوَاةِ أَمْثَلَةً ، وَأَخِذْ مِنَ النَّخْلَةِ أَمْثَلَةً كَمَا يَقْرَبُ لَنَا
الْمَعَانِ . « وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا » .

وَيَقُولُ الْحَقُّ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ ﴾

إِنَّمَا مُبِينًا ﴿٥٠﴾

وَقَوْلُ الْحَقِّ « أَنْظِرْ » هِيَ أَمْرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلِّ خُطَّابٍ
لِرَسُولِ اللَّهِ هُوَ خُطَّابٌ لِأَمْتِهِ ، وَعَرَفْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ « الْإِفْتِرَاءُ » : كَذِبٌ مُتَعَمَّدٌ
« يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » فِي قَوْلِهِمْ عِنْدَمَا أَرَادُوا أَنْ يَزَكُوا أَنْفُسَهُمْ :

﴿ نَحْنُ أَيْتَنُوا اللَّهَ وَأَحْبَبُّهُمْ ﴾

(مِنْ الْآيَةِ ١٨ سُورَةِ الْمَائِدَةِ)

وَقَوْلُهُمْ :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ (مِنْ الْآيَةِ ١١١ سُورَةِ الْبَقَرَةِ)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً » ، لماذا ؟ لانك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ؛ لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبيناً » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب المبين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يفدك .
ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَبِيلًا ۚ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعنى عندهم صلة وعلاقة بالسياء وبالرسل ، وبالكاتب المنزل من السماء على الرسل التى تحمل مناهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا الحظ لكان كلامهم هذا معقولا لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهيات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو ترتيب لقدرات المخلوق وتنميتها ؛ لأن أسباب الله فى الكون قد تعزّ عليك ، وقد تقفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك متحرراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لا تمنحنى الأسباب ، لأن عندى المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة . والإيمان بالله يقف المؤمنين على أرض صلبة ، فمهما عزّت أسبابك وانتهت فاذكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجدد آفاق حياتك

رحبة ، فالذين يتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب ضاقت عليهم ، وعلموا أنه لامناص من أنهم في عذاب . لكن المؤمن يقول : يارب ، ومجرد أنه يقول : يارب ، فهذا قول يريجه حتى قبل أن يجاب ؛ لأنه التفت إلى مسبب الأسباب حين عزت عليه الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من حيث لا يحتسب ، إنك بمجرد أنك قلت : يارب نجِدْ نفسك قد ارتاحت ؛ لأنك وصلت كل كيائك بالخالق ، وكيائك منه ما هو مقهور لك ، ومنه ما هو غير مقهور لك . والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاد . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعل كذا ، ولرجلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سب فلاناً ، فالله سخر الجوارح وأمرها : يا جوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى الدنيا . لكن فى يوم القيامة أكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستمرد على جوارحى :

﴿ وَقَالُوا لَـجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدُوا عَلَيْنَا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وجعلتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها . فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ، لأن الملك الآن للواحد القهار :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ فَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاد .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شيء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربنا ، وعندما نقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقدية فيه ، فقد عرفنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بني إسرائيل من فرعون ويخرج بهم ، وقبل أن يصل بهم إلى البحر تنبه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب :

﴿ إِنَّا لَمَذْرُكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أحد يكذب هذه المقولة ! لا ، فإذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلاً قال قومه ، ولكنه نظر للمسبب الأعلى فقال بملء فيه :

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تكذب مقولته ؟ لا. لا تكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » اعتماداً على أسبابه . فليس من محيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إن معي ربي سيهدين » ، هذه ثمرة الإيمان ، فلما قال : « إن معي ربي سيهدين » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واغلبهم ، لا. بل قال : « اضرب بعصاك البحر » ؛ كي يعطى الشيء ونقيضه ، ولتعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطى الشيء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : اضرب بعصاك البحر ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطراقاً وسبولة ، لكن هاهي ذى المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الشعراء)

و« الطود » هو الجبل ، والجبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أى لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن ينفذ منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر كى يعود البحر مثلما كان ؛ حتى لا يأتى قوم فرعون وراءه فقال له ربنا :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى : اتركه كما هو على هيئته قاراً ساكناً ؛ لأننى أريد أن يغريهم ما يرون من اليبس فى البحر فينزّلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأطبقه عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلك بالشيء الواحد .

يقول الحق : « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أحد جاء حُتَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزلوا على أهل مكة ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله . وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف - زعيمهم - على أبى سفيان وقال له : نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد . فقال أبوسفيان : أنت صاحب كتاب ، وعندك تورا ، وعندك إيمان بالسما ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول : إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فبينكما علاقة الاتصال بالسما ، فما الذى يدرينا أنك متفق معه علينا فى هذه الحكاية ؟ إننا لا نأمن مكرك ، ولن نصدق كلامك هذا إلا إذا جئت لأهتنا وأقمّت مراسم العبادة عندها فسجدت لها .

و« الجبت والطاغوت » هما صنمان لقريش ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وخضعوا لهما ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطانا أم كاهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » . ف« الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاغياً » . بل « طاغوت »

وهو الذى كلما اطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر . . . وسواء أكان الجبت والطاغوت
صنمين أم إلهين من الآلهة التى يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ،
لكى تصدق قريش عداة اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له :
فارق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وفر إلى المدينة ، ونحن على غير ذلك . نحن
نسقى الحجيج ، ونقري الضيف ، ونفك العاني - الأسير - ونصل الرحم ، ونعمر
البيت ونطوف به . وعظم أبو سفيان في أفعال قريش ! ، فقال الذين أوتوا الكتاب
- لعداوتهم لمحمد - قالوا لأبي سفيان وقومه : أنتم أهدي من محمد سبيلا !

ويوضح ربنا : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، ومع
ذلك فعداوتهم لك ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به ، جعلهم ينسون
نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم القوم أنفسهم الذين كانوا
يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبي منكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وادم . لكن
هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والجبت ، فهل عند مثل هؤلاء شيء من
الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمئن رسول الله بأن هؤلاء انعزلوا عن مدد السماء ،
فإن نشب بينك وبينهم حرب أو خلاف فاعلم أن الله قد تحلى عنهم لأنهم تركوا
النصيب من الكتاب الذى أوتوه . وإياك أن يأتى فى بالك أن هؤلاء أصحاب كتاب .

إن الحق يطمئن رسوله أنه سبحانه قد تحلى عنهم وأن الله ناصرك - يا محمد -
فلا يفرنك أنهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى
زوال ؛ لأن حظهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم
إليه وقد جعلوا العداوة لك والانضمام إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ،
ببعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ٥٢

وقوله: « أولئك » هي اسم إشارة مكون من « أولاء » التي للجمع ، ومن « الكاف » التي هي لخطاب رسول الله ، ونحن - المسلمين - في قلى خطابه صلى الله عليه وسلم ، « أولئك » هي للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالحبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أو « أولئك » لكل من اليهود والمشركين ، ولناخذها إشارة لهم جميعا ، في قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله » و« اللعن » إما أن يكون « الطرد » ، وإما أن يكون « الخزي » وإما أن يكون « الإهلاك » .

وكيف يلحق الله الخزي بالكافرين ؟ لأنك تجد المد الإسلامي كل يوم يزداد ، وهم تتناقص أرضهم :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

« أولئك الذين لعنهم الله » . . إذن فالطارد هو الله ، فحين يكون الطارد مساويا للمطرد ، ربما صادف من يمينه ، لكن إذا كان الطارد هو الله فلا معين للمطرد ، « ومن يلعن الله » أى من يطرده ربنا « فلن تجد له نصيرا » ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مادام قد طرده . . فسبحانه يدخل في روع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا ينصره أحد « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ٥٣

وما هي حكاية قوله : « أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا ؟ »

إنه - سبحانه - يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أى أنهم - فى واقع الأمر - ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم - أيضا - ملك الله ؛ فالملك له وحده - جل شأنه - يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما فى أيديهم . كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ

الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۝٢٣﴾

(سورة الإسراء)

أى إنكم تخشون الإنفاق حتى لا تقل الأموال عندكم ، فلو أخذتم خزائن ربنا فستقولون لو أخذنا منها وأعطينا الناس لقلت ! وفحوى العبارة : أن كل هؤلاء سواء أكانوا كفار قريش أم كبراء اليهود ، كانوا يحافظون على مكانتهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسوى بين الناس ، فمن الذى يحزن ؟ الذى يحزن هم الذين كانت لهم السيادة لأنهم لا يريدون أن تتساوى الرءوس ، وباليتمهم عندما أخذوا السيادة جعلوها خيراً للناس ، لكنهم لم يفعلوا . فلو كان لهم الملك والأموال لن يُعطوا للناس نفيراً ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا ينزل عن جبروته ؛ لأن هذا الجبروت يعطيه سلطاناً ، ومادام الجبروت أعطاء سلطاناً فلا يلتفت إلى حقيقة الإيمان ، فإن خير الخير أن يدوم الخير ، فليس فقط أن تكون فى خير وسلطة لكن اضمن أنه يدوم ، وهذا الدوام ستأخذه بعمر الدنيا وأمدتها قليل وعمرك فيها غير مضمون ، إذن فدوام الخير هناك فى الآخرة :

﴿ لَأَمَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٢٤﴾

(سورة الواقعة)

فأنتم إن كنتم تحرصون على هذا الجاه ، وتريدون أن يكون لكم هذا الملك والجاه والمعظمة فهل أنتم تعطون الناس من خيركم هذا حتى يكون هناك عذر لكم فى الحرص على المال بأن الناس تستفيد منكم ؟

فلماذا تريدون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم في قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ ﴾

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالذي عنده نعمة يقول : (ربى أكرمى) ، والذي ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهاننى) ، فيقول الحق تعقياً على القضيتين (كلا) .

وما دام سبحانه يقول تعقياً على القضيتين : (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ؛ فانت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة . وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراماً لكم بل سيعذبكم به . ويضيف سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْتَضِرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٨ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال - إذن - إكراماً وهو سيأتىك بمصيبة ؟ فعدمه أفضل ؛ فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حق الضعفاء فيه هو وبال وشر ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَبِّطُوْنَ مَا بَخِلُوْا بِهِ يَوْمَ الْفَيْصَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوق بغل أشد ؛ ولذلك عندما يشتد عليه الغل يقول : يا ليتني خففت هذا الغل ، والحق يتساءل في الآية التي نحن بصدد خواتمها لماذا يتفنون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذي أعطوه من الكتاب ، ويذهبون ليقولوا للذين كفروا : أنتم أهدي من محمد سبيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم من نصيب الكتاب أن محمداً على حق ؟ .

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، ونعلم أن اليهود كانوا في المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل عناصر السيادة . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه المسائل من تحت أقدامهم ، وحزنوا . وكذلك كفار قريش : كانت لهم السيادة على كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أي قبيلة في الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛ لأن القبائل تخاف من التعرض لهم ، ففي موسم الحج تذهب كل القبائل في حضيض قريش . والمهابة المأخوذة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذي حفظه الله ورعاه وهزم من أراد به سوء ورد كيده ودمره تدميراً تاماً . كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِاَصْحٰبِ الْفِيلِ ۚ ۝١ اَلَمْ يَجْعَلْ كَبْدَهُمْ فِي نَفْسِ الْفِيلِ ۚ ۝٢ وَاَرْسَلَ

عَلَيْهِمْ طَيْرًا اَبَابِيلَ ۚ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۚ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ

مَّا كُوِيَ ۚ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وعلة هذه العملية تأتي في السورة التالية لها ، وهي قوله سبحانه :

﴿ لَا يَلْبِسُ قَرْيَشٌ ۝١ اِلٰهَ لَّهُمْ رِحْلَةَ الْغَنَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيت لعبادته لانتهى وانتهد منهم السيادة
فلا يقدر أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول
سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ① ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعز . وهو :

﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ② ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شئ ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى
الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس فقيرا
أى لا يعطونهم الشئ التافه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَاهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَأَتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ③ ﴾

والحمد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره
للمسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

(سورة الزخرف)

إذن فالقرآن مقبول في نظرهم ، لكن الذي يحزنهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تغفيلهم ، وهو مثل تغفيل من قالوا :

﴿اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الانفال)

لقد تمنوا الموت والقتل رميا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق ، وهذا قمة التغفيل الدال على أنها عصبية مجنونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿اَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فلماذا الحسد إذن ؟ إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالا عادلا بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يتبعه تتجمل به حياته . وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علما من الكتاب أن يمشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم في كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وَفَضَّلُوا عَلَيْهِ الْكَافِرِينَ الْوَثْنِيِّينَ . فقالوا إنهم أهدى من محمد سيلا .

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله ، لأننا نعرف أن في كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته على الخلق تفضل ببقية الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع .

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيباً فبخلوا وضنوا ، وليتهم ضنوا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذي وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فبريد الحق سبحانه أن يقول لهم : أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فلم تؤدوا حقه ، وأيضاً أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه ، ولن تعطوا أحداً مقدار نقيير وهو النفرة على ظهر النواة . ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝٢٣٢﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم في المعنويات والقيم معطون ، ولا هم في الماديات معطون . فإذا كانوا قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً .

ثم يوضح الحق : إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذي منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه ؟ . لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصداقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله في خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، ويقابله « الغبطة » وهي أن تتمنى مثل ما لغيرك ، فغيرك يظل بنعمة الله عليه ، ولكنك تريد مثلها . وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تغبطة ، والحق يقول :

﴿ مَا عِنْدَكَ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۝٢٣٣﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

ولذلك يجب أن يكون الناس في عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة في أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كمٌ من المال ثم اتصل بك قوم في حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك : إنك ستنقص مما عندك بقدر ما أعطى هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطى الآخرين ولا ينقص مما عنده شيء .

إذن فالغبطة أمر بديهي عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر ، وذلك كما جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر » (١) .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد - كما عرفنا - هو : أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمني معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : ردهً لقدر الله في خلق الله ، وثاني ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشر منه ؛ فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا : الحسد هو الذنب أو الجريمة التي تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . . ونقول : إن الله جعل في بعض خلقه داء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم في نعمهم وفي عافيتهم . وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك . فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمي نفسه به ، وليس له أن يستعمله في باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شيئاً يكره النعمة عنده غيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله : (ما شاء الله لا قوة إلا الله) . فلوقارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذي لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعة ترى نعمة عند غيرك وتقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أي نعمة . إنما ربنا هو الذي أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء . ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذي يجد الحسد في نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يرد كل شيء إلى الله ، وما دام قد رد كل شيء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسداً . ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك في قوله سبحانه :

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتلئ قلب أى واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه ، لأن تيار الحقد يحدث تغييراً كيميائياً في تكوين الإنسان ، وهذا التغير الكيميائي هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيميائي من النعمة عند غيره يجعل في نفس الإنسان وفي مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما تستعيز بالله من شر الحاسد ألا يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعازتك من شره تعني أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتعلم أن ذلك خير لك ، فإن أصابك في نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك في شيء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها !! . . . فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . . . اللهم إنك ربى وإنك لا تحب لى إلا الخير لأنى صنعتك ولم تجر على إلا الخير . . . لكننى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له ، فإن أصابه في ولده وقال : من يدري لعل ولدى الذى أماته الله كان سيفتنى فأكفر أو أسرق له وأخذ رشوة من أجله . لكن الله أخذه منى ومنع عني ذلك الشر ، أو أن النعمة قد تطفئني ، وقد تجعلني المنجبر على الناس ، وقد تجعلني أتطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربنا : امرض قليلاً واحداً . وهكذا نرى أن المصاب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتي من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ ﴾

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ① وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ② ﴿٥﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعدنا الله من شر الحاسدين . ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله : « من شر حاسد إذا حسد » . إنك تفهمه على أساس ألا يصيبك حسده ، لا . . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف قدر الله في تلك الإصابة وتقول : يارب إنك أجريتها على الخير عندك لي . فإن فعلت ذلك فقد كفيت شراً .

ونحن نعيش في عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا في العلم بين لنا ربنا آيات في كونه وفي أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعاني ، فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخل تحت مرأى البصر ، كان عنيفاً ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمى آخر بحجر . ثم آخر يرمى بمسدس ، ثم صار في قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أي فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل ، إذن فأسلحة الفتك كلما لطفت - أي دقت - عنفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جرمًا ، وعمل الإشعاع نافذ لكن لا يوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نجرى العملية من غير أن نسيل دمًا بواسطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكلما دق السلاح كان عنيفاً وفتاكاً .

وهذا مثال يوضح ذلك : لتفرض أنك أردت أن تبنى لك قصرًا في خلاء ، ثم مر عليك صديق فقال : لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديدًا ؟ تقول له : لماذا ؟ . فيقول لك : هنا سباع وذئاب . فتضع الحديد لمنع الذئاب ، وآخر يمر على قصرك فيقول : إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد . وثالث يقول : هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكًا على النوافذ .

إذن فكلما دق العدو كان عنيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر . ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يرى يأتى فيفتك بالناس ، فالآفة التى تصيب الناس كلها لطفت ، - أى دقت وصغرت - عنت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها . وأفتك الميكروبات هى التى تبق للدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض : لا نعرف لها فيروساً ، بمعنى أن هذا الفيروس السبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فما الذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كياوية الإنسان الحاقدا الحاسدا الذى تشقيه النعمة عند غيره ، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشيء فتفتك به !! ما المانع من هذا ؟! إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شيء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لا نصدق أن كياوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة ينعمها ربنا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عنده بعض من المال ، ومع ذلك يغفل حقداً على خصومه . فيشتري مسدساً أو بندقية ليقتلهم ، إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان .

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصداقاً بما عندهم ، ما الذى منعهم أن يصدقوه ؟ . لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسول ، وهل كان ذلك صحيحاً ؟ حقا إنها مزية للرسول ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم ، والناس فى كل الأمم - ماعدا الأنبياء - يورثون أولادهم ما لهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعلوا على الناس ، بل كلّفوا بمتابعة جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين . وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللمعجزة وللعظمة ، وحين يحىء رسول لكى ينفض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة ، ماذا تفعلون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأخذتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن نتبعه . فإذا كنتم

تُحْسِنُونَ النِّبْيَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الرِّسَالَةِ وَجَعَلْتُمُوهَا مَسْأَلَةً يُدَلِّلُهُ اللَّهُ بِهَا أَوْ أَنَّهَا تَعْطِيهِ سَيِّطَرَةً ، فَلَمَّاذَا الْحَسَدُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَقَدْ أَعْطَى اللَّهُ سَيِّدَنَا إِبْرَاهِيمَ الْمَلِكَ ، وَأَعْطَى لِدَاوُدَ الْمَلِكِ ، وَأَعْطَى لِسُلَيْمَانَ الْمَلِكِ ، وَأَعْطَى لِيُوسُفَ الْمَلِكِ ، فَلَمَّاذَا الْحَسَدُ إِذْنٌ عِنْدَمَا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَكْرِمَ الْفَرْعَ الثَّانِي مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ .

لَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْفَرْعَ الْأَوَّلَ فِي إِسْحَاقَ وَجَاءَ مِنْ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ، وَمِنْ يَعْقُوبَ يُوْسُفُ ، ثُمَّ جَاءَ مُوسَى وَهَارُونَ ثُمَّ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَرَّمُوا ، وَعِنْدَمَا يَكْرِمُ سُبْحَانَهُ الْفَرْعَ الثَّانِي لِإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ ذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيلَ وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ رَسُولًا ، تَحْزَنُونَ وَتَقْفُونَ هَذَا الْمَوْقِفَ ؟

لَمَّاذَا لَا تَنْظُرُونَ إِلَى أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وَفِرْعَانَ أَيْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَمَّاذَا اعْتَبَرْتُمُ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ نِعْمَةً مَدْلُلةً ، وَلَمْ تَنْتَبِهُوا إِلَى أَنَّهَا عَمَلِيَّةٌ قَاسِيَةٌ عَلَى الرَّسُولِ ؟ لِأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ النَّمُودَجُ التَّطْبِيقِيُّ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى آلِهِ ، وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ يَتَمَتَّعُ بِذَلِكَ بِلِ الْعَكْسِ ؛ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (إِنَّا مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ) (١) .

وَيُحَرِّمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلَ بَيْتِهِ مِنَ الزَّكَاةِ . وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا : (إِنْ الصَّدَقَةُ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إِغْمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ) (٢) .

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِأَوْلَادِهِ .

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ : « فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ، وَهُوَ الْكِتَابُ ، هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَهُوَ الْحِكْمَةُ ، هِيَ الْكَلَامُ الَّذِي يَقُولُهُ الرَّسُولُ مُفَسِّرًا بِهِ مَنْهَجَ اللَّهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ آتَاهُمُ اللَّهُ الْمَلِكُ أَيْضًا . فَسَيِّدُنَا يُوْسُفُ صَارَ أَمِينًا عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، وَأَصْبَحَ عَزِيزٌ مِصْرَ ، وَسَيِّدُنَا دَاوُدَ ، وَسَيِّدُنَا سُلَيْمَانَ آتَاهُمَا اللَّهُ الْمَلِكُ مَعَ النَّبُوَّةِ . إِذْنٌ فَفِيهِ نَبُوَّةٌ وَفِيهِ مَلِكٌ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُ

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ١٢ . ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى
بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

وقوله سبحانه: « فمنهم من آمن به » . والمقصود الإيمان بما جاء في منهج إبراهيم والرسول الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو « منهم » أى من أهل الكتاب الذين نتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، « ومنهم من صدَّ عنه » أى أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكان نتيجة الصدَّ عن المنهج أنه لا يأتى بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاء على ما فعلوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله على تتابع في كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل في مهمة آدم وذريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَلَمَّا يَأْتِيََنَّكُمْ مِنْى هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى ذريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدَّر الغفلة في خلقه عن منهجه ؛ فهذه المناهج تأن دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهى فأنت تجده يعطى النفس شهوات لكنها مُعَلَّاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ومحتاج إليها ، لكنه يجد أخاه المؤمن يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضلُه عن نفسه ؟ لا ؛ لكنه يعطى هذا الشيء القليل في الفانية كي يأخذه في الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن بشهوة معلاة ، والذي قلنا له : غرض طرفك عن محارم غيرك . فظاهر هذا الأمر أننا نحجبه عن شهوة يشتهيها ، لكننا ساعده نحجبك عن شهوة تشتهيها في حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة في حلال الخالدة . فأياها أعشق للجمال ؟ الذي ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهي تسير ، أم الذي يغض عينه عنها ؟ الأعشق للجمال هو الذي غرض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التي تريد عاجل الأمر وإن كان نافهاً . ويوضح له : كن للأجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها في هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن في الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكن الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه بشهوة عاجلة ثم أعقبها العذاب الأجل المقيم ، فهذه هي الحمية الحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يأتى للإنسان فيها ما يؤله وما يسره ، وليس فيها دوام حال أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شيء فيها متغيراً . . ومادام كل شيء فيها متغيراً . إذن فالذى في نعمة قد يصيبه شيء من الضر ، والذي في قوة قد يصيبه شيء من الضعف ، والذي في ضعف قد تأتبه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يتم عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت في دار الأغيار فانتظر الموت ؛ فتنام النعمة هو صعود لأهل

منطقة في الجبل وأنت في دار الأغيار ، فهل تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، فإياك أن تسرَّ عندما تبلغ المسألة ذروتها ؛ لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذي يتعب الناس أنهم لا يحددون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغايات القريبة .

إن من حق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على فراق حبيب أو قريب له ، وخذها بالمنطق : ما غابتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ، لأننا في الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن نتقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب . ففي الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، فما يحزنك في هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تراع المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعت المنعم لسرت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هي أن نصل إلى المنعم الحق ونكون في حضاته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحق أن بعض الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هي الغاية . ثم جاء واحد وقال له : سنذهب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سأتى بمطايأ حسنة نركبها . وقال ثالث : سأتى بعربة ، وقال رابع : سنسافر بطائرة وقال خامس : سنسافر بصاروخ ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، ومادامت غابتنا أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت - إذن - تحزن على نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذي يموت بعد أن يرى حق الله في الدنيا يكون مسروراً لأنه في حضرة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة الموقوتة إنه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول : انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدني أن أبقي مع الأسباب وأترك المسبب !

إننا نجد الذين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم في المنام أبداً ؛ لأن الميت لا تأق روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بأن تكون مع أسباب الحق في الدنيا ثم تصير مع الحق ، والموت هو النقلة التي تنقلك من الأسباب إلى المسبب ، فما الذي يحزنك في هذا ؟

نحن نقصّر عليك المسافة . . فبدلاً من أن تقابلك عقبات الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول : مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم : وهل هذه تكون خيراً له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقترفاً للمعاصي ؛ فلعل الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة ، ضاع المسألة أمامك واجعلها حقيقة .

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليل ، وأظلمات نهارى وكان أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكان أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكان أنظر إلى أهل النار يتضاغون^(١) فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثاً^(٢) .

ولنا العبرة في سيدنا حذيفة - رضى الله عنه - حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت ؟ أى كيف حالك الإيمانى ؟ قال حذيفة : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها - أى أن الذهب تساوى مع الحصى - هذه هى مسألة الدنيا - وأضاف حذيفة : وكان أنظر أهل الجنة في الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار في النار يعذبون

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير في الحياة مستقيماً . . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم

(٢) رواه الطبراني .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا
نُضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

و « نصليهم » من الاصطلاح ، قد يقول قائل : مادام يصل النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهى إلى عدم ، وحين ينتهى إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا الأمر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » . . إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهى المسألة . أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدي دائم مكرر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » . . فإذا ما حترقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أمى عين الأولى أم غيرها ؟ وحق أوضح ذلك : أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول : أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « دمل » يتعبه ولا يقدر على الله . . وبعد ذلك يغفل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم . لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد .

إذن فالألم ليس للمضوب بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا في الطب « قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح « الدمل » بالشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم . وهكذا نجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذب هى النفس الواعية . . بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة . . تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب .

إنه نظام إلهى فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلما تقدم هدانا إلى شيء من آيات الله فى الكون . أنتم - الآن - تحذرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هي آلات توصل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها - مثلاً - بواحد عنده « حكة » في جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن فقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » أى أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا .

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومنهجاً ، وهذه هي الميزة التي امتاز بها الإسلام . فمنهج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئاً ومعجزته كانت شيئاً آخر .

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته : العصا ، وسيدنا عيسى منهجه : الإنجيل ، ومعجزته : إبراء الأكف والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد النهائي لآخر الدنيا ، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته ، لتكون المعجزة دليلاً على صدق المنهج في أى وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أى نبي سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذي أتبعه هي منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلم بجلء فيه : إن محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزته . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه .

والمنهج القرآن فيه أحكام ، والأحكام معناها : افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهي واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحقى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب ، ومن لم يفعله يعاقب . وكل الناس سواسية في مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة .

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها :
فقد طمرها الله وسترها في القرآن مع إشارة إليها ، لأن العقل المعاصر لتزول الكتاب
لم يكن قادراً على استيعابها في زمن الرسالة . ولو أن القرآن جاء بآية واضحة تقول :
إن الأرض كروية وتدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن بعضاً
من البشر الآن يكذبون ذلك ، فما بالنا بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه
وسلم الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به .

لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوى ،
ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التليفزيون وضوء المصباح
الكهربائي وغير ذلك من الاستخدامات ، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إن الشمس
تسطع على الدنيا فيتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار ليصير سحباً ، ثم ينزل
المطر من السحاب . وكل هذه الآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع
العقول ، وترك في كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهي إليه العقول الطموحة بالبحث
العلمي .

وهندما نتعرف نحن - المسلمين - على اكتشاف علمي جديد في الكون ، نقول :
إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس
هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَتَبُوا بِمَنَآئِلِهِمْ لَئِنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا مِّنْهُمُ يَقُولُ لَهُمْ عَجُوزٌ أَوْ كَافِرٌ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يونس)

لو أن القرآن قال : إن كل شيء في الوجود يتكاثر ، وفيه موجب وفيه سالب ،
ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ لا ، لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا
في الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك في الحيوانات ، وأيضاً في بعض النباتات مثل
النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح
الذى تزرعه وتأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد في
« الشواشي » العليا في كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشي فتزل منها حبوب اللقاح
فيخرج الحب ، ولذلك نجد الزارع الذكى هو الذى يفتح « كوز الذرة » من أعلاه قليلاً حتى
يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها . وقد يفتح الفلاح أحد « كيزان الذرة » فيجد حبة
ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط أى لم تصل بحبوب اللقاح وهو
ما يقولون عنه في الريف « ستة عجوز » .

إذن فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣١)

(سورة يس)

وكنا نعرف الأزواج في الأنفس ، ثم عرفناها في النبات ، وجاء الحق بهما
لا يعلمون ، لتدخل كل شيء ، وتكشف الموجب والسالب في الكهرباء ، وصرنا
نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية .

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه
في الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتمجز عن فهمها ، وخاصة أن
الكتاب واجه أمة أمية ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه واجه العالم المعاصر ، إن هناك
قضايا في الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت
سبباً من الأسباب التي تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ،
والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج ،
لكنه ترك في الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل
يوم يكتشف العقل البشري أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتي من فراغ ، بل يأتي من أشياء
موجودة .

إذن فلو رددت أدق أقضية العلم التي يصل إليها العقل المعاصر ، ونسبتها في
الكون لرجعت إلى الأمر البديهي . فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة
جديدة ، إنما هو أعمل عقله في موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة ،
ثم أصبحت القضية المعلومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يهيء بعد ذلك .
ولذلك فالعلماء عادة قوم يغلبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر
الفلاني ، يعني كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا فكرة تقرب لنا الفهم ، فنحن عندما كنا نتعلم
الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم في البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها ، والعقل الواعى المفكر المستنبط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شئ في الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العقل الذى يرتب ويستنبط يخيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بل وُلد من الموجود جديداً ، مثال ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزواج ، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟ إنه الله .

إذن فالبداهيات التى في الكون هي خيرة كل علم تقدمى وهي من صنع الله الذى أتقن كل شئ صنعاً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة في الكون منشؤها من الأمر البدئى ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيروا به الآلات ماذا حدث ؟ . كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذى به الماء يغلى ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض ، وعندما تعرف على السر ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البخار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بدئية موجودة في الكون ، فإياك أن تغتر وتقول : إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهد في معطورات الله في الوجود ، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف .

لذلك فعندما يتكر العقل البشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية في الوجود . ويقول :

﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، نقول لهم : القرآن مسها وجاء بها ، فيقولون : عجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليخاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمي . ونقول : نعم .

والآية التي نحن بصددنا فيها هذا :

﴿ كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحس » - كما نعرف - شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحس ؟ منهم من قال : نحن نحس بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عيني ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عيني أى أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحس . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكي والحركة العكسية ، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة في العضل ، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا نحس .

إذن فمركز الإحساس في الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح : أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فإنا أبذل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ » أى صارت محترقة احتراقاً تاماً وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب ؛ لأنه هو الذي سيوصل للنفس الواعية فتتألم ، إذن فالآية مسّت قضية علمية عملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة في الإحساس تقول : يا بني آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج في العقول على مهل .

« كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » . فتكون علة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كي يدوم العذاب . وليلحق الحق الآية : « إِنْ أَفْلَحَ الْكَافِرُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُغْلَبُ وَلَا يُقَادَرُ أَنْ يَتَحَدَّثَ مِنْ أَنْ يَهْزَمَكَ أَبَدًا ، فَقَدْ يَقُولُ كَافِرٌ : لَقَدْ تَلَذَّذْنَا بِالْمَعْصِيَةِ مَرَّةً لَمُدَّةٍ خَمْسَ دَقَائِقَ ، وَمَرَّةً لَمُدَّةٍ

ساعتين فما يضيق أن يحترق جلدي وتنتهي المسألة !! نقول له : لا. إن الذي يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم. فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا . هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس المقابل ؛ لكي يكون البيان للغايتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ
فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلٌ ﴾ (٥٧)

وفي هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . إذن فامة سيدنا محمد هي أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » (١) ، .

ولذلك لم يقل الحق في هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغيرنا بالطاعة ، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة ، لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

إن كلمة « الجنة » مأخوذة من « الجن » ، والستر ، و« الجنة » هي البستان الذي به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التي تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل نرفاً للعيون فقط ، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقنيات وفيها كل شيء ، فهي تستر عن أن تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذي عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شيء هو الآن عنا غيب ، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهداً ، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل :

« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(١) صدق ذلك في كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . كانوا يعملون »

ونعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه . . فقال : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، والعين حين ترى تكون محدودة ، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية ، لأنه سيسمع عن رأى ، إنه سمع فوق ما رأى ، إذن فدائرة الإدراكات تأتي أولاً : بأن يرى الإنسان ، ثم بأن يسمع ، وهو يسمع أكثر مما يرى ، وعلى سبيل المثال قد أرى أسوان لكنني أسمع عن أمريكا ، فدائرة السماع أوسع .

وبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا خطر على قلب بشر » أى أن ما في الجنة أكبر من التخيلات ، إذن فكم صفة هنا للجنة ؟ الأولى قوله : ما لا عين رأت والعين مهما رأت فدائرتها محدودة ، والثانية : قوله : ولا أذن سمعت . والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً . والثالثة : قوله : ولا خطر على قلب بشر . وهذا أوسع من التخيلات ، فإذا كنت يا حق سبحانه وتعالى مستعطينا في الجنة : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فبأى الألفاظ ياربى تؤدي لنا هذه الأشياء ، والألفاظ اللغة إنما وضعت لمعانٍ معروفة ، وما دمت ستأتى بحاجة لم ترها عين ، ولم تسمعها إذن ولم تخطر على قلب بشر ، فأى الألفاظ ستؤدي هذه المعاني ؟

لقد أوضح صلى الله عليه وسلم : أنه لا توجد الفاظ ، لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ ، فكل لفظ وضع في اللغة معروف أن له معنى ، لكن ما دامت الجنة هذه لم تراها عين ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فلا توجد كلمات تعبر عنها ، لذلك لم يقل صلى الله عليه وسلم : إن الجنة هكذا بل قال : « مثل الجنة » أما الجنة نفسها ، فليس في لغتنا ألفاظ تؤدي هذه المعاني ، وحيث إن هذه المعاني لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ، لذلك فليس في لغة البشر ما يعطينا صورة من الجنة ، وأوضح الحق سبحانه : سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيكم به مثلاً فقال :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَعِيمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

ونحن نرى الأنهار ، والحق يطمئنتنا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التي قد تعكر نهريتها ؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة ، فيقول : « أنهار من ماء غير آسن » ، إذن فهو يعطيني اسماً موجوداً وهو النهر ، وكلنا نعرفه ، لكنه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التي تراها في النهر الحادث في الحياة الدنيا ، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجري في شق بين شاطئين ، لكن أنهار الجنة ستري الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة . . . وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه .

إن العربي كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه في القرب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى وإلى حيث تسافر ، وعندما كان الأعرابي يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزن في القرب ، ويجده متغير الطعم لكن لا يجد غيره ؛ لذلك يوضح الحق : سأعطيكم أنهاراً من لبن في الجنة لم يتغير طعمه ، ثم يقول : « وأنهار من خمر » وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا ؛ لأنه يقول :

« مثل .. » ولم يقل الحقيقة فقال : أنهار من خر لكنها خر « لذة للشاربين » ، وخر الدنيا لا يشربها الناس بلذة ، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خر .. فهو يسكبه في فمه مرة واحدة ! ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به ، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض ؛ وتغتال العقول وتفسدها . لكن خر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول .

إذن فحين يعطيني الحق مثلاً للجنة .. فهو ينفي عن المثل الشوائب ، ولذلك نجد الأمثال تتنوع في هذا المجال ؛ فالعرب عندما كان يمشي في الهاجرة ، ويجد شجرة « نبق » ويقال لها : « سدر » كان يعتبرها واحة يستريح عندها ، ويجد عليها النبق الجميل ، فهو يمد يده ليأكل منها لكنه قد يجد شوكاً فيتضادى الشوك ، وفي بعض الأحيان تشكه شوكة . وعندما لا يجد في هذا الشجر شوكا يقول : هنا « سدر مخضوض » أي شجرة نبق لا شوك فيها ، والحق يأتي بكل الألفات التي في الدنيا وينفيها عن جنة الآخرة .

« وأنهار من عسل مصفى » وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال ، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى ، فأوضح الحق : ما يعكر عليك العسل هنا في الدنيا أنا أصفيه لك هناك ، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً ، ولماذا مثل ؟ .. لأنه مادام نعيم الجنة « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .. فتكون لغة البشر كلها لا تؤدي ما فيها .. لكنه - سبحانه - يعطينا صورة مقربة ، ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التي تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل ، ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير الله للكون ، وليس لنور الله الذاتي ، بل لتنوير الله للكون ، فيقول :

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لغتك ليس فيها الالفاظ التي تؤدي الحقيقة ، ولذلك يقول :

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة التوبة)

ومادامت جنات ففيها شجر ملفف وعالٍ ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون في منطقة فيها مياه ؛ لذلك قال : « تجري من تحتها الأنهار » ، ومرة يقول : « تجري تحتها الأنهار » لأن ما يجري تحتها قد يكون آتيا من مكان آخر ، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجري الأنهار تحت جنتك . وقد تظن أن بإمكان صاحب النبع أن يسدها على جنتك . فيشرح الحق : لا هي جاءت من تحتها مباشرة .

ويقول الحق عن أهل الجنة : « خالدين فيها » وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم في دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة ، فقال سبحانه عن جنة الآخرة : « خالدين فيها أبداً » فلا هي تزول عنهم ولا هم يزحزحون عنها .

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من النعيم الذي يوجد عندنا في الدنيا لكنه يزول أيضاً أو نزول نحن عنه : « ولهم فيها أزواج مطهرة » وأزواج جمع « زوج » ، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعا فهو يأتي في الصفة بجمع أيضاً مثل قوله :

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبا)

لأن « قدور » جمع « قدر » ، ولم يقل هنا : وأزواج مطهرات وجاء بها مفردة لأن الرجل في الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فينشأ بين الزوجات المتعددات ظلال الشقاق فكانهن متنافرات ، فقال : إنهن كلهن سيكون أزواجاً على صورة واحدة من الطهر ، وليس في أي منهن ما يعكر صفو الأزواج كما يكون الأمر في الدنيا ، ولا يقول واحد : « كيف تقبل المرأة أن يكون لها ضرة في الآخرة ؟ » لأن الحق سبحانه نزع من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس في الدنيا فقال :

﴿وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الاعراف)

إذن فكانهن - وإن تعددن - في سياق واحد من الطهر مما لا يعكر صفو الزوج ،
إنه يعجبك شكلها ، مستعجبك ، أخلاقها ليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد في
الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله . إذن فهو يعطيني خلاصة ما يمكن أن يتصور من
النعم في الأزواج .

ويكمل الحق : « وندخلهم ظلاً ظليلاً » . ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى
فهي تأن بالتوكيد من اللفظ نفسه ، فيقول العربي مثلاً : « هذا ليل أليل ، أى ليل
حالك ، وعندما يبالغ في « الظل » يقول : « ظليل » . وما هو « الظل » ؟ . « الظل »
هو : انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدخله الشمس أصلاً كأن يكون
الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً .

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون في الصحراء ، فساعة يرى الإنسان
هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويتمتع بظلها ، والظل نفسه قد يكون ظليلاً ، مثال
ذلك « الخيام المكيبة » التي يصنعونها الآن ، وتكون من طبقتين : الطبقة الأولى
تعرض للشمس فتتحمل السخونة ، والطبقة الثانية تحجز السخونة ، ويسمون هذا
السقف « السقف المزدوج » . ويوجد خاصة في الأماكن العالية ؛ لأن الشقة على
سبيل المثال التي تعلوها أدوار تكون محمية ، لكن الشفق الموجودة في آخر دور
خصوصاً في البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة ؛ لذلك يصنعون سقفاً
فوق السقف ، وبذلك يكون الظل نفسه في ظل .

ولماذا الإنسان يسعد بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل في جدار ؟ لأن
الظل في جدار مكون من طبقة واحدة ، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً
يحجب الهواء ، لكن الجلوس في ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة
فوقها ورقة ، وأوراقها بعضها فوق بعض ، وكل ورقة في ظل الورقة الأعلى . ولأن
كل ورقة خفيفة لذلك يداعبها الهواء ، فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة
الشمس ، وتعطيه هواء أيضاً ، هذا هو معنى قوله : « ظلاً ظليلاً » .

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال :

وقانا لفحة الرمضاء وإد
نزلنا دوحه فحنا علينا
وأرشفنا على ظمأ زلالاً
يصد الشمس أن واجهتنا
سقاه مضاعف الفيث العميم
حنو المرضعات على القطيم
الذ من المدامة للنديم
فيحبها ويأذن للنسيم

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان في صحراء ثم ينزل في وادٍ به دوح وهذا الدوح يحنو على الإنسان حنو الأم على طفلها في سن الفطام . وأنه قد سقاهم من مائه ما يلد . وتصد الشمس عنهم الأشجار الكثيفة ولكن النسيم يمر بين أوراق الشجر . وهكذا نفهم أن كلمة « ظل ظليل » ، أى أن الظل في ذاته مظلل .

وبعد أن تكلم الحق عن الغايات التى تنتظر الصنفين من خلقه : الصنف الذى يتأبى على منهج الله ، والصنف الذى يتطامن لمنهج الله : الصنف الأول أعد له الله النار التى تشوى جلوده ويبدله جلوداً غيرها ليذوق العذاب ، والصنف المؤمن الذى أعد الله له الجنة ذات المواصفات المذكورة . وعندما يجعل الغاية واضحة في ذهننا من الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد ، لأن النفس تكون كارهة للنار ومحبة للجنة ، وعندما يأتى حكم جديد تتعلق النفس به وتنفذه ، لأنها قريبة العهد ، بالترهيب من النار والترغيب في الجنة ، فيجعل الحق هذا الأمر مرة تذييلاً لما تقدم ، ومرة أخرى يجعله تمهيداً لما يأتى ، كى تستقبل الأحكام الجديدة في ذهنك وتتضح لك الغاية التى تنتظر من التزم ، والغاية التى تنتظر من انحرف .

وعندما يأتى الحكم والغاية متضح في الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع في بؤرة الشعور ، لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية ، ورحمة الله بالخلق أن هذا الرأس الذى فيه حافظة ، وفيه ذاكرة ، وفيه تخيلة ، لا يقدر أن يستوعب كل المعلومات في بؤرة الشعور مرة واحدة ، ولا يمكن أن يحى لك معنى جديد إلا إذا ترحح المعنى الذى كنت مشغولاً به في ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى حاشية الشعور ، فإن بقى المعنى في مكانه فلن يأتى لك خاطر جديد .

إذن بُورَةُ الشعور هي التي فيها ما أنت الآن بصددّه فلا يمكن أن تتداخل الأفكار في البُورَةُ الشعورية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعي حاجة في بُورَةُ الشعور . فالمعاني تتداعى كي تأتي بما في حاشية الشعور إلى بُورَةُ الشعور . وساعة يأتي ما تريده في بُورَةُ الشعور يذهب المخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشري يستطيع أن يواجه في بُورَةُ الشعور كل المعلومات ، لا . فمن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاماً تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟ . إذن فهي موجودة لكنها موجودة في الحواشي البعيدة للشعور . . . وعندما تداعت المعاني خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بُورَةُ الشعور ؛ ثم تؤدي مهمتها وتذهب ؛ وتأتي أخرى في بُورَةُ الشعور .

إن هذا الذهن البشري فيه قوة وطاقة يخزن فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفوتوجرافي » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بُورَةُ شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بُورَةُ شعورك خالية من غيرها تلتقطها .

أنت تكبر القصيدة أو الآية أو الكلمة كي تحفظها ؛ لأنك لو قلت أن تجعل بُورَةُ شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتخطف التركيز ، وتكون بُورَةُ الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بُورَةُ الشعور ؛ لذلك يقولون : هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن الذي يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصددّه ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذي لا يركز فإن حفظه يكون ببطء .

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغلبنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعلم وللامتحانات : هب أنك طالب في امتحان . وبعد ذلك فوق الجرس لتدخل مكان

الامتحان ، ثم جاء زميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، هنا تحطف أى كتاب وتقرأها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على الغداء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرأها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها من ذاكرها لمدة شهر ، لأنه ذاكرها وباله مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها .

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يحىء درس جديد ، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبقى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟ . لكن التلميذ المنتبه له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثير الانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يفاجئهم ، يقول مثلاً كم جملة ثم يقول للتلميذ : قم ، ماذا قلت الآن ؟ . فيجلس كل تلميذ وهو غرصة أن يسأل ، فيخاف أن يخرجه الأستاذ ، فينتبه للمدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك نحمد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتى بعدها بأحكام الأحكام التى إذا نفذوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والغاية المرغبة ، هنا يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا

وَإِذَا أَحْكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ
نِعَمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه : « أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هي : الأمانة العليا وهي الإيمان بالله ، والأمانة التي تتعلق بيني الجنس ، والأمانة التي على النفس لكل الأجناس .

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أنا أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة . فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين تطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(سورة الأحزاب)

فما هي الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان ، وعلة تحملها لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه أجناس ، أدناها الجهاد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوساط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجهاد والنبات والحيوان لا اختيار لأي منها في أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشيء ليؤديه ، ولا اختيار له في أن يتمتع عن الأداء .

الأرض والسموات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . وأشفت الأرض والسموات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الامانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الامانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خائنه نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الامانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا . فسلمت الأرض والسماوات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجع الاختيار بين البديلات قال : أنا أقبلها وإن فكرى سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الامانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون - والعياذ بالله - قد غربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون : أبعد عنا تحمل الامانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئاً ولكن الإنسان قبل تحمل الامانة ؛ لأنه « كان ظلوماً جهولاً » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالامانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف محصور في « افعل » و « لا تفعل » ، فإن شئت فعلت في « افعل » ، وإن شئت لم تفعل في « لا تفعل » . وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الامانة في هذا المعنى مقصورة على ما يطلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التي توجد بيننا ، والامانة كذلك هي ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ، لذلك فحين يعطى إنسان إنساناً شيئاً يصير الأخذ مؤمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذي أعطاه الله للناس أمانة . فهل الذى علمك علماً وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك : آت به لي ، كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

نقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يردده لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك في الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا في المال ، لكن في بقية الأشياء ؛ نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كي تؤديها إلى من لا يعلم ، فأمنك على قدرة وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له . . .

إذن فمن الذي أعطاك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذي أعطاهما لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه بمن خلق أو من مخلوق ، فأداهما والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهلكك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهلكك في المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولا بد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة مجتهد ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علماً . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله في خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدي كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، تذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحداً ، والأمانة في التكليف التي كلفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بالأسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أدبت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذي يحيط بك الأمانة التي عنده ، وهكذا تكون الأمانة هي : أداء حق في ذمتك لغيرك .

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت في عثمان ابن طلحة ابن أبي طلحة وكان سادن - خادماً - الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى على بن أبي طالب - رضى الله عنه - يده وأخذ منه وفتح ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزلت هذه الآية فأمر أن يردّه إلى عثمان - رضى الله عنه - ويعتذر له فقال عثمان لعل : أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة في أولاد عثمان أبداً .

وهذا ويقابل الأمانة شيء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتفاض ، والتفاض معنى : أن واحداً أنكر حق غيره . فلو أدى كل واحد منا ما في ذمته من حق لغيره لما وجد تفاض ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذ .

ولكن الحق الذى خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطى الحق الذى في ذمته لغيره ، ففضى سبحانه بشيء آخر اسمه « العدل » . ولو أن المسألة الأولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للغفلة التى تصيب البشر من الأغيار التى تطرأ على نفوسهم ، فشاء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فى الأولى لم يقل : إذا أتممتهم فأدوا ، لا . بل قال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فيما الذى يحمى هذه المسألة ؟ هنا يأق العدل وهو أن تقضى بحق فى ذمة غيرك لغيره ، أى ليس فى ذمتك أنت ، لأنك تحكمم كى ترجع مسألة وتضع الأمر فى نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون فى شيء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون فى أشياء فى ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لا بد أن تكون آية العدل عامة أيضاً .

إن قوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إن كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنت مُحَكِّمًا من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم في الأمور التي تتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ؛ فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل في أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - يرى غلامين يتحاكيان إلى ابنه الحسن ؛ ليحكم بينهما أى الخطين أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل ، فلا بد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام علي لابنه الحسن : يا بني انظر كيف تقضى ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة في دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفي مباريات كرة القدم نجد الحكم الذى يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيعترب عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ ثور عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقتم قانون الجدد في اللعب ، ثم تركتم الجدد بدون قانون ؟ وهذا ما يحدث . نحن ننقل قوانين الجدد إلى اللعب ، ونترك الجدد في بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اهتمنا بهذه كما اهتمنا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق في ذمة غير لغير حتى ولو كانت مباراة في اللعب ، ومادام الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما نزاعاً وخلافاً وتسابقاً فعليك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : « إن الله نعماً يعظكم به » و« نعماً » يعنى نعم ما يعظكم به الله ، أى لا يوجد أفضل من هذه العظة التي هي : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، فهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهى . وقال العلماء : إذا علم المجتمع أن عدلاً يجرس حقوق الناس عند الناس فلن يمرى ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد في ظلمه ، لكن ساعة

يرى الناس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه في أمره هذا لا حاجة له في أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، فهي أشياء لا تؤثر عنده في شيء ، إنما هي في مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض ، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الأمر بفائدة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الأمر قد يشكك في الأمر . لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمور هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو - سبحانه - واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهي نعمة من الله وأما ما عداها فبست العظة ؛ لأن الله لا يتنفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية : أنه قد يوجد غير لا يتنفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلانعمت العظة منه ، فقله : « إن الله نعيم » يعنى : نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلاحظ الأداء البياني في القرآن في قوله : « تؤدوا » هذه للجماعة ، وهذا يعنى أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فيكون كل واحد مطالباً بالحكم أيضاً ، كان مهمتكم الامانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين .

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » . يفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدى الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « أهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان للدنيا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، فربنا يرب ويبرى كل إنسان - مؤمناً كان أو كافراً - هو يوزق الجميع ولذلك أمر الكون : يا كون أعط من فعل الأسباب الغاية من

المسيبات إن كان مؤمناً أو كافراً . وهذا هو عطاء الربوبية ، إنه - سبحانه - رزق الإنسان وسخر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن والكافر ، فكذلك طلب منا أن نؤدى الأمانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولنا في الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن « طعمة ابن أبيرق » أحد بنى ظفر سرق درعاً^(١) من جاري له اسمه « قتادة بن النعمان » ، في جراب دقيق والاثنتان مسلمان ، إلا أن منافذ الحق لم ترتكب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها ، مثلما نقول : « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة في جراب كان فيه دقيق ، فجعل الدقيق يتثر من خرق في الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبا الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياح الدرع قال : سرق الدرع . سرق الدرع . فتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه . فتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا واقتضح وبرىء اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأنزل الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ

لِلظَّالِمِينَ خَصِيماً ۝ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۝ وَلَا

تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَحْتَمُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا

أَثِيماً ۝ ۝ ۝

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الظالمين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ، لأن الحق أولى من المسلم ، فهادام هو قبل

(١) الدرع : هو القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من الطعن بالسلاح .

أن يجنون فلا يجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التفاضي عن جريمة مسلم والصاقها
بيهودى ؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وافترض أن هذه برأتهم عند
الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول في آية أخرى :

﴿ هَآأَنَآم مَّتَّوَلَاؤُآ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْخَبْرَةِ الْآَنِبَا فَن يَجْدِلُ آَللهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة النساء)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »
لا بد أن تأخذه حل أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس
ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين
والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله نعماء يعظكم به إن الله كان سمعاً بصيراً » وحين ترون تذييل آية بصفتين
من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو
بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد
أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من
يقضى بين الناس أن يسوى بين الخصمين في لحظه ولفظه أى لا ينظر لواحد دون
الثانى ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فيسوى بين الاثنين ومادام سيسوى بين
الاثنين ، فلا بد أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أب طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنادى أمير المؤمنين عليا فقال : « قف يا أبا
الحسن » فبدأ الغضب على على رضى الله عنه ، فقال له عمر : « أكرهت أن نسوى
بينك وبين خصمك في مجلس القضاء ؟ فقال على رضى الله عنه : « لا . ولكنى
كرهت منك أن عظمتنى في الخطاب فناديتنى بكنتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى
ما صنعت معى »

إذن فحين يقول عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى : « آس بين الناس في
مجلسك ووجهك » (١) .

(١) من كتاب سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى بعد تكليفه بالقضاء .

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع
خصما على خصمه .

و « اللحظ » عمل العين . وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ،
أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً
على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما النظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه
ينظر بحنان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ،
وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة
قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً ليُبصر
أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أزلاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه .

إذن ففيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسماع ومبصر ، فأنت تكون سامعاً
إذا وجد بالفعل من يُسمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرك على
صفة يجب أن تترك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعاً
فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير .

واضرب المثل - والله المثل الأعلى ، وهو منزّه عن كل تشبيه - الشاعر الذى يقول
القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة
الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفار » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على
صفة تترك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو
« سميع بصير » أزلاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يبصر وينشأ منهم
ما يُسمع .

ويقول الحق بعد ذلك :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفي كل مناسبة من المناسبات جاء الكلام عنها ، ولكن علينا أيضاً أن نعيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحثيات المقدمة ، فانت عندما ترى حكماً من القاضي تجد أن هناك حثيات الحكم أي التبرير القانوني للعقوبة أو للبراءة ، فيقول القاضي : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا . هذه هي الحثيات . وه الحثيات « مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحثيات الحكم معناها : التبريرات التي تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا . لم يقل ذلك ، لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » . إذن فما دمت أنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعني مادمت قد آمنت بي .

إذن فحثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ، لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به . سبحانه - مكلفاً ، آمن به أمراً ، أما الذي لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلي ، ولذلك تجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حثية إطاعة الله وإطاعة الرسول هي : الإيمان به . هذه هي الحثية الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتدرك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً فإن اقتنعتم بها أخذتموها

وإن لم تقتنموا بها تركتموها ، لا . إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت في الحكم . بل عليك أن تقبل على تنفيذ أحكامه ؛ لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم . لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يجول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك : أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ؛ لأن كمالات حكمة الله لا تنتهى ، فقد تعرف جزءاً من الحكمة وغيرك يعرف جزءاً آخر ، ولذلك قالوا : إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شيء يسير جداً هو : أمر الله للبشر تسبقه العلة وهي أنك آمنت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أقنعني لماذا أفعل هذه ؟ ؛ لأن عقلك ليس أرقى من عقل . فأنت لا تصنع شيئاً إلا إذا اقتنعت به . وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تستمع له وأنه لن يفتك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ؛ فنحن نطيع الله لأننا آمنّا به وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصلاحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ؛ إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ؛ لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدك لاستبقاء حياتك بقيومته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئاً فهو يطلبه لصالحك ، كما نرى أى إنسان من البشر - والله المثل الأعلى - يعنى بصنعبته ويحب أن تكون صنعبته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهى بهذا الخلق . ويباهى بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبوبة لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا . وإلا فأنت - أيها الإنسان - قد تختار أن تكون عاصياً . وما دمت غيراً أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبة لأنه ؛ - كما نعرف - هناك فرق بين من يقهر بقدرته ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

فسأله قال الحق : « أطيعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟ . أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أمر الله خلقه منفردين ؟ . لا ، بل أمرهم كأفراد

وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقتة . وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ؛ إذن فلا بد أن يوجد مُبلِّغ . ولذلك فأننا أرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب عندما قالوا : إن العقل كاف فى إدراك الدين ، وأقول لهم : لا . العقل كاف فى إدراك من ندين له ، ولكن العقل لا يأتى لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا ، نقول لهؤلاء الفلاسفة : إن العقل كافى فى استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه القوة ، واسمها وماذا تريد ؛ فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلغ عن هذه القوة ، ولا بد أن تكون القوة التى أمنت بها بفطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ، ومطلوبه كذا ، إذن فقلوه : « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، « وأولى الأمر » هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : « أطيعوا أولى الأمر » لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأتى فى أساليب القرآن بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » ، « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، « وأطيعوا الرسول فقط . إذن فثلاثة أساليب فى الطاعة :

الاسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ؛ فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول .

والاسلوب الثانى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والاسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم . فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتؤكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا تكون الطاعة فى الأمر لله وللرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً ؛ فقد أطلعنا الله فى الإجمال وأطلعنا الرسول فى التفصيل فتكون الطاعة لله ، وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط . ويثبت ذلك بقول الحق :

﴿ مِنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَتَىكَ الرَّسُولُ فَأُخِذْهُ وَمَا نَهَكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ في التشريع :
ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالاً ، والرسول عين
تفصيلاً . والأمثلة على ذلك : أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا
الزكاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ، والرسول يوضحها : النصاب كذا ، والسهم
كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا في الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول في الأمر التفصيل . أو
أن الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله ، ولذلك
فإن قال لك أى إنسان عن أى حكم من الأحكام : هات دليلاً من القرآن ولم نجد
دليلاً من القرآن فقل له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وَمَا أَتَىكَ الرَّسُولُ فَأُخِذْهُ وَمَا نَهَكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفى صدر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد يقول
قائل : هناك فارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرض . نقول : لا تخلط بين السنة
وهى الأمر الذى إن فعلته تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرض الذى يجب على
المكلف أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك ، وهذا الفرض جاء به الحق
وأثبت بالدليل كالصلوات الخمس وعدد الركعات في كل صلاة ، فالدليل في الفرض
هنا ثبت بالسنة وهذا ما يسمى سنة الدليل ، وهناك فرق بين سنة الحكم كأن يصلى
المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح
والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشيء الذى إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب
عليه والشيء الذى يفرض عليك أدائه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سنة
الدليل فهي شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً لاتباعه المسلمون .

أما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالمعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة ولي الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفي ذلك عصمة للمجتمع الإيمان من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : « وأولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : ألسنتي ولي أمر ؟ فيرد العلماء : نعم أنت ولي أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر بالطاعة ، فدل ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين . فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هي « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبد الملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن نفطن أيضاً إلى أنها نزعته في قوله سبحانه : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » . إذن فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » إذن فالتنازع لا بد من أن يكون في قضية داخلية في نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون مردّ ينهي هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله في هذه المسألة ، إذن فإن أريد بـ « أولى الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أي على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة في ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك يريد أن ينهي مسألة التنازع « لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مردّ أعلى ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِيَ الَّذِينَ يَسْتَفِطُونَ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر « العلماء » .

نقول : إن الآية الأولى عامة وهي التي جاءت بها طاعة ولي الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التي تخص الاستنباط يكون المقصود بأولي الأمر هم العلماء .

و أولوا الأمر في القضية الأولى التي عندما نتنازع معهم في أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهي تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذي لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل في دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر - ابتداءً في تلقى الحكم ، وإيماناً باليوم الآخر - لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء .

وينبها الحق في ختام الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أي في ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن قدرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأت منها الشر .

والتأويل هو : أن ترجع الأمر إلى حكمه الحقيقي ، من « آل » يتول إذا رجع . « وأحسن تأويلاً » تعني أحسن مرجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك . إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو « وأحسن تأويلاً » في الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك عن الله بمنحك من الشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير في كل أحيانه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدي له ما في هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذي لا يأتي بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد آمنوا على انتقادهم في حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع ممن حكم قبله . فالذي حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتب الأقلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائي ، فمن استطاع أن يحصى نفسه في حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحصى تاريخه وسمعته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا في الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ؛ فإذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟

« ذلك خير وأحسن تأويلاً ، أى مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ٦٠

نعرف أن « ألم تر » تعني : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، ونعرف أن الحق عبر به « ألم تر » في كثير من القضايا التي لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدلنا على أن ما يقوله الله - وإن كان خبراً عما مضى - يجب أن تؤمن به إيمانك بالمرئى لك الآن ، لأن الله أوثق في الصدق من عينك ؛ فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ود الزعم : مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك »

وهو القرآن ، « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل وه يريدون « بعد ادعاء الإيمان ، « أن يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو : الاستغاثة أو اللجوء إلى ذلك الشيء لينهى قضية الخلاف . فعندما نقول : « تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أننا سئمنا من آثار الخلاف من شحناه وبغضائه ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم . ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التعب كلا منهما .

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » . وه الطاغوت « - كما عرفنا - هو الشخص الذى تزيده الطاعة طغياناً ، فهناك طاغ أى ظالم ، ولما رأى الناس تحافه استمروا واستساع الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة فى الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتدى الكثير الطغيان سواء أكان أناساً يعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذى يغرى الناس ، أم كان حاكماً جباراً يخاف الناس شره ، وأى مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً . وقالوا : لفظ الطاغوت يستوى فيه الواحد والمتنوع والجمع فنقول : رجل طاغوت ، ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، يأتى للجمع كقوله الحق :

﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

ويأتى للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن فمرة يأتى للجمع ومرة يأتى للمفرد ، وفى كل حكم قرآنى قد نجد سبباً

مخصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعدى إلى غيرها ، هو يُعدى إلى غيرها إذا اشترك معها في الأسباب والظروف ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية في قضية منافق اسمه « بشر » . حدثت خلاف بينه وبين يهودي ، وأراد اليهودي أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودي واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبي حباً فيه ، بل حباً في عدله ، ولذلك آثر من يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذي يعلن إسلامه ويطن ويخفى كفره فهو الذي قال : نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه نعطينا حيشة لصدق رسول الله في البلاغ عن الله في قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودي يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته في أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبراء اليهود مثل « كعب بن الأشرف » لأنه يعرف أنه يرتشى .

ويختم الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهما حين يتحاكمان إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يقضى لمن ليس له حق ، سيغرى مثل هذا الحكم كل من له رغبة في الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سينسلسل ، فيكون على القاضي غير العادل وزر كل قضية يُحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون عمداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى

الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفَقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُّودًا ﴿٦١﴾

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعنى نداء بمعنى : اقبلوا ، ولكن كلمة « اقبلوا » تعنى الإقبال على المساوى لك ، أما كلمة « تعالوا » فهى تعنى الإقبال على الأعلى . فكان لقضايا البشر تشريعاً هابطاً ، لأنه من صناعة العقل البشرى ، وصناعة العقل البشرى فى قوانين صيانة المجتمعات - على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم - تكون على قدر مستوياتهم فى الاستنباط واستفراء الأحداث .

لكن التشريع حينما يأتى من الله يكون عالياً ، لأنه - سبحانه - لا تغيب عنه جزئية مهما صغرت ، لكن التقنين البشرى يوضع لحالة راهنة وثائق أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للمجديد ، وهذا ناشئ من أن أحداثاً جددت لم تكن فى بال من قنن لصيانة المجتمع ، وكان ذهن مشرع القانون الوضعى قاصراً عنها ، كما أن تعديل أى قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة فى المجتمع ، تلك الآثار التى نشأت من قانونه الأول ، وضغطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعدّلوا فى الأحكام والقوانين .

أما تشريع الله فهو يحمى المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين تشريع وضعى بشرى جاء لينقذنا من الأحداث ، وتشريع ربانى إلهى يقينا من تلك الأحداث . فالتشريع البشرى كمثل الطب العلاجى . أما التشريع السماوى فهو كالطب الوقائى ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بالتشريعات التى تقينا ونحمينا من شرّ الأحداث ، أى أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ، وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من البشر عن أن تعضهم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعى ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وضعوها من قبل ،

ففى القانون الوضعى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل قوانينهم ، وإلى أن يتم التقنين يقع البشر فى دائرة الغبن وعدم الحصول على العدل . أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنعته وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يغبن أحداً على حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته الساوية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

« شفاء » إذا وجد الداء من غفلة تطرأ علينا ، « ورحة » وذلك حتى لا يأتى الداء . الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » . إنه - سبحانه - يضع من الأحداث ما يفضحهم فيتصرفون بما يكشف نفاقهم ، وبعد ذلك يخطرهم الرسول ويعرف عنهم المجتمع أنهم منافقون .

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يُعرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل منافق عنده قضيتان : قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله ، وفى القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر ملكاته !! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ، الكافر منطقى مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما فى القلب ، وعداوته للإسلام واضحة . أما المنافق فيقول : يا لسان .. أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كى أنفذ من هذا الإعلان إلى أغراضى وأن تطبق على أحكام الإسلام فانتفع بأحكام الإسلام ، وأنا من صميم نفسى إن وجدت فرصة ضد الإسلام فسأنتهزها . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يُسَمَّا

قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ بِخِلْفُونَ بِاللّهِ إِنَّ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : لماذا ذهبتم للطاغوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟ فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصلك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ؛ وهم يقولون هذا بعد أن انفضحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هي الأمر يطرأ على الإنسان بما يضره في عرفه ؛ ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة . على الرغم من أن الحادثة في واقعها ليست مصيبة . فعندما نعرف المنافقين ونظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فنحن نكفي أنفسنا شرهم . وهم يريدون بالنفاق أموراً لأنفسهم .

وهكذا يكون الكشف لنفاقهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يرون النفاق نفعاً لهم ؛ فبه يستفيدون من أحكام الإسلام وإجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح نفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل الذي ذهب ليسرق ، ثم فوجيء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه ، وهذا في الواقع نعمة لأنها تضرب على أيدي المجرم العايب ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث هؤلاء المنافقين مصيبة فهم يخلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم .. ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يخلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون .

فيقول سبحانه :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾

وناهيك بعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بَلِّغْهُمْ بِلِسَانِكَ وَلْتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعنى : نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقنا لك ودلناك عليهم حتى تعرفهم بأعينهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنهم من فحوى كلامهم واسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد ذهبوا إلى هناك لعلهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبحكم بالحق ، والحق يضارهم ويضايقهم ، فهل كانوا بالفعل يريدون إحسانا وتوفيقاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟ . لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك باتى الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » ؛ لأنك إن عاقبتهم فقد أخذت منهم حقتك ، والله يريد أن يبقى حقتك ليقص - سبحانه - لك منهم ، وأعرض أيضاً عنهم لأننا نريد أن يظهر منهم في كل فترة شيئاً لنعلم المجتمع الإيمانى اليقظة إلى أن هناك أناساً مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر . كما أنك إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أى قل لهم : استحووا من أفعالكم . « وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » أى قل لهم قولاً يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ الغاية من الوعظ ، أى

يوعدهم الوعيد الذي يخيفهم كي يبلغ من أنفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم في أنفسهم ، أى افصح لهم ما يسترون ؛ كي يعرفوا أن الله مطلعك على ما في أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفضحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فضحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئاً من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الواعظ في خلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يفضحه ، فافصح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه غريزة العناد ، لكن عندما تعظه في السرّ يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولا تزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم في أنفسهم » وإثك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسوة لغيرك أن يفعل . والله قد أطلعك على ما في قلوب هؤلاء من الكفر أما غيرك فلا يطلع الله على غيب ولو رمى أحداً بذنوب أو كفر فلعله لا يصادف الحق والواقع وتشرعنا يقول لنا : « احذروا الحدود بالشبهات » .

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض على سارق ، لكن هناك شبهة في الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر في صالح المتهم ، ونдрأ الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن نقول كل يوم : إننا قطعنا يد سارق أو رجماً زانية . لكن إذا افتضحت الجرائم وليس في ارتكابها شبهة والمسألة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدي المجرمين . فنحن ندرأ الحد بالشبهة حتى لا نلحق ضرراً أو ننال من برىء ، ونطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرماً حتى لا يرتكب الأمر للمحرّم . وعندما يقام الحد في أى بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانياً .

إذن فقول الله : « وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » ، يعنى : قل لهم ما يهددهم تهديداً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو « قل لهم في أنفسهم ، بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم في أنفسهم بينك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يوغر صدورهم ويثير فيهم غريزة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ
 اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ
 فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
 لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾

الغرض من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل في المنهج ، وأن يهديهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هي : افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة فالإنسان حر في اختيار ما يلائمه . وأى رسول لا يأتي بتكليفات من ذاته ، بل إن التكليفات نحيء بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفوض من الله في أمور أخرى ، وقد فوض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَا تَسْكُرُ الرَّسُولُ فَعُذُّهُ وَمَا نَهَكَرُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم - إذن - عليهم طاعة الرسول في إطار ما فوضه الله والله أذن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . وظلم النفس : أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أشقى أنواع الظلم ، فمن المعقول أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأى عاصٍ يترك واجباً تكليفاً ويقبل على أمرٍ منهى عنه ، قد يظن في ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظليماً قاسياً ؛ فالذي يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أى معصية نقول له : أنت ظلمت نفسك ؛ لأنك ظننت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورتها

شقاء أعنف وأبقى وأخلد ، ولست أميناً على نفسك .

والنفس - كما نعلم - تطلق على اجتماع الروح بالمادة ، وهذا الاجتماع هو ما يعطى النفس الإنسانية صفة الاطمئنان أو صفة الامارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتى الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية . والروح قبلها تتصل بالمادة هي خيرة بطبيعتها ، والمادة قبلها تتصل بالروح خيرة بطبيعتها ؛ فالمادة مقهورة لإرادة قاهرها وتفعل كل ما يطلبه منها . فإياك أن تقول : الحياة المادية والحياة الروحية ، وهذه كذا وكذا . لا .

إن المادة على إطلاقها خيرة ، طائفة ، مُسَخَّرَةٌ ، عابدة ، مُسَبَّحَةٌ . والروح على إطلاقها كذلك ، فمضى بآى الفساد ؟ ساعة تلتقى الروح بالمادة ويوجد هذا التفاعل نقول : أنت يا مكلف ستطمنن إلى حكم الله وتنتهى المسألة أم ستبقى نفسك لوامة أم ستستمرى المعصية وتكون نفسك أماراة بالسوء ؟

فَمَنْ يَظْلِمُ مَنْ إِذْنٌ ؟ . إنه هواك فى المخالفة الذى يظلم مجموع النفس من روحها ومادتها ، فأنت فى ظاهر الأمر تحقق شهوة لنفسك بالمخالفة ، لكن فى واقع الأمر أنك تتعب نفسك ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يأتى الفاحشة إنسان ليحقق لنفسه شهوة . وأن يظلم نفسه ، فالحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

إذن فارتكاب الفاحشة شيء وظلم النفس شيء آخر ، « فعل فاحشة » قد متع إنسان نفسه قليلاً ، لكن من ظلم نفسه لم يفعل ذلك . فهو لم يتمتعها ولم يتركها على حالها ، إذن فقد ظلم نفسه ، لا أعطاها شهوة فى الدنيا ، ولم يرحمها من عذاب الآخرة ، فمثلاً شاهد الزور الذى يشهد ليأخذ واحداً حق آخر ، هذا ظلم قاسٍ للنفس . ولذلك قال الرسول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح

الرجل مؤمناً وعسى كافراً ، أو عسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا» (١) .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيحكم لنا أم لا ، وقد يهديه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالمسألة أنهم امتنعوا من المجيء إليك يا رسول الله ، فقول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ، لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للبرسبل ، فصحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا سعدته تجده متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن قلوا : يجهلون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً : يستغفر لهم الرسول .

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن فوجدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يستغفروا الله ، لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تختلف معه لا تقل : إنني اختلفت مع الرسول ، لا . إنك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله عليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فلن يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجيء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « تَوَاب » مبالغة في التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتي في خواطرهم وفي نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ في بعض الأوقات فتتغلب على بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بين لنا ما يحصر كل هذه الغفلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أرتبه الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا . إنه سبحانه شرع له العودة إليه ؛ لأن الله يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه وإن غفل بمصيبته .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصي ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فإلاج من هذه أن يجيئك لأنهم غفلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قبل الحق في التشريع وفي الحكم ، وبعد المجيء يستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم الله ، حينئذ يجدون الله تواباً رحيماً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ٦٥

إذن لا بد أن نستقبل الإيمان بالإقبال على كل ما جاء به رسول الله ، فساعة حكم المنافقون غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ونلاحظ في قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه - سبحانه - أقسم بقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ونعلم أن المنافقين قد ذهبوا فحكموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ وتلك قضية يحكم الحق فيها

فيقول : لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ « لا » النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضى بينهم إذا حدث هذا . فحكمنا في القضية هو : لا يكون لهم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال : « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »
وتنحن الخلق لا نقسم إلا بالله ، لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ،
يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾

(سورة الطور)

ويقسم بالذاريات :

﴿ وَالذَّارِيْنَ ذَرَوْا ١ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هي الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَالنَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ١ ﴾

(سورة التين)

ويقسم بالملائكة :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ١ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجد أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَنَكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٦ ﴾

(سورة الحجر)

« لعمرك » يعنى : وحياتك يا محمد إنهم فى سكرتهم يعمهون ، أى هم فى غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يبتدون إلى الحق . وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الذاريات)

وساعة يقول : « فرب السماء والأرض » . فلا بد أن يأتى بربوبيته لخلق عظيم نراه نحن ، ولذلك قال :

﴿ نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

يعنى إذا فكرت أيها الإنسان فى خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق الناس .

وفى الآية التى نحن بصدد خواتمها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمداً قد دخل فى الناس ، إنه سبحانه يوضح : لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض ، « ف وربك لنستلهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الرب له قدرة عظيمة هائلة ، فهو يخلق ويرى ، ويتعهد ويؤدب .

إن خلق السماوات والأرض يكفى فيها الخلق وناموس الكون والتسخير . لكن عندما يخلق محمداً فلا يريد الخلق والإيجاد فقط ، بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة فيقول له : ف وربك الذى خلقتك ، والذى سواك ، والذى ربك ، والذى أمك لأن تكون خير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، يقسم بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد ما يدخل سبحانه فينا هذه المهابة بالقسم برب رسول الله نقول : لا نحكم محمداً ومنهجه فى حياتنا ؟

إذن فقله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وحكم كل مادتها مثل « الحكم » و« التحكيم » و« الحكمة » و« التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحكمة وهي حديد اللجام الذي يوضع في فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يشرد ، ويتحكم فيه يمينا ويساراً ، فكذلك « الحكمة » تعوق كل واحد عن شروده في أخذ حق غيره ، فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توسى بأن تفع الشيء في موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مادة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذي تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتشابهك ، كما ترى مثلاً شجراً متشابكاً في بعضه ، وتداخلت الأفرع مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذا ما أثمرتا وكانتا من نوع واحد لا تقدر أن تقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أي أن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أي قام نزاع واختلاط في أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعينك إن كنت جاني الثمرة أن تكون هذه الثمرة التي قطفتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعينك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعينك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوي ، لكن إذا أردت ورقة شجرة من نوع معين فانتقيها لأنني أريدها لأمر خاص .

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن اختلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشح ، فتنازعوا ، ولذلك فالقاضي الذكي يقول للمتخاصمين : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فيفزعان ويقولان : أملاك خير من العدل ؟ يقول : نعم إنه الفضل ، فإدامت المسألة أخوة واحدة ، والخير عندك كالخير عندي فلا نزاع ، أما إذا حدث الشجار فلا بد من الفصل .

ومن الذي يفصل ؟ إنه سيدنا رسول الله بحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . . فالإيمان ليس قولة يقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فإن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تُحكم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا أمر إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهي ليست كلمة تقولها فقط وإنما تنتهي الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفر منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بد أن يحكموك برضا في التحكيم ، « ثم لا يجلدوا في أنفسهم حرجاً » أى ضيقاً « مما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تضيقوا به « وسلموا تسلياً » أى بذهاباً إذهاباً .

إذن فالإيمان لا يتمثل في قول يقال وإنما في توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه في العمليات الحركية في الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية اختار الحق لها أعنف ساعات الحرج في النفس البشرية وهي ساعة الخصومة التي تولد اللد والميل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجلدوا في أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجلد حرجاً ولا يتكلم .

وانظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هي الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هي الثالثة ، هذه محصات الذنوب ، والذي يدخلك في حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هي الأولى ، « ثم لا يجلدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت » هذه هي الثانية ، « وسلموا تسلياً » هذه هي الثالثة . إذن فالقولان في رسول الله صلى الله عليه وسلم : دخول في حظيرة إيمان ، وخروج من غل ذنب .

وهنا وقفة لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلتي أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » ذلك يلرب تمحيص من عاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين المحصن الذي يقابل هذا لمن لم يعاصر
حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد
محصن لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا
التمحيص ؟

هذه مسألة ظلت في ذهني ولا أجد لها جواباً ، إلا أني قلت : لقد ثبت عندي
وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مطمئنا للمؤمنين في كافة
المعصور :

(حيان خير لكم يُخْبِرُونُ وَيُحَدِّثُ لَكُمْ فإذا أنا مت كانت وفاء خيراً لكم تُعرض
عن أعمالكم فإن رأيت خيراً حدث الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم)^(١) .

انظر إلى التطمين في قوله صلى الله عليه وسلم :

(تعرض عن أعمالكم فإن رأيت خيراً حدث الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت
لكم)^(٢) .

فاستغفار الرسول لنا موجود . إذن فما بقي منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقي إلا
« جاموك » أي يجهلون لستك ولما تركت منها فصلي الله عليه وسلم هو الفاتل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ
الحوض)^(٣) .

فكم كان الأحياء يجهلونه ، فمنع نجيء إلى حكمه وسنته وتشريعده ، وهو يستغفر
لنا جميعاً ، إذن فهذه متهمية ، فبقي أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذي
لا إله إلا هو الحَيُّ الْقَيُّومُ ونُتُوبُ إِلَيْهِ ... نفعل ذلك إن شاء الله .

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلًا وروى السوطي له بالحسن .

(٢) رواه ابن سعد .

(٣) رواه الحاكم عن أبي هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً » أى لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأى حكم تكليفى أو حكم قضائى ، والحكم التكليفى نعرفه فى : افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائى فهو عندما يتنازع اثنان فى شىء وهذا يقتضى أن نقبل الحكم فى النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منجه . إذن فلا بد أن نسلم تسلياً فى الاثنين : فى الحكم التكليفى ، وفى الحكم القضائى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ
أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ
أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ
تَنبِيْثًا ﴾

وهنا يساوى الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعى ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسرى بقوة قسرية خارج الأرض التى يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قرينة لعملية الإخراج من الديار ، فساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكيمين اللذين سبقا فى قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ - يَنْقُرُوا بِأَنْفُسِكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الصَّجَلِ قُورُبًا إِلَى
بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقال : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا في التيه . يقول سبحانه وتعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَيَهُونَ فِي الْأَرْضِ

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

أى لا يدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا يوضح : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التي كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التي رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يضيئها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ، كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه بين لهم : لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

لقد استجاب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمه اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبى بلتعة » كانا في المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الحيطان » أى : البساتين ، لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فيبنون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها عصف السيل ويحدد الحيازة فيها ، فكان لحاطب بن أبى بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتى أولاً من عند

أرض الزبير ثم يتزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تنزل متفرقة في مكان ثم يتجمع الماء في جدول صغير يسمونه « شراج » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة ، فأرض الزبير تعلق أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه أولاً ثم يروى الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة ، فمن الناس من يحكم بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل ، فقد يتخاصم ابنه مع واحد آخر والحق مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ، فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتنازل عن حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً . فالشجاعة هي أن تحكم بالحق ، وهناك شجاعة أقوى وهي أن تحكم بالحق وإن كان على نفسك ، لأن الحق أهن من نفسك .

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخاري في صحيحه بسنده قال : « حدثنا أبو اليان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بذراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة كان يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسقي يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصاري ، فقال : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى فيه سعة له وللأنصاري ، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه في صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » (١) .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى زرعه ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

(١) رواه البخاري في الصلح ومسلم في الفضائل ، والترمذي في الأحكام والنسائي في القضاة وابن ماجه في المقدمة .

حاطب بن أبى بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمك ، والعرب يقول الكلمة ويترك
لنباهة السامع أن يستنبط الباقي ، وكأنه يعنى : حكمت له لأنه ابن عمك . ولوى
شدقيه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة علمه أن ابن أبى بلتعة لم
يقدر عدالة الحق والحكم . . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام
يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما غضب
حاطب بن أبى بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقتك ، وخذ من الماء ما يكفيك
ثم أرسله لجارك ، فقالوا : لماذا حكم أولاً بأن يسقى ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل
في الحكم ؟

الناس لم تفهم أن أرض الزبير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وأنتم إذا
نظرتهم إلى أى وادٍ ، تجدون الحضرة والخصب في بطن الوادى وليس في السفح ، لأن
الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض
أولاً وأعطيته لا يصيب العالى شيء .

إذن فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير والفضل من الزبير ، والحكم الثانى جاء
مبنياً على العدل ، ورسول الله بالحكم الثانى - وهو أن يستوفى الزبير حقه ويأخذ من
الماء ما يكفيه - كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا نجاملك ، فقال الحق سبحانه
وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فعلنا بهم مثلما فعل الرسول من الأمم السابقة ؟
عندما أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم ، هذا الحكم لم ينفذه إلا عدد قليل
منهم وهم الثابتون في الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يخل الأمة من ممثلين ملتزمين
يؤدون أمر الله كما يجب .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به » ولو فرضنا أن الله قال : اقتلوا أنفسكم أو
اخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا في ذلك الخير عما كان في بالهم ، لأن
الناس يجب أن تفعّل إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بالله ؟ وما غاية
هذا الإيمان ؟

أنت في دنياك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فما الذي يحزنك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب ونحيا دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحن في حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاي ، ويدق الجرس فتأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء ببال الإنسان وجد الشيء أمامه ، فلا يدق جرساً ولا يجهد نفسه ، فبالله الذي يعيش في الأسباب ثم نريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تحزنه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيراً أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الدنيا عمرها بالنسبة لك مظلون ، ومحدود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرك ولا بإمكاناتك بل تعيش زمناً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً ، . . وهذا خير أشدّ تثبيتاً لغيرهم ، لأن من يروهم ينقلون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم . إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذي لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيراً لهم في دنياهم وأخراهم وأقوى وأشدّ تثبيتاً واستقراراً للإيمان في قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .

﴿ وَإِذَا لَا تَيْتَنَّهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ١٧ ﴿

فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذا لا تيتناهم من لدنا أجراً عظيماً ، وساعة نسمع

« من لدنا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق . بل من تفضل الخالق . فالحق سبحانه وتعالى يرسل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يوضح أن بعضاً من الناس منحهم عطاءً وأعطاهم من لدنه علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (١٥)

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يعلّمه موسى ، وعطاء الله للعلم خاضع لشئيته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً يأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكن هناك أعمال حسنتها من غير حساب ويجازى عليها الحق بفضله هو . واضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نحن نجد ذلك متمثلاً لنا فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابنك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟ فيقول لك : مائة جنيه . فتقول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خمسون من عندى أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر العمل .

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقاً بين القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت : إذهاب للحياة بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل : إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصة توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بل إن البنية هدمت أولاً . فلم تعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن رميت عليه حجراً صغيراً ، ينكسر وينطفىء النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جثت هذه المواصفات الخاصة وسيدها المخ ، وضربته ضربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصداق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَمَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْفَلَيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

أى أن هناك امرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقض البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حتف أنفه . أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شئ .

والذى يُقتل فى الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقاتل فى سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالاً لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو . وما الميزة فى سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : أنا ساميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : اذبحه أنت . وهذه هى ارتقاء قتل النفس ، فيفدى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أعلى . ولو أنهم فعلوا ما يوعدون به لكان خيراً لهم وأشدّ مسيئاً . وإذا لايتناهم من لدنا أجراً عظيماً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾

ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقله : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذي قُتل أم لمن خُرج ؟ هو قول لمن أخرج من دياره لأنه مازال على قيد الحياة .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾

والفعل هنا : « يطع » والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة . . أى ليس لكل واحد منها أمر ، بل هو أمر واحد . قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ؛ ولذلك يقول الحق في الفعل الواحد :

﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَٰئِكَ يَنْتَظَرُونَ ﴾ وَمَا نَقْمُوا إِلَّا لَأَنَّا أَغْنَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ ﴿٦٧﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

فما أغناهم الله غنى يناسبه وأغناهم الرسول غنى يناسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى هنا من الله ورسوله ؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتنالاً لأمره ، فتكون المسألة واحدة .

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهي قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، يأتي فيجلس حيث ينتهي به المجلس ، فالذي يريد النبي دائماً يستمر في جلوسه ، والذي يريد أن يراه كل فترة يأتي كلما أراد ذلك. وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه يوماً ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وحُرف الحزن في وجهه ، فسأله النبي قائلاً : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بي مرض ولا علة ، ولكني أحبك واشتاق إليك ، وقد علمت أني في الدنيا أراك وقتها أريد ، لكنك في الآخرة ستذهب أنت في عليين مع النبيين ، وإن دخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً .

ونص الحديث كما رواه ابن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو محزون - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالي أراك محزوناً ؟ » فقال : يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال : « ماهو ؟ » قال : نحن نغزو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك » وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » . . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليه بغيره^(١) .

وكيف تأق هذه على البال ؟ إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفكر : هل ستدوم له هذه النعمة ؟ وتفكر في الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبي صلى الله عليه وسلم لن تنتهي ولن تزول منه ، إنه يراه في الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث في الآخرة : فإذا أن يدخل الجنة أو لا يدخلها ، إن لم يدخل الجنة قلن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبي في مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحق سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذي شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينا هؤلاء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك » أي المطيعون

الله والرسول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحيين لرسول الله ، فأنت مع من أحببت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان . لقد كان كلام ثوبان سبباً في الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين . وهي أصناف تستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصديق صديق لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل : أى هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدعى أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق .

لم يعطل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصديق الحق ، فكلما قال محمد شيئاً صدقه أبو بكر ، وأبو بكر - رضوان الله عليه - لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إني رسول . قال أبو بكر : نعم . إذن فهو صديق .

لقد كانت هناك تهديدات لأناس سَبَقُوا إلى الإسلام ؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبى عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه « فلما تحدث بالرسالة ، صدقوه على الفور ؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا خديجة - رضوان الله عليها - ماذا قالت عندما قال لها النبى : إنه يأتينى كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رِيئاً ومُسا من الجن بصيبي .

فكانت خديجة : « كلا والله ما يُخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » (١) . وهذا أول استنباط فقهى في الإسلام .

هذا هو معنى « مع النبيين والصديقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا في سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل الله ألا يقول : أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقى بنفسه إلى التهلكة ، إياك أن تفهمها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوك بدون أنك تمكث من أن يقتلك ؛ لأن تمكثه من قتلك ، يفقد المسلمين

مقاتلاً . فكما أن الشهداء لهم فضل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل .
فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يشتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين ؟ إذن
فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك
كانت « التوبة » وهي أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالى الكفار ظاهراً وقلبه مطمئن
بالعداوة لهم انتظاراً لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كي يدافع ويجاهد في سبيل
الله . وصيبتها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قتل في سبيل
الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يثبت الشهيد . ولذلك فالحق سبحانه
وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ
يسمعوها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول : هبى يارباح الجنة ، ويقول
كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد
وهو الذى قتل في سبيل الله ، وإما هو جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين
يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعانى كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى
الاثنين : من يقتل في سبيل الله ، ومن يبقى بدون قتل في سبيل الله ؛ لأن الأول
يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثاني يعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد
أيضاً :

﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

و« الصالحين » والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في
الأرض . فكل شيء يؤدي تفعلاً بتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق
النافع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير في
الوديان ، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها
ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك
النعمة فيبنى حولها كي يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصليح بأن زاد في صلاحه .

وهناك ثالث يقول : بدلاً من أن يأتى الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء فى القرب أو على رؤوس الحاملين ، لماذا لا أستخدم العقل البشرى فى الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس فى أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد . ومن فعل ذلك يسر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح فى ذاته فزاده صلاحاً .

ويختتم الحق الآية بقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » . وهـ أولئك « تعنى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائماً فى الإقامة وفى السفر ، ولذلك يقولون : خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تتعرض فى الطريق لمناعب وعراقيل ؛ لأنك خرجت عن رتبة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق . ونعرف أن الأصل فى المسائل المعنوية : كلها منقولة من الحسيات ، وفى يد الإنسان يوجد المرفق .. يقول الحق :

﴿ فَأَغْلُوا أَوْجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه متعباً يتكىء على مرفقه ليستريح ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكىء على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق وهـ المرافق « مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وترجمه ، وفى كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه ، وفى الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التى تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماله فى زاوية من الحجرة ، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة . أى يكون فى المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لقضاء الحاجة ، وحظيرة مستقلة للمواشى ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن فقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » مأخوذة من الرفق وهو : إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذى أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وقد يقول قائل : كيف يجتمع كل هؤلاء في منزلة واحدة ؟ عل الرغم من اختلاف أعمالهم في الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

(سورة النجم)

ونقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هي من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه ، ويصبح من حقه أن يكون في معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وقد تكون الصحبة تكريماً لهم جميعاً ليأمنوا بالصحبة ، وهذه المسألة مستشرح لنا قوله :

﴿ وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْبٍ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزله في الآخرة أعلى من آخر ، إياك أن تظن أنه سيقول : منزلتي أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب في الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه لله يجب كل من سمع كلام ربنا في الدنيا فيقول لكل عب لله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أهل منه .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يحب أن ينجح فقط ، وبعضهم يحب العلم لذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أبكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون : هذا هو الأول علينا ؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين ، فكذاك المؤمن الذي يكون في منزلة بالجنة ويرى غيره في منزلة أهل ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حبه لربه وتقديره له يجب من كان طائعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذي ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا نجد أن الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها لا تخدش قول الحق : « وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وهناك بحث آخر في قوله الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .
فهذا اللام « تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندى إلا كذا » أى أن هذا
حقك ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أى هو حق للمؤمن وقد حددت
العدل في الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

عَلِيمًا ۝ ٧٠ ﴾

فالفضل من الله يستمد حشيتة من سعى الإنسان ، فقوله : « وأن ليس للإنسان
إلا ما سعى » حددت الحق الذى لك والذى توجبه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم
يقُل : إن هذا العطاء لله من الحق والعدل . بل هو من الفضل ، والفضل من الله
هو منافع فرح المؤمن ، لأنك مهما عملت في التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ،
ولذلك أوضح سبحانه لنا : تنبهوا . . أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون ، لكن
لا تفرحوا بما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم
ربكم من فضله قال سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ ٧١ ﴾

(سورة هونس)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يحىء « ثوبان » أو من دون
« ثوبان » ويكون في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول :
لولم تكن منزلته أدنى لما كان في ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته
لله ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله
له - وما توفيقى إلا بالله - والفضل هو منافع فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله
وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكفى بعلم الله ، لأنه سبحانه يرتب
أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبي وصدق الودادة ،

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه في المنزلة .

وبعد أن آمن الحق لنا داخلية ووطننا الإيمان ، ونجمعنا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن تؤدى الأمانات . وإذا أدينا الأمانات فلن نحتاج إلى أن نتقاضى ، فإذا غفل بعضنا ولم يؤد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهاتى مجتمعنا إيماناً واحداً يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى : حق لغيرك فى ذمتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالنسبة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعاً ، وإذا حدثت غفلة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكماً ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله وللرسول ، ولإياك أن تتحاكم إلى الطواغوت . وكان « كعب بن الأشرف » يمثل الطواغوت سابقاً ، والآن أيضاً يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هناك طواغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى فأعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف تستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منهج تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقامت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المنهج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شيء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طمأننا على المصير الآخرى مع النبيين والصديقين والشهداء أوضح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة خير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ، لأن النفس البشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تهمل مرة بمعضية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون منعته ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه . لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا عيب » . وهذا يعنى أن البيئة مازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد دخلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

إذن فقد فسدت مناعة الذات ، ولا توجد مناعة في المجتمع ، فتدخل - إذن - السماء . لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً في ذوات أفرادها . فإن لم تكن في ذوات الأفراد ففي المجموع ، فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمان من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتي رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو كانت ستحدث طامة وفسد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . . . لكان ولا يد أن يأتي رسول ، لكن محمداً كان خاتم النبيين لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وازعها دائماً إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لؤامة ، وأما مناعة في المجتمع وكل واحد فيه يوصي ، وكل واحد يوصي ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفسى لأخرج عن المنهج مرة ؛ فواحد آخر ينهاي ، وأنا أرد لها وأهديه وأرشده إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فأنا أقول له وأنها . إذن فقوله : « وتواصوا » يعني : ليكون كل واحد منكم موصياً وموصى . فكلنا ينظر بعضهم ويلاحظه ؛ من ضعف في شيء يجد من يقومه ، فلا ينعدم أن يوجد في الأمة المحمدية موصي بالخير وموصى أيضاً بالخير ، وتوجد في النفس الواحدة أنه موصي في موقف وموصى في موقف آخر ؛ بحيث لا يتأثر إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصي بالأمس ، وكما قالوا : « رحم الله امرأً هدى إلى هوى » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أنتم آخر الأمم . فهو سبحانه يطمئتنا على أن الشر لا يطم عندنا ويستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم فسيلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان في كل

نصرفاته ، فسيلزم في البعض ويترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج قويم لصار العالم متعبا . وكيف يتعب العالم ؟ إن العالم يتعب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذي استخلفنا في الأرض . فتطفي مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم في كل إنسان هواه .

وفي عالمنا المعاصر نرى حتى في الأمم التي لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لهُوى أفرادها ، بل ينظمون الحياة بتشريعات قد تتعبهم ، ووضعبت الأمم غير المتدينة لنفسها نظاما يحجز هوى النفس ، ونقول لهم : أنتم عملتم على قدر فكركم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تحببتم في هذه لأنكم تقننون لشيء لم تخلقوه بشيء لم تصنعوه .

وأصل التقنين : أن تقنن لشيء صنعته ، كما قلنا : إن الذي يضع برنامج الصيانة لأي آلة هو من صنع الآلة ، فالذي صنع التلفزيون أترك الجزار يضع للتلفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، فمن صنع التلفزيون هو الذي يضع قانون صيانتة ، فما بالنا بالذي خلقنا ؟ إنه هو الذي يضع قانون صيانتى : « افعل ولا تفعل » . فأنتم يا بشر تتحكمون في أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : افعل هذه ولا تفعل هذه ، فعل أى أساس عرفتم شرو المخالفات ؟ هل خلقتم أنتم النفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، ويحدث التعديل - كما قلنا - لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشرى يخطئ لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلتترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشرى يؤكد أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المتفحون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والفهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يجاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المتفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيسبون لكم متاعب ، فبعدها توطنون أنفسكم التوطن الإيمان انتهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم في الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى في هذه القضية :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ ٧١

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يترصد بك ؛ فكلمة : خذ حذرك « هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكان هذه آلة تستعد بها في مواجهة خصومك وتحتاط لمكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ أَنْتَحِلِ تَرْهَبُونَ بِهِ ءَعِدُّوا لَهُ وَعَدُّكُمْ

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا معنى : إياك أن تنتظر حتى يترجوا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيعجلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كي تواجههم . فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجدوا لهم فرصة سيادة .

« فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » أى لتكون النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و« ثبات » جمع ثبة وهى الطائفة أى انفروا سرية بعد سرية و« جميعا » أى اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يبيح من الشر . فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعا . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارا قد تآلى في نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تحور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة :

﴿الرَّحْمَٰنُ الْمَلِكُ ۝ يَوْمَ يُنَادِي الْمَلَائِكَةُ نَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وماداموا هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد أن يفرحوا حين يأتي لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده لذلك قال لهم :

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا في أنكم طلبتم القتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال لأنني لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألا يقاتلوا في سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب الذي يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال ؟ :

﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَأَقْبَهُ الْفَالِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة . وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هي قولهم رداً على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالوا :

﴿ اِنْ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ اَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يَوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة في استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السر في اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ، فقال سبحانه :

﴿ اِنْ اَنْتُمْ اَصْطَفَيْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَاَزَادَكُمْ سُلْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحصهم ليختبر القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ اِنَّ اِلَهَ مَبْتَلِيْكُمْ نَهْرٌ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَاِنَّهُ مِنِّيْ اِلَّا

مَنْ اَغْرَقَ غُرْفَةً يَدِيْهِ فَشَرِبُوْا مِنْهُ اِلَّا قَلِيْلًا مِنْهُمْ ؕ فَلَمَّا جَاوَزُوْهُمُ وَالَّذِيْنَ

ءَامَنُوْا مَعِيَ قَلُوْا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوْتٍ وَجُنُوْدِهِ ؕ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر على نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرقة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفىهم تصفية جديدة ، وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوْتٍ وَجُنُوْدِهِ ؕ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وبما الضرورة في كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألا يتحمل الدفاع عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم من قالوا :

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

﴿ تَهْزِمُوهُمْ بِبَآئِنِ اللَّهِ ﴾

لماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كي نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً لها موقف ، وحين تواجه به تطبيقاً لها موقف ولو بالكلام ، وحين تواجه به فعلياً يكون لها موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله . إذن فيريد سبحانه أن يرى في نفوسنا أنه جل وعلا هو الذي يهزم ، وهو الذي يَغْلِبُ مصداقاً لقوله الحق :

﴿ قَتَلُوهُمْ بِحَبْلِهِمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انفروا ثبات أو انفروا جميعاً واعلموا أن النفس البشرية هي بعينها النفس البشرية ، ومستعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتي هنا بقوله الحق :

وَلَا يَنْفَعُكُمْ لَكُمْ لَيْبُطَانٌ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا
قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يبطىء ويتخاذل ، مثلما قال في آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة التوبة)

« و انتاقلتم » تعنى : أن هناك من يتاقل أى يتزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من يتزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية في إنزاله ، فمعنى « انتاقل » أى تباطأ ، وركن ، وهذا دليل على أنه يريد أن يتخاذل ، وهؤلاء لم يتباطأوا فحسب بل إنهم أقسموا على ذلك . ومنهم من كان يشبط ويبتطىء غيره عن الغزو كالمناقض عبدالله بن أبي .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا وأعدنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء . لا على من يتباطئون ويتاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخى وبقي ، وعندما تأتيتهم المصيبة من قتل « أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أنى لست معهم .

إذن تتأقله وتختلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار في نفسه . وهذه قمة التبعج فهو مخالف لربنا وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله عليّ ، مثله كمثل الذى يسرق ويقول : ستر الله عليّ ، وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمان ، فيقول : « قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل في الشرك ، فالمصيبة في نظره إما قتل وإما هزيمة . ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتباطئ عند الغنيمة أو النصر ؟ يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

إذن فالعلة في قوله : يا ليتني كنت معهم ليست رجوعاً عما كان في نفسه أولاً ، بل هو تحسر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية في الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هي قوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة . كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول في البداية : أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين « لكنه يرغب في الفوز والغنيمة فقط ، ويعتمد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثبات أو حين تنفرون جميعاً . واعلموا أن فيكم مخذلين وفيكم مبطلين وفيكم متخاذلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحمدون الله أن هزمتهم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنوها إن انتصرتهم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتهم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم وتكونوا هل بصيرة منهم . والمناعات ما هي إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية في المعاني ، إن حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبني رد فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأتي بميكروب المرض نفسه على هيئة خامدة ونطعم به المريض ، وبذلك يدرك ويشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئة نشيطة ، فقوى المقاومة في الجسم تتعاكس معه وتحاصر الميكروب ، فكان إعطاء حقن المناعة دربة وتنشيط لقوى المقاومة في الجسم ، وقد أودعها الله في

دمك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعاني يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعدوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاجأون به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فليأكم أن تتأثروا بهذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧١)

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتفاضل ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تالى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠)

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الحب كانوا فيه من الزاهدين . وبعد ذلك باعوه بثمان بخص ، إذن فهـ شرى ، من الأفعال التى تاتي بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشتري يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشتري التمر وآخر يشتري الحب ، والذي جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟. السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تاكل رغيف الخبز وثمانه خمسة قروش ، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟ لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشتري به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هي رزق مباشر ، ندفع ثمنها بما لا نتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنها ، والشاري يعطى ثمنها ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ؛ ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا في حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئا ويأخذ شيئا أكبر منه ، ولذلك يقول في آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ نَجْرَةً أَنْ تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة طه)

هنا أيضاً نجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشيء الذي تعطيه بالشيء الذي تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذي يجب أن يضحى به في سبيل الآخر ؟

والحق قد وصف الحيلة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدق من هذا ، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة - إذن - رابحة ، فالدنيا مهما طاللت فللى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعينك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد : هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟ ..

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مطنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تمنحك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان منا يظل يُرى إلى أن يبلغ الحلم . فإذا ما بلغ الحلم وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للام ، بينما فى طفولته كان كل اعتياده على أسرته ، أبوه يأمره باللبس فيلبسه ، وبالطعم فيأكله ، ويوجهه فيوجهه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبني ! والأكمل هذا لا يعجبني !! هذه الكلية لن أذهب إليها . ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فانت ترعاها سقياً وتنظيماً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتعهدها كي لا تنخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ، لأنك إن شققتها لتأكلها تجده « اللب » قد نضج ، وإن زرعت ثلث منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل التنضج فانت قد تجرد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأن وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهي لم تنضج تماماً ، أما إذا وجدت « لبها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجرد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تری وتنضج البذور ولا تقطع النوع ؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع في البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصبر له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنه سيقضى مراهقته في التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل : كم سنة سيتمتع ؟ منجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن في شقة من حجرتين أو في شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو في منزل خاص صغير أو حتى في قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما في الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هي الصفقة الرابعة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد في عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل في عملية البيع التى تجهدك إن لم تقتل أو تقتل في سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز في الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذي ستقاتل من أجله ، إنه تأسيس المجتمع الذي يؤدي كل امرئ فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعا لا يؤمن بالله وقل : يا أيها الناس تريد أن يؤدي كل واحد منكم الأمانة التي عنده ، تريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلنكن نحمي المجتمع لا بد أن تؤدي الأمانة وأن نقيم العدالة . ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لي بالله عليك : لو لم يكن هذا ديننا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟ .

إن مثل هذا المنهج الذي يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذي ستقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شيء إنما يقاس بزمان الغاية له ، فإن قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة ، والحق هو الذي يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون في الحزن . نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الفرق في الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافيء من يقتل في سبيل الله بحياة في عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده في عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذي اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشر الذي لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا فيها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجِيِّهِمْ أَنَبَتْ لَنَا
مَلَكًا نَقِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذي يثبت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن السماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون - وهم ضعاف - المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يُجَارى

هذا القتال لو لم يحج به دين ، ألا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون : لا . هذا دين سيف .

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تهمد شعوباً تتحارب وتهمد ظلماً يجارب ظلماً آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلماً نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان ذوات اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتي ، يأتي عادة لا من قوى بل يأتي من ضعيف تعب كثيراً كي يثبت الإيمان ، والإسلام نأدي ودعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يسطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التي ألقت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة نستطيع أن نتعرض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أي قبيلة تخاف أن تتعرض لها في الطريق ؛ لأن القبائل ستأتي إلى قريش في موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذي صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر في مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمع في أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هي أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتي النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » لتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصية لمحمد ، ولم تخلق العصية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هو ذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه :

﴿ سُبْحَنَ الْجَمْعِ وَيَذَرُونَ الذِّبْرَ ۝ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أي جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمل أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنِمُّهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ۝ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتي موقعة بدر، فتثبت له صدق هذا، والمعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، فلا يمكن أن يقال: إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستتج النتيجة؛ فالمقدمات لا توحي بأي نصر، لكن ربنا هو الذي قال، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضرب على أنفه وترك الضربة علامة على أنفه؛ لأن الذي قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً، وهذا يدلنا على اختبار المبادئ.

إنك تجد أن الذي يؤمن بالمبادئ هو الذي يضحي أولاً، يدفع ماله وقد يدفع دياره، بأن يخرج منها، وقد يدفع نفسه فيقتل، كل ذلك من أجل المبدأ، لكن الأمر يختلف مع المبادئ الباطلة؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن. ومن يروجون للمبادئ الباطلة يقولون لمن يفررون به: خذوا مالا وعش واستمتع، واشتر أحسن الثياب.

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن الثمن غال، لكن في الباطل لا يعرفون مثمناً. والذي ينظر لمبدأ من المبادئ الهدامة، يرى كيف يعيش قادتها، بينما الرعية تمحيا في بؤس، فيقول: أنا أخذ الثمن مقدماً، والأمر يختلف مع المؤمنين، فهم الذين يدفعون الثمن. لينعموا بالجزاء في الآخرة.

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولاً دفاعاً، كانوا يطلبون من رسول الله، يقولون: يا رسول الله، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا، فيقول: «اصبروا فإن لم أوامر بالقتال» (١).

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كي يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة، ونعلم أن القتال عملية ضرورية في الحياة. فالحق سبحانه هو القاتل:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَرْحُ وَيَّعٍ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ
يَذْكُرُ فِيهَا أُمُّ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضروري واقعي . وحين يعاب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغي هي التي تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قلعاً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فليماذا يأتي من يقف في الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكي ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكي يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التي تحيط به ، فالجناد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأى منهم حرية في أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ، فالخلق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنِ أَنْ يَحْمِلَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأي شيء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعاً لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نقيده حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التي أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنوناً ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم ينضج بعد نقول أيضاً : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجوداً فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شيء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذى حمل السيف ، لم يحمله ليَجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع أى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجهن لفرض ديناً وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين ، والذين يقولون: إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيداً ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافاً وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار :

﴿ قَسَّ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتى لنقطة أخرى وهى أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأبضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فُيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَلَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧٦)

(سورة النساء)

فالمقاتل إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينها يقول : « فليقاتل في سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقاتل الرجل دائماً حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فيكون شهيداً . إذن فالمقاتل مرة يكون في سبيل الله ، ومرة يكون في سبيل النفس ، ومرة يكون في سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أي يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل في سبيل الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَلَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

إذن فالذي يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقْتَلْ من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هي القضية الجدلية التي تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أقتل فأصبح شهيداً آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلهذا تترهبون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يتق أن يفتر بكل شيء ، فإن قُتِلْ ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى في الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصة بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل - وفيه المثل الأعلى - الذي ليس معه إلا جنه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا في حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلاعطه الجنيه .

بالله أهو يجب الذي أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يجب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلاة . وسبق أن قلنا : إن الذي يجلس ويرى امرأة جميلة فغض عنه أمره يختلف عن واحد آخر « يحلق » ويحلق وينظر إليها بشدة ، فأياها يجب الجمال أكثر ؟ إن الذي غض بصره هو من يجب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريد لها لحظة فقط ، بل يريد لها مستديمة .

فما بالتا بالذي يبيع الدنيا ويقتل في سبيل الله ويأخذ الآخرة التي ليس فيها قتل أو أى شيء مكدس ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية ، لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالي .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون في سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو في ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذي قتل في سبيل الله إنما فعل ذلك إحملا لكلمة الله ، فلا ينتهي قطعه أبدا للخير الذي بذله ، وحياته مستمرة في حياة الملايين . « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ، وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل في سبيل الله إنما يقول لمسكر الكفر ما جاء به الحق في قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ إِنَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ ۖ وَخَرْنُ نَرَبُّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ

بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ۖ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يغلب معسكر الكفر . وهو يترى بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

والمعنى : قبل أن يهبه الله وكان متشككاً قال :

لُحِطْنَا الْإِيمَانِ حَقِّ كَانْنَا زَجَاجٍ وَلَكِنْ لَا يُعَادُ لَنَا سَبِكُ

فقالوا: إنه ينكر البعث ، فيأدام قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر الفكر ، وهذه تأتي في أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب في فكره ويتهى إلى الإيمان ، لكن أكان ضامناً أن يعرش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حقٌ وربنا سميع وربنا بصير » وقال :

زَعَمَ النُّجُومُ وَالطُّيُوبُ كَلَامَهُمَا لَا تُحْشَرُ الْأَجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

أى إن صحَّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة في الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحَّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم يتفعلى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح - وهو غير صحيح ولا سديد - فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى، لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضرنى أكرمك » ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلى فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ نحيبك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإني أقول : « إن حضرت إلى فسوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتي من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتي بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتي بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل في سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيماً ، ولكنه قال : « سوف نؤتيه أجراً عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ؛ لذلك كان لا بد أن تأتي « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع .

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآني ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتي بأساليب كثيرة : فمرة يأتي بأسلوب الجمع ، ونحن نقول : كما علمونا في النحو : « النون للتعظيم » كما في قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ زَلَّاتُ الدِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٥ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شيء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً خلقه من متعة أو من نعم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلماً لترتيب النعمة ، وتديراً وحكمة ، وبسطاً ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاثف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٦ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالافراد تأدياً مع الله فليس له شريك أو مثل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتي بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه في صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتي بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » فليذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماء » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل في إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماء » ثم بعد ذلك : أنا وخلقى بما أمدتهم ومنحتهم فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها . إذن فلا بد أن نتنبه إلى دلالة الكلمة حين تأتي بالمفرد وحين تأتي بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصنع آخر لا تكون صفعته في قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذي يعطى الأجر مثيلاً لك فسيمطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيمطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أنا اشتريت هذه ، فهذا يعني أنى دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لانتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل في سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، وثلثت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أئمن من قتل ، بل نظرت لعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (٧٥)

والآية تبدأ بالتعجب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال في سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول في حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال في سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذي لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ، أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأت القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذي أوفى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضاً لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون في سبيل الله وفي خلاص المستضعفين ، وفي ذلك استشارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل في سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين في سبيل تخليصهم من العذاب ، لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك في أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين » فكان منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها في أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل في العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال ، وكلمة «المستضعفين» يأتي بعدها « من الرجال » والمفروض في الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومن يأتي بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هي « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً » وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا في أنه سوف يأتيهم ولي يلى أمرهم من المسلمين ، فكانها أوجت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خبر ولى وخير ناصر وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » .
وسيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحزن الله عليهم فلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا في سبيلهم ، فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان في العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ ٧٦

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟ . يصح . أهو الظالم الجبار الذي يطغيه التسليم له بالظلم ؟ . يصح ، أهو الذي يفرض الشرّ على الناس فيقتلوا شره ؟ . يصح ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآني يتنوع فبأن مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٢ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » وه كفروا ، وهنا أيضا في « سبيل الله » وه في سبيل الطاغوت « هذه مقابل تلك . لكي نعرف العبارات التي ينثرها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها الحظفة الإعجازية ، قال في هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت في الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلا من الثانية ، هذا يسمونه في الأسلوب البياني احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة » أي تقاتل في سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التي تقاتل في سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل في سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كي لا يعطينا المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كي لا يكون هناك تكرار ، ولكي نعرف أنه إذا قال : « في سبيل الله » يعني مؤمناً ، وإذا قال : « في سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أي نصراء الشيطان الذين ينفخون في مبادئه ، والذين يتصرون وسوسته في نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان - كما نعرف - حينها حدث الحوار بينه وبين خالقه .
قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢)

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أى أن من تريد أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد في معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخالق من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دل على أنه عرف كيف يقسم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزتك على خلقت سبحاتك لأنك لو كنت تريد كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أى أنا لا أقدر عليهم . ودل قسم الشيطان أنه دارس ومتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَا أَقْدِرُ لَهُمْ سِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتى على الصراط الموعود ؛ لأن الذى يسير على الصراط الموعود والطريق الحق لا يريد شيطاناً ، فهو مريح للشيطان ، ويحبه على مهمته ، فيكون وليه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق بأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئنا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيداً في مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغبك على أن تفعل ، وليس له حجة يقتنعك بها .

والفرق بين من يكره القلب - قالبك - : أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك : اسجد لي - مثلاً - إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول : « أحبني » ؟ لا يمكن . إذن فالتجبر يستطيع أن يكره القلب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذى يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثاني يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغبك فإذا أغواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . . ولا يستطيع أن يأتى لقلبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويمسكك على الفعل قهراً عنك . فليس عنده حجة يقتنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟ . إنكم تطيعونه من غفلتكم وحبيكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكفى أن يشير لكم !! ، ولذلك يقول الشيطان في حجته يوم القيامة على الخلق :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لم يكن لى عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقلب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أى أنتم المخطئون وليس لى شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » - كما نعرف - هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ، لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوى هو من يواجه من يكيد له ، فالذى يدس السم لإنسان آخر فى القهوة

- مثلاً - هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأثر على فعل ذلك ، وحتى الذي يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجراتك على قتله أنك لا تطيق حماته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضي أن تقول : أبقه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قلباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقتنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتمل إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيد من عظمياً ، إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربي هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساحة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ، يقول : لن أتركه لأنني لو تركته فسيفعل بي كذا وكذا . لكن القوى حينها يمسك بخصمه ، يقول : أتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظمياً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُوا الصَّلَاةَ
وَمَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُنِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا إِنَّا لَنَرَاهُ
كَنَّيْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ
الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْئًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعني : إن كانت مريثة في زمنها ،
فلما أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مريثة فمعناها : ألم تعلم ،
ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفوا أيديكم »
لا بد أن تكون بواحد مَدَّ الأيدي موجودة ، فلما يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك .
والكلام هنا في القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه
وتعالى جاء في المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا
أيديكم » لأن بواحد مَدَّ الأيدي للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا
يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهاووا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ
عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين يصدد هذه الآية : زمن قيل لهم :
كفوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بواحد لَمَدَّ
اليَدَ إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا: دعنا نقاتل هم : ابن
عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد
أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي
صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عزة ، ونحن مشركون ،
فلما آمننا صرنا أذلة قال : « إن أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى
المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا
أيديكم » (١) .

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي والحاكم .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تخلص البعض منه . . مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ، فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعني أنهم خافوا الناس أو رجعوا في الإيمان ؟ . كما طلب بعض من بنى إسرائيل القتال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَهْرٍ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقي ، قد يلبس في نفوسهم الخوف والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الاغيار أن تأتي على المؤمن ، فإدراك الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ، لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتي منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس في رأسه ، ويقف أحيانا موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ وماداموا غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا .

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعني أنهم ليسوا سواء ، وفريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقي على شدته وصلابته في إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعي أن يبحث كل إنسان في نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أخير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

ومب أن الله أطلعك على غيب الناس أتعجب أن يُطلع الناس على غيبك ١٢ لا ، إذن قانت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك فأعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك في نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعك الله على ما في قلبك ، أو أطلعك على ما في قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه .

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويجب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويجب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين في أسياهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الحية من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك : يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذي عمله في الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابي آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحببه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء في القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المثلّة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال ، وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كي نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشيء تمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم هل سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يا رب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه في ساعة الخوف من لقاء المارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حفظ أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعي تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهي حياته بالقتل .

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحباً في الدنيا ومتاعها ؟ ويأتى جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن نحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذي يُقتل في سبيل الله فسيجازه على عمله فوراً ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت . لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل في الحرب جهاداً في سبيل الله . قال بعضهم : إذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل في سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بضمن زائد عن عملنا ، إذن فهذا تريب وتنمية للفائدة ، ولذلك قال الحكيم :

ولو أن الحياة تبقى لحى لعدونا أضلنا الشجعان

أي أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فيها هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم في الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربي يقول :

ألا أيها الزاجري أحضر الوعى وإن أشهد اللذات هل أنت تحلدى

والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبنى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهتما بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنتان يجبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالى السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى - فى صدر الإسلام - الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس ، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حية وعصبية وعزة وأنفة ، فكلما أهيج واحد منهم فى شىء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، وأراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا يفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرهمهم على إسلام ، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تبعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار فى الإنسان فكان القتال حفاظاً على كرامة الإنسان أن يكون تبعاً فى العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشيد من الغى .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويراً طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ؛ لذلك تجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون : هدم بنية ، ولكن الموت حطف الأنف هو الذى يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها . وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخي في الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ؛ لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هي العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفا شرسا في تثبيت قاعدة الاختيار الإيماني في البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إن قالوا لك ذلك » قل متاع الدنيا قليل ، فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعني أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فوضح الحق : لا ، ضموا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضا قال سبحانه في الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَةِ نَجْمِكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعاملنا بملحظ النفع الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكي هو الذي يتاجر في الصفقة الرابعة أو المضمونة أو التي تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طاللت لا تؤثر ولا تزيد في عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول في الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلا ، فما دخل الفرد في ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هي زمن محدود ، والله يبرئ المؤمن الذي يقتل في سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمنا غير محدود . وأيضا فالبقاء في الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهي غير محدودة وهي متيقنة .

إن النعيم في الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد في تحقيق النعيم . وأما النعيم في الآخرة فيكون على المقدار الذي أعد الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق ينمى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستزله ، فالدين إنما جاء ليريب للمؤمن النفعية وينميها له .

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ في حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا في حقه . فإذا قال الدين لواحد : لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، ففي هذا القول ما يوصى كل غير في الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان . فالكسب العظيم - إذن - يعود على الفرد .

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل في قوله : « ولا تظلمون قتيلاً » ونعرف أن القتل هو ما قتل من الأقدار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج نائمها كالقتلة ، أو القتل هو القتل في بطن النواة ، أى لا نظلم حتى في الشيء النافه . والعدالة هنا بمشروطها ، لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر .

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتي بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، ونحسب الحسنة عند الله في ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل . ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ؛ لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب . وندعو الله : وبالجبر لا بالحساب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » بلاغ من الحق لنا : أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيمة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعنى فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل . وسبحانه يريد أن يطمئنتنا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٨)

(سورة يونس)

فالفضل هو الذى يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتى الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قائلها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ؛ فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت . ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف .

إن الذين درسوا « الظرف » فى النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان . والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمان الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهلنا بزمان الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمانه ، ولكنه أشاع زمانه فى كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال في مكان الموت .

وما هوذا الحق يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

حَدِيثًا ٧٨ ﴿

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » فالعقل البشري الذي يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكاناً - عليه أن يعي جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء في معسكر الكفر أو في معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية - كما نعلم - تعطي ظرف المكان . فلطافة تغفل الموت تخترق أي مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان في عافيته وفي حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها في العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلها لطف العدو الإنسان ودق ؛ كان عنيفاً ، وكلما كان ضحكاً كان أقل عنفاً . فالذي له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ . يكون العدو صعباً كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان .

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبني بيتاً في خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فيقول لصاحب البيت : إنك لم تحتط لمثل هذا المكان ، فهو يمتلئ بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التي في الدور الأول ، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويحيى واحد ثان ويقول له : لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويحيى ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول : إنني أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة ؟ . إنه ذباب سام . وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ . ويحيى واحد رابع فيقول لصاحب البيت : في هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من الذباب وأكثر عنفاً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذي تضعه على نوافذك ، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقاً بحيث لا تمر منه هذه الحشرات . إذن فعذوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفاً .

ولذلك فأخطر الميكروبات التي تتسلل إلى الإنسان ، ولا يدري الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدري ولا يعرف لذلك زماناً أو مكاناً .

ويلفتنا سبحانه إلى أن الشيء عندنا كلما لطف ازداد عنفاً ، ولا تمنعه المداخل فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما مقابل الموت ؟ . إنه الحياة حيث توجد الروح في الجسد . وما كنه الروح ؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها في نفسه ، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهي . والحق هو الذي جعل للحَيِّ روحاً ، وعندما ينفضها فيه تأن الحياة .

إن الحق - سبحانه - يلفتنا وينبها إلى ذلك فيترك في بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كتبها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف - مثلاً - الفيروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا مات تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الملك :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٢ ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرّ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع . ووصف الحق أمر الموت والحياة في سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة ، مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً ثم يأتي الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتنع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولاً .

ينبها ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : « الذي خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذي يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ويأتى الحق سبحانه بالموت في صورة كبش ويذبحه .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤق بالموت يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا :

نعم رَبَّنَا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فيطلعون فرحين مستبشرين ، أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيذبح على الصراط ، ثم يقال للفريقين « كلاهما »^(١) : « خلود فيما تجنون لا موت فيه أبدا »^(٢) .

وتجسيد الموت في صورة كبش معناه أن للموت كينونة . ويعلمنا الله أنه يقضى على الموت ، فتحيا في خلود بلا موت . وبنه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا في سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندهم لا تمنع الموت . ولو كان من دنا أجله وحان خيئه يسكن في بروج مشيدة لأدركه الموت .

إن الأداء القرآني يتنوع ؛ فهناك من الأداء ما تفهمه من الألفاظ ، وهناك ما تفهمه من الهدى الأسلوب للقرآن ؛ لأنه خطاب الرب . فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكن عندما يخاطب الحق الخلق فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس . ولذلك نجد طفلاً صغيراً يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور ، فيسأله واحد من الكبار : ما الذي يسرك في حفظ القرآن ؟ فيجيب الصغير : إنني أحس بالانسجام وكفى . هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه ، فالتحدث هو الله ، وسبحانه بقدرته وجمال كياله يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبحانه وتعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت ، أي أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها في الزمن الذي قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمعروف في القاعدة « كليهما » ؛ لأن الكلمة تؤكد لمجرور ، ولعله على لغة من يلزم التثنية الألف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢٤ ص ٢٠٤ .

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يدرككم » تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجري وراء روعه حتى يدركها .

ويقول الحق : « ولو كنتم في بروج مشيدة » . وعندما نبحث في الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها . والحروف الأصلية في هذه الكلمة هي « الباء » و « الراء » و « الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور .

فيقال : « هذه امرأة فيها برّج » أى أن عيونها واسعة وتحتل قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحة ، فالبرّج هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع نبيها نحن الآن من الأسمنت والحديد . والقصد من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشيء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشيء المشيد فهو من « الشيد » وهو « الحصن » ، ومن « الشيد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالحصن فهي مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جمعاً وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا أحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القياس . فلو بنى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً لجأه الموت .

والجمع مقصود أيضاً : أى لو كنتم جميعاً معتمدين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون في بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة . وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا في برج محاط ببرج . وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق في إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة في الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ؛ لأن الدين هو نور طارئ على ظلمة ، والذين يعيشون في الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعرّب في الآخرين . وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجيء النور ؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ؛ ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أن بالموت ليؤدي حاجتين : الحاجة الأولى : أن من يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء .

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلقى ربه . إذن فكلمة « الموت » تعطى الرغب والرهب . فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاع الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربي .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمن بالله تلك القضية . وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب في عزيز ؛ فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذي اقتضه ؛ لأن الله عجل به ليري خيره ، فإن حزنه لفقد قريب مؤمن فانت تحزن على نفسك . وإن كان الذي ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذي عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ؛ وهذا رهب .

ولذلك فمن الحق أن يحزن الإنسان على ميت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فيل هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام أليق بمن ؟

الذى يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وهذه الكلمة لها في ذهنه تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فينسب الخير والحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفي قلوبهم الكفر ، وإما أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذى فيه خبير على أساس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التى تحدث لهم . كأنهم يريدون أن يفهموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا يتيح لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتل إلى أبد الأبدين :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَوَاسِلَئِكَ عَلَيْهِمْ حَافِظًا ۝٨٠ ﴾

(سورة النساء)

والحق يقول :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خاسر .

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا : « إن الله أسعدنا بالغنائم » . وإن هُزموا قالوا : إن محمداً هو الذي أوقع بنا الهزيمة ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فلياك أن تُخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب . وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس يعبد النار - معاذ الله - أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذي يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد عن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله . وقد ينصرف المعنى إلى اليهود . فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ؛ فقالوا : مزارعنا وثمارنا في نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد له تعليلاً مادياً ؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التي كانت لهم ؛ لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بالربا ويشيرون العصبية ، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجارة بكلمات الله . فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات : علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التي صنعوها بالتفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ؛ لأن الإسلام حرم الربا ، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتاباً - وهو القرآن - غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا في الحزن وانشغلوا بهذا الهم . وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يتاجيه إلا في أمر محمد . ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الزراعة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هي ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإما أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب . وإما أن يكون ذلك من آفة مساوية فلماذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقلد لهم عما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعزون به . لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فتزل بهم أكثر من عقاب . فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمار .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله عما أورده الحق على أنفسهم : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هي الظفر والغبية والسراء والرخاء والخصب . والسيئة هي الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجذب . هذا ما فهموه ، ونحن - المؤمنون - نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة في الشرع هي ما يأمر به الله ، والسيئة هي ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب في عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً في استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزني لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة » . ويزيد على ذلك : « يكفيني عزاء الأجر عليه ، فأنا لم أكن سأخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذي سأأخذه في صبري على مصيبتى فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هي

ما تستطيع نفسك ، أو أن السيئة هي ما تشمئز منها نفسك ، لا ، فالمصائب في عرف الشرع هو من حرم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله ، أي أن الحسنة والسيئة من عند الله .

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ، فالسيئة في نظر الإنسان والحسنة في نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن ، واقتداد المقاييس الصحيحة هو الذي يتمب . وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب بالكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل في المذاكرة وفي حضور الدرس لذلك فهو يرسم آخر العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها في عرف الحق عموماً حسنة . فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولما ذكر أحد ولا نطمس العلم . وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسم ، فهذا إحياء للحسنة في آلاف غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحاً ووافياً وتطبيقاً ، وخاضعاً لسنة الكون . وكذلك الذي لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الري ، فهو يأتي يوم الحصاد ولا يؤتي ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية في ذاتها فهي حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أي سبب من الأسباب ؛ فالمصائب نتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مساءة وإضراراً به ، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن نهد لسنة الله تبديلاً .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سناً في كونه فالذي يأخذ بالأسباب يعطيه ، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجع هو المجد ، والمتكاسل هو الراسب ، . والنتيجة كلها من عند الله تقيناً كونياً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقرأ بما فيه يتركه من غير تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليطلعها ويدحضها .

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن تلف قضايا الخصوم لفاً بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضاً ثم يكر عليها بالنقد ليري - كما قلنا - المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضية كفرية عقيدة إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيقولون كذا فقولوا لهم كذا ..

مثال ذلك : عندما قالوا : إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذي يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليطلها ويقول : «ها هي ذى نقاط الضعف في هذه القضية» ..

وحينما قالوا : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه ؛ قل لهم يا محمد : «كل من عند الله» ، وتجعل دقة الحق سبحانه في أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً في البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد في هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم في أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و« كل » تعني : كلاً من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء في أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباد الأفعال ؟ . فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ . ودخل العلماء في متاهة كبيرة .

وهنا نقول : يجب أن تفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سُنناً ، ومن

عجيب الامر أن السنن تتنظم وتشمل وتضم المؤمنين والكافرين بما يدل على أنه لا أحد في كون الله أولى بربوبية الله من الآخر ، فحق الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق في ربوبيته فأمر الأسباب التي خلقها استجيب لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتي إلى أنه مؤمن أو كافر لأنني أنا الذي خلقت ولوجدته في الكون ، ومادمت أنا الذي أوجدته في الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجي ، وأقول لعبادي : أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بي فسيكون له وضع آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن فالله بالالوهية مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتنيات للمخلق جميعاً ، لكل العباد ، فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطي بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به .

فالسنن والنواميس كجنود لله نجدها متأبئة على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للمخلق المسخر : هم خلقي وأنا الذي استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدي مهمتها للمؤمن وللکافر جميعاً ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بوساطة الرسل . يوضح : أنا أحب كذا وأكره كذا فالذي يحبني يعمل بتكليفي . إذن فمناط الربوبية غير مناط الالوهية .

مناط الربوبية خلق من عدم وإمداد من عدم . ومناط الالوهية طاعة ، والطاعة تقتضي أمراً ونهياً . فكل ما كان من مدلول الأمر والنهي - الذي هو التكليف - فهذه مطلوبات الالوهية .

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية . والسنن الكونية لا تتخلف أبداً . فمثلاً الذي يريد أن ينجح في مادة من المواد في مدرسة ما . . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح في مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذي أنجح نفسه أو أن القانون هو الذي أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذى أعطاه النجاح . وصحيح أن القانون لم يقل للطلاب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنه قد بذل جهداً فى التحصيل الدراسى ، وحقق له هذا الجهد النجاح فى نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا يتسبب فى رسوب أحد ، ولكن الطالب الذى يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذى لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شيء فى الوجود له قانونه .

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاوَل مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا - غالباً - يعرف العضلات التى تتحرك لتحمل هذا الشيء . فالذى فعل حقيقة هو الله . واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ، أم شراً ، فالفاعل الحقيقى لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً .

صحيح أن الإنسان ليس له دخل فى العمل ذاته ولكن له دخل فى توجيه الطاقة الصانعة للعمل ، فالثواب أو العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة . والسكين - كمثال آخر - يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعم بها إنساناً ، وهى لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ، ولا تعصاه إن طعم إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً للسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الآلة التى خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبيح ، سواء أكان الذبيح فيها حرم الله ، أم فيها أحل ، إذن فالفاعل لكل شيء . ومادام الفعل فى نطاق أوامر المكلف صاحب السنن فهو الذى يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ، فالشاب الذى يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر فى الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر فى الأمر الردى ، وعينه صالحتان لأن ينظر بهما فى مجلة هزلية أو ينظر بهما فى كتاب .

إذن فهو ساحة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء رِيَّة ؟ لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التي خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك .

إذن فتوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيئ . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذي أهمل في زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جذب فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله في مجالها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل في ذلك للإنسان . فالتواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة في إطار هذه فهي من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذي يلعب الميسر ويأتى له الخراب والدمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بالألا يمارس تلك الألعاب . وأى أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق الرزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان .

والذى يتعبنا ويهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رهوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئولته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعباً . فهدامت لدينا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعدّها ونستغل المياه الجوفية في زراعتها . فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون في المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله في الكون . فليس من الضروري أن ينزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿الرَّزَّازَ أَنْ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾

وجعل الله للمياه مسارب في الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة في مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أخفى الله جزءاً من المياه في الأرض لصالح الإنسان . وفي البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وكلنا يعرف قانون التبخر ، فعندما نأق بكوب من المياه ونشره على سطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فالمياه تبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية المياه نفسها في كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدراً ضئيلاً للغاية . إذن فكلما زاد المسطح ، كان البخر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ، لأن الماء أصل كل شيء حي . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه في مساحة متسعة حتى تبخر وتنزل مطراً ، فما يجري في الوديان يجري ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب في الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكائه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالخلق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ أَنْتَ كُفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنَهُ ١١ ﴾

(سورة فصلت)

فإياكم أن تقولوا : إن السكان سيزيدون عن القوت الذي في الأرض ، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصلي من بعد قول الله . وهب أن موظفاً - والله المثل الأعلى - جاء في أول الشهر بتموين الشهر كله ووضع في مخزن البيت ، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدت الغداء ، فماذا يحدث ؟ إنه يغضب . ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

في الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافي على استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التي خلقها الله له ، ولم ينفذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ، فتكون معيشته ضنكاً . فسبحانه يقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

(سورة النحل)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر في المعنى العام هو : ألا تشكر النعمة لله . وعندما نؤمن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسيبات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان . إذن فالقرية هي مكان السكن ، وليس مكان السكن فقط هو الذي فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكان كل مكين في بقعة ، له بقع خالية في مكين آخر نخدمه . وتلك القرية كفرت بأنعم الله .

والكفر في معناه الواضح هو الستر ، والقرية التي كفرت بأنعم الله هي التي سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين في تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستبطلوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتي من هذين الأمرين :

أى أن هناك أمماً متخلفة ، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . أو أن هناك أمماً أخرى تملك الثراء والخير وترويه في البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة . والحراب الذي نلمسه في علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التي ضرب الله بها المثل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾﴾

(سورة النحل)

ولتر دقة الأداء القرآن ، في قوله : « فأذاقها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذي يُذاق هو الطعام . والطعم يكون باللسان وحده : أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله ، وعندما تنظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون : إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجترأهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك ، وكذلك الأمة والجماعة .

لكن المسائل التي يقف فيها العقل فقط هي المصائب التي تصيب الناس بغير عملهم . وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ؛ فالشيء الذي له مقدمات من أسباب تكامل الإنسان عنها ، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان في نفسه . أما الأشياء التي تأتي قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعِلْ ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا . ففعل الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوّن في الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائماً على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شيء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان : ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلازل أو البركان أو السيل الجارف والرياح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهي أحداث تقول للإنسان :

لو أن المسائل في الكون فيها رتبة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائماً لنسلم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة في ألمانيا - مثلاً - وقالت : إن وجود الشر في الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل ، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أهرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى في العصر نفسه : لا . إن رتبة النظام في الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام في الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ في الكون كدليل على الكفر . وكل من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر .

ونقول لهم : كلاهما غيبى ؛ الذى يريد منكم النظام سبباً لوجود إله حكيم ، والذى يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان الأمران موجودان في الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين .

انظر إلى النظام في الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذى يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين يمتلكوا البصر كاملاً .

لكن عندما يأتى الشذوذ في نظام الكون وحركة الأفلاك فالذى يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له : انظر إلى الفلك الأعلى .
ومن يريد الشذوذ دليلاً على أن هناك قوة تتحكم في ميكانيكية العالم نقول له : هذا
موجود ، ولكن الشذوذ موجود في الأفراد . فإن شذ فرد فلا يعطى بقية الأفراد .

ونعرف - أيضاً - أن رتبة النعمة قد تلهى الإنسان عن المنعم . فالإنسان منا يظل
لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه ، لكن إن آله ضرس واحد فهو
يتذكر أن له ضرساً ، وكذلك إن آله إحدى عينيه ، أو إذا آله كُتَيْتِه فهو يجرى إلى
الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتبة النعمة عليه ليتذكر المنعم
بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمه الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول : الحمد
لله . ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهباً وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج ،
وهذه هي وسائل إيضاح في الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التي تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع
فنحن نجد أنها بما قدمت يدها ، لأنها صنعت شيئاً يخالف التوجيه . فإن كان هناك
شيء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول : هذه هي حكمة المكوّن حتى يلفتنا إلى
أنه المنعم . ولهذا نرى الشواذ في الحلقة قلة لا كثرة ، ويعرض الله من أصيب بشذوذ
في شيء بدوام مَلَكَةٍ في شيء آخر . ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنيئاً والذكاء من العمى فجت عجيب الظن للعلم موثلاً
وغاب ضياء العين للعقل رافداً لعلم إذا ما ضيع الناس حصلاً

وضربت المثل مرة بيهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسمفونياته . . إنه
كان أصم .

ولذلك نحن نسمع في لغة العامة : كل ذى عاهة جبار . فإذا كان الله قد جعله
وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعرضه بموهبة أخرى
ويلتفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضاً . إذن فالمصائب
التي تحدث وليس للإنسان دخل فيها هي الملحظ الذي يجب أن نبه . وهذه هي
مكونات الحكمة كي يلتفت الإنسان دائماً إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة .

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود . ولا تزال يده في الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتصق لها حكمة . والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطل » .

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مكن خصومه من أن يمسكوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأمر بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطراً يطفىء النار . لا . فقد أراد الله النار نيراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفىء النار ، وأن يلقوه في النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أنا أزال سلطان في الناموس ؛ لأنى خالق الناموس وأعطاه متى شئت ، « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » . أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار ، لقالوا : آه لو لم تنطفىء النار ، وآه لو لم ينزل الماء على النار .

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم . فعندما تحدث أحداث لا تدخل للإنسان فيها نقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا في الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ؛ لأنها مضبوطة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربنا . ولذلك نرى في بعض الأحيان رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم في ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكنى لم أدع لك كل الفهم ، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال في منطقة ما ، فلول ما يخرج من المكان هي الحمير . وهذا
لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ ۝١٠٠ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ۝١٠١ ﴾

(سورة العلق)

فإذا ما رأيت حدثا في الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ؛ فلتعلم
أن الله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى ؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية
الكون رتبة ، إنما هي نظام يجره الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته .

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكتروني لا يخطئ ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة
الآ يخطئ ، لأنه كما تملؤه وتحمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات . ليس له
خيار في شيء . أما العقل البشري فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر
بعض المعلومات التي قد تضر . هذه هي العظمة .

ويقول بعضهم - كمثال آخر - إن الورد الصناعي لا يذبل ، نقول : إن عيبه أنه
لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنه مجرد فقط .

وساعة يجرى الحق سبحانه وتعالى شيئا في كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن
يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية في الكون ؛ حتى لا تغتر
بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بصيصاً من هذه الأشياء ، إذا أخذتها
بمحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها في متهى العقل .
مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ .

قال العبد الصالح :

﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝١٠٢ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِهِ، خُبْرًا ﴾ (٧٦)

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ (٧٦)

(سورة الكهف)

فيحرق العبد الصالح السفينة . وخرق السفينة في السطحية الفهمية شرًا ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابراً ، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَتَرَقَّتْهَا لِنْفَرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير . فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصباً :

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفيتهم ، وبالحرق للسفينة ستظل لأصحابها ، لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شيء يجري على غير ما تشتهي سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد ، وهي من المكون الأعلى فوراها حكمة .

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة في ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً في فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطفى .

ويقول قائل : وما ذنب الولد ؟ . نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة في أن يطيع أو يعصى الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفضل له . وكان في ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ، فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه . . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن الله فيها حكمة . وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أي طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيْتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أي منهما نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لهما : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لثاماً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً يوضع العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسَخِّرَ لَهُمَا وَرَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٧)

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللثام الذين طُلب منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة من يجره وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء بصييه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلقي الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه . قل كل من عند الله ، وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عند الله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فإل هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من علم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . والحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وساعة نقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٧٨﴾

فإن جرت عليك سنة كونية خيراً فهو من الله ، أما إن أصابتك سيئة فيها لك فيه دخل فهي من نفسك . كأن المسألة قسيان : شئ لك فيه دخل ، وشئ لا دخل لك فيه . ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقديّة فى الكون .

فالؤمن بين لوم نفسه على مصيبة بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة من يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله - سبحانه - « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

سَيِّئَةٌ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۖ

وَمَنْ هُوَ الرَّسُولُ ؟

الرسول مبلغ عمن أرسله إلى من أرسل إليه . وما دام رسولاً مبلغاً عن الله فأي شيء يحدث منه فهو من الله .

وعندما يقول الحق : « وكفى بالله شهيداً » أي لا يضرك يا محمد أن يقولوا : إن ما أصابهم من سيئة فمن عندك ؛ لأنه يكفيك أن يكون الله في صفك ؛ لأنهم لا يملكون على ما يقولون جزاء ، وربك هو الذي يملك الجزاء وهو يشهد لك بأنك صادق في التبليغ عنه وأنت لم تحدث منك سيئة كما قالوا .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى

فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۖ ﴾

والطاعة للرسول هي طاعة الله ، وذلك أمر منطقي ؛ لأنه رسول ، فمن أطاع الرسول فطاعته طاعة الله ؛ لأن الرسول إنما يبلغ عمن أرسله .

ولذلك ففي المسائل الذاتية التي كان يفعلها سيدنا رسول الله كبشر وبعد ذلك يطرحها قضية من عنده كبشر ، وعندما يثبت عدم صحتها يعطونا رسول الله مثالا عن أمانته .

فعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يَلْقَحُونَ ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شبيهاً ، فمر بهم ، فقال : مَا يَنْخُلِكُمْ ؟ قالوا : قلت : كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »^(١)

(١) رواه أحمد وابن ماجه ومسلم واللفظ له .

أى فى المسائل الخاضعة للتجربة فى العمل والنسب لادخل للنساء فيها. أما الأمور الخاضعة لنواميس الكون فلا يتركها للعباد. ومن العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتصرف فى شىء لم يكن الله فيه حكم مسبق ويعدله له الله بينه وبين نفسه فمحمد هو الذى يبلغنا بهذا التعديل لنشهد - واقعا - أنه صادق فى البلاغ عن الله ولو كان على نفسه. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد قول الحق سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

(من الآية ٧٩ سورة النساء)

والرسول - كما نعلم - هو من بلغ عن الله شرعه الذى يريد أن يحكم به حركة حياة الخليفة فى الأرض وهو الإنسان. وإذا ما نظرنا إلى المادة المأخوذة من الرأى والسين واللام وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله . ولكن الفارق أن الرسول يحىء بشرع يؤمر به ؛ ويؤمر هو - أيضا - بتبليغه للناس ليعملوا به ، ولكن النبى إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذى سبقه ؛ فهو مرسل كأمورة سلوكية . ولكن الرسول على إطلاقه الاصطلاحي يأتى بمنهج جديد قد يختلف فى الفروع عن المنهج الذى سبقه . وكلاهما رسول ؛ هذا يحىء بالمنهج والسلوك ويطبقه ، والنبى يأتى بالسلوك فقط يطبقه ليكون نموذجاً لمنهج سبقه به رسول .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمداً فمعنى ذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم ستكون رسالة لا استدراك للنساء عليها ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة لا استدراك للنساء عليها ، فكيف يعقل أن تكون رسالته موضوعاً لاستدراك البشر عليها ؟

فإدام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، إذن فلم يعد للسما استندراك على هذه الرسالة ، فكيف يأتي بعد ذلك إنسان معاصر أو غير معاصر ليقول : لا ، إننا نريد أن نستدرك كذا أو نقول : الحكم كذا أو هذا الحكم لا يلائم العصر إذا كان الله لم يجعل للسما استندراكاً على الرسالة لأن الله أكملها وأتمها فكيف يسوغ للبشر أن يكونوا مستدركين على الرسالة ؟ .

إن الرسول حين يضاف ، يضاف مرة إلى الله ، ويضاف مرة إلى المرسل إليهم ، لأنه واسطة التعلق بين المرسل والمرسل إليه ، فإن أردت الإضافة بمعنى « من » الابتدائية ، تقول : رسول الله ، أى رسول من الله . وإن أردت الغاية من الرسالة تقول : رسول إلى الناس أو رسول للناس . إذن فالإضافة تأتي مرة بمعنى « من » وتأتي مرة بمعنى « اللام » ، وتأتي مرة بمعنى « إلى » .

وأمر الرسالة ضرورى بالنسبة للبشر ، لأن الإنسان إذا ما استقرى وتتبع الوجود كله بفطرته ويعقله السليم من غير أن يجيء له رسول ، فإنه يهتدى بفطرته إلى أن ذلك الكون لا يمكن أن يكون إلا من مُكوّن له قدرة تناسب هذه الصفة المحكمة البديعة . ولا بد أن يكون قيوماً لأنه يمدنا دائماً بالأشياء ، لكن أنعرف بالعقل ما تريد هذه القدرة ؟ نحن ننتهى فقط إلى أن وراء الكون قوة ، هذه القوة لها من القدرة والحكمة والعلم والإرادة وصفات الكمال ما يجعلها تخلق هذا الكون العجيب على تلك الصورة البديعة ذات الهندسة الدقيقة ، وهذا الكون له غاية . أمكن - إذن - للعقل أن يضع اسماً لهذه القوة ؟ . فكونها قوة يستلزم أن يكون لها قدرة وحكمة ، لكننا لا نعرف اسمها ، فكان ولا بد أن يجيء رسول ، هذا الرسول يعطى للناس جواب ما شغلهم وهو : ما القوة التى خلقت هذا الكون وجعلته بهذه الصنعة العجيبة .

ويقف العقل هنا وقفة ، فعندما يأتي الرسول ويقول : أنا أدلكم على هذه القوة اسماً ومطلوباً ، كان يجب على الخلق أن يرهفوا آذانهم له ، لأنه سيحل لهم ذلك اللغز الذى رأوه بأنفسهم وأوقعهم فى الحيرة - المؤمن منهم والكافر يؤمن بهذا - لأنه يجد نفسه فى كون تخدمه فيه أجناس أقوى منه ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ،

وأجناس لا تدخل تحت طاقته ولا تحت قدرته وتصنع له أشياء لا يفهم عقله كيف تعمل ، فكان الواجب أن يؤمن .

لقد ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن إنساناً وقعت به طائفة أو انقطع به طريق في صحراء ، وليس معه زاد ولا ماء ، وبعد ذلك جلس فغلبه النوم فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة منصوبة فيها أطيب الطعام وفيها الشراب الساتع . بالله قولوا لي : ألا يشتغل عقله بالفكر فيمن جاء بالأطعمة قبل أن يتناول منها شيئاً ؟ لذلك كان من الواجب قبل أن نتفع بهذه الأشياء أن نلفت ذهننا : من الذي صنع هذه الصنعة ؟ ومع ذلك تركنا الله فترة حتى نفكر ، حتى إذا جاء رسول يقول : القوة التي تبحث عنها بعقلك هذه اسمها كذا ومطلوبها منك كذا ، وأنت كائن ومخلوق لها أولاً وإليها تعود أخيراً .

وخلاصة المسألة أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخلق أعد لهم مائدة الكون ، وفيها الأجناس التي نخدمه - كما قلنا - : سلسلة الأجناس وخدمتها تجعلك تتعجب وتتساءل : كيف يخدمني الأقوى مني ؟ .

الشمس التي لا تدخل تحت قدرتي ، والقمر الذي لا أستطيع أن أتناوله ، والرياح التي لا أملك السيطرة عليها ، والأرض التي لا أستطيع أن أفهم معها ، كيف تؤدي لي هذه الخدمات ؟ لا بد أن يكون هناك من هو أقوى مني ومنها هو الذي سخرها لخدمتي . وهل رأيت شيئاً من هذه الأشياء امتنع أن يؤدي لك الخدمة أو نقص منها شيئاً ؟ لم يحدث ؛ لأنها مسخرة ، فإذا جاء رسول من الله ليحمل لنا لغز هذه الحياة ويدلنا على موجدتها ، كان يجب أن نفتح له آذاننا ونسمعه ، فإذا ما قال لي : الذي خلق لك الكون هو الله ، والذي خلقك هو الله وهو صانعك ، وأرسلني بمنهج لك كي تؤدي مهمتك كما ينبغي فافعل كذا ولا تفعل كذا ، وأنت صائر إليه ليحاسبك على ما فعلت ، وهذا المنهج هو خلاصة الأديان كلها .

ولذلك يكون مجيء الرسول ضرورياً وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صدقه ، ومادام قد أرسله بالمنهج الذي هو : افعل ولا تفعل ، فهذا يعني أن تطيع هذا الرسول ، ويقول ربنا في آية أخرى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٦٤ سورة النساء)

أى ليست الطاعة ذاتية له ، إنما الطاعة صادرة من الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتميز عن سائر الرسل ، لأن معجزته التى تؤيد صدقه فى بلاغه عن الله هى عين كتاب منهجه فى الأصول ، وكل الرسل كانت على غير ذلك . كان الرسول يأتى بمعجزة ويأتى بكتاب منهج ، العصا واليد البيضاء كانت لموسى هذه معجزته ، ولكن منهجه فى « التوراة » ، إذن فالمعجزة منفصلة عن المنهج .

سيدنا عيسى معجزته - مثلاً - : أنه يبرىء الأكف والأبرص ، لكن كتاب منهجه « الإنجيل » ، إلا سيدنا رسول الله فإن معجزته وهى القرآن هى عين منهجه ، لأن الله أراد للدين الخاتم ألا تنفصل فيه المعجزة عن المنهج .

إن معجزات الرسل السابقين على رسول الله من رأها يؤمن بها ، والذي لم يرها يسمع خبراً عنها ، وإن كان واثقاً من أخبره بصدقه ، وإن لم يكن واثقاً - لأنها ليست أمامه - فلا يصدقه ، ولولا أن الله أخبرنا بهذه المعجزات فى القرآن لكان من الممكن أن نقف فيها .

أما معجزته صلى الله عليه وسلم فباقية بقاء منهجه ، ويستطيع كل مسلم أن يقول فى آخر عمر الدنيا : محمد رسول الله وتلك معجزته ، أما غيره من الرسل فلا يأتى أحد ويقول : فلان رسول الله وتلك معجزته ، لأنها حدثت وانتهت ، أما القرآن فهو باق بقاء الرسالة والكون .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يأتى بالبلاغ عن الله فالخلق يبين لنا : أنا أرسلت الرسول ليُطاع . والمنطق أن يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لأن الرسول جاء مبلغاً عن الله ، فللباشر لنا هو رسول الله ، وعرفنا من قبل أنه إذا ما نوارد أمر الطاعة من الله مع أمر مع رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول تفصيلاً ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيل ، وإذا كان الله لم يمجى بحكم لا يجمل

ولا مفصل ، فقد جاء التشريع من الرسول بالتفويض الذي فوض الله فيه رسوله بقوله :

﴿وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسول الوحيد الذي أعطاه الله تفويضاً في التشريع هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل الرسل بلغوا عن الله ولم يبلغ واحد منهم عن نفسه شيئاً إلا سيدنا رسول الله ، فقد فوضه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » - إذن فالرسول مهمة داخلية في إطار القرآن أيضاً ، ومثال ذلك في حياتنا نجد من يقول لموظف : إن الموظف الذي يغيب خمسة عشر يوماً في قانون الدولة يفصلونه ، فيأتي موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذي نقوله عن فصل الموظف غير دستوري .

نقول له : إن الدستور قال في هذه المسألة : وتؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين في هذا المجال ، إذن فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً يطبق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكل بنود قانون العاملين تدخل في التفويض الذي نص عليه في الدستور للهيئات أو للجان التي تضع التشريعات الفرعية ، فكذلك إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وأن الفجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول : دليل من القرآن : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول صلى الله عليه وسلم كى يضمن سلامة المنهج من هذه التحريفات التي يفترونها يقول :

« لَا أَفِيئُ أَحَدَكُمْ مَتَكُنَّا عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْبَعَةٍ ، بِأَمْرٍ أَمَرْتُ بِهِ ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ ، فَيَقُولُ : لَا أُحَرِّى مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ » .

وفي رواية أخرى : عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ألا هل عصي رجلٌ يتلَّغه الحديثُ عني وهو متكئٌ على أريكته ، فيقول :
يبتنا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً
حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله ،^(١) .

أروى هذا الحديث عن الرسول كي تعرفوا غباء القائلين بهذا ، ولنقل لهم :
قولكم هذا دليل على صدق الرسول ، بالله فلولم يأت واحد بمثل قولكم بأنه لا يوجد
إلا القرآن ، بالله ماذا كنا نقول للمحدثين الذين رَووا حديث رسول الله ، ولولم
يقولوا هذا لقنا : النبي قال : يتكبر رجل على أريكته ويتحدث ، ولم يتكلم أحد
بما يخالف هذا الكلام . إذن فوجود هؤلاء دليل صدق رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وما دام الله قد أرسله صلى الله عليه وسلم منه إلى خلقه فيكون مع هذه
الرسالة الطاعة والطاعة هي : الاستجابة للطلب . وأنواع الطلب كما يقول الذين
يشتغلون في البلاغة والنحو كثيرة ، فمرة تمنى شيئاً مستحيلاً مثل قول القائل : ليت
الكواكب تدنو لي فأنظّمها

ليت الكواكب تدنو لي فأنظّمها
عقود مدح فما أرضى لكم كليمي
والكواكب لن تنزل بطبيعة الحال . أو كقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب
هذا لون من الطلب يدل على أن الطلب محبوب ، لكنه لا يقع وقد يقع ، وكذلك
الاستفهام طلب شيء لأنك تستفهم عن شيء كقولك لمن تزوره : من عندك ؟ . وأما
أن تطلب شيئاً ليفعل فهذا هو الأمر ، أو تطلب شيئاً ليجتنب فهذا هو النهي ،
فتكون الطاعة هي : أن نجيب طالباً إلى ما طلب .

والطالب إما أن يطلب بأمر لتفعله وإما بنهي لتجتنبه . وإذا أطلقت الطاعة
إطلاقاً عاماً فهي لا تنصرف إلا لطاعة العبد لربه ، وبعد ذلك تقول : الولد أطاع
أباه ، الطالب أطاع أستاذه ، العامل أطاع معلمه ، فهذه طاعة مضافّة إلى مطاع ،

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الْعِلْمِ وَالْفِطْرِ لَهُ ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ .

لكن إن أطلقت كلمة الطاعة فهي تنصرف إلى طاعة العبد لله ، وهذه أسلم أنواع الطاعات ، لماذا ؟ .

لأن أمر كل أمر ، أو نهى كل ناهي ، قد يشكك فيه أنه أمرك بكذا ليعود عليه بالفائدة ، أو نهائك عن كذا ليعود عليه بالفائدة ، لكن إذا كان الذي طلب منك هو في غنى عن عملك وعن انتهائك ، فهذه مسألة لا يكون فيها شبهة ، فالذي يشكك الإنسان في الطاعة هو المخافة أن يكون الطالب قد طلب أمراً يعود عليه بالمنفعة ، أو نهى عن أمر يعود على الناهي بالمنفعة أو يدفع عنه مضرة . لكن إذا كان الطالب له كل صفات الكمال المطلق قبل أن توجد أنت ، فوجودك وعملك وعدم عملك لا يعود عليه بشيء ، فتكون هذه هي أسلم أنواع الطاعة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله » .^(١)

إن المنافقين هم الذين يتعبهم وجود نور لأنهم ألفوا الحياة في ظلام ، ويرهقهم وجود عدل ؛ لأنهم استمرأوا الحياة في المظالم ، لذلك فهم يحاولون أن يتصيدوا شيئاً ليقتفوا في أمر هذه الدعوة ، فقالوا : أما سمعتم لصاحبكم . إنه قارب الشرك . . يقول : لا تعبدوا إلا الله ومع ذلك يريد أن يجعل من نفسه رباً له حب وله طاعة .

ويتزل الحق على رسوله قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

إذن فالطاعة هنا ليست ذاتية للرسول ؛ لأنها إما بلاغ عن الله في النص الجزئي ، وإما بلاغ عن الله في التفويض الكلي ، ومادامت بلاغاً من الله في التفويض الكلي فيكون الله قد أمته أن يشرع : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ما هو مقابل الطاعة ؟ . إنه التوكل والعصيان ، ورأينا الناس تنقسم تجاه الرسول إلى قسمين : قسم يطيعه في « افعل ولا تفعل » ، وما لم يرد فيه : « افعل

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه البخاري ومسلم .

ولا تفعل : فهو داخل في حكم المباحات ، إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ، فالذين يستجيبون للرسول أى يطيعونه فى « افعل ولا تفعل » هم من أقبلوا على المنج . والذين لا يطيعونه فقد « تولوا » أى أعرضوا وصدّوا .

انظروا إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يحصى نفسه الرسول فيقول سبحانه : « ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيزاً » فالتى يتولى ولا يطيع الرسول ، فالحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان .

وهناك فرق بين « أرسلناك لهم » أو « أرسلناك إليهم » ، و « أرسلناك عليهم » . فـ « أرسلناك لهم » تعنى أنك تبلغ فقط ، إنما « عليهم » فهى تعنى لتحملهم على كذا ، أى يجب أن تتبى يا محمد إنا أرسلناك للناس - لا على الناس - لتبلغهم ، فمن شاء فليطع ومن شاء فليعص ، فلا تجهد نفسك وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمراً ما كلفك الله به :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٧٢ سورة البقرة)

والحق يقول أيضاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝١١ ﴾

(سورة الفاشية)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

« جبار » يعنى تجبرهم على أن يطيعوا . فالإجبار يتناقى مع التكليف ويتناقى مع دخول الإيمان طواعية ويتناقى مع الاختيار . « فما أرسلناك عليهم حفيزاً » والحفيز هو : الحافظ بمبالغة ، تقول مثلاً : هذا حافظ مال فلان ، وهذا حفيز مال الناس جميعاً يعنى عنده مبالغة فى الحفظ ، إذن فالمبالغة جاءت فى تكرير الحدث فهو يحفظ

لذلك الإنسان ولغيره . والحق يؤكد ذلك لمصلحته صلى الله عليه وسلم ، لأنه سبحانه بين لنا شغل رسول الله بأمته ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مؤمنين ملتزمين مطيعين ، ولذلك يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ١ ﴾

(سورة الشعراء)

إنهم لا يؤمنون ، فيوضح له سبحانه : أرح نفسك ، فعليك البلاغ فقط . وهكذا يخفف الله مهمة الرسول .

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حمل نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل من يثيرون قصة ابن أم مكتوم ، فيقولون : النبي أخطأ ولذلك قرعه الله ووبخه .

نقول لهم : كان الرسول يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يستغفم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه ! لكن النبي صلى الله عليه وسلم ترك السهل وذهب للصلب ، فكانه سبحانه يتساءل : لماذا أتعبت نفسك . وما عليك ألا يزكى ، أي ما الذي يجعلك تتعب ، إذن فهو يلومه لصاحبه لا لأنه خالف .

فكان الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، إنما قاله ليخفف عن الرسول . إذن الحفيظ هو الذي يحافظ على من يبلغه أمر الله وأن يكون سائراً على منهج الله . إن أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون في التكليف أو لا يدخلون .

إذن فالحفيظ هو المهيم والمسيطر ، كما قال في الآيات الأخرى : والمسيطر أو الجبار هو الذي يحملهم على الإيمان . والكلام في الطاعة المقصودة لله . وأن تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيها تسمعه أذنك وما ينطق به لسانك ، وليست الطاعة أن تقول : يا رسول الله نحن طائعون ، وبعد ذلك تحاول أن تخدش هذه الطاعة بأن

تجعلها طاعة لسان وليست طاعة جوارح . فطاعة اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان .

ولهذا يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ
بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ

وَكِيلًا ﴿٨١﴾

هنا يوضح الحق لرسوله : ستعرض لطائفة من أمة الدعوة وهم الذين أمرك الله أن تدعوهم إلى الدخول في الإسلام ، - أما أمة الإجابة فهم الذين استجابوا لله وللرسول وأمنوا فعلا - إن هؤلاء يقولون لك حين تأمرهم بشيء أو تطلب منهم شيئا أمراً أو نهياً : « يقولون طاعة » معنى : أمرنا وشأننا طاعة ، أى أمرك مطاع ، « فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذى تقول » ، ويقال : برز أى خرج للبراز ، والبراز هو : الأرض الفضاء الواسعة ، ولذلك يقول المقاتل لمن يتحداه : ابرزلى ، أى اخرج من الكن أو الحصن ، وكان العرب سابقاً لا يقضون حاجتهم في بيوتهم ، فإذا ما أرادوا قضاء حاجتهم ذهبوا إلى الغائط البعيد ، وجاء من هذه الكلمة لفظ يؤدى قضاء الحاجة في الخلاء .

« فإذا برزوا من عندك » أى خرجوا ، فهم يديرون أمر الطاعة التى أمروا بها في رموسهم فيجلدونها شاقة ، فيبينون أن يخالفوا ، ونعرف أن كلمة « بيّت » تعنى المأوى الذى يؤوى الإنسان . وأحسن أوقات الإيواء هو الليل ، فسموا البيت الذى نسكنه « ميئاً » لأننا نبني عادة في البيت المقام في مكان والمكون من حجرات ، والمستور ، ويقولون : هذا الأمر بيّت بليل ، أى دبروه في الليل ، وهل المراد ألا يبيتوا في

النهار ؟ لا ، لكن الشائع أن يبيتوا في ليل . يفعلون ذلك وهم بعيدون عن الأعين ، فيدبرون جيداً ؛ وإن كان المقصود هو التبييت في ظلام فهذا المعنى يصلح أيضاً ، وإن كان سراً فالمعنى يصح أيضاً .

إذن فالأصل في التبييت إنما يكون في البيت . والأصل أن تكون البيوتة ليلاً ، ومدار المادة كلها الاستخفاء ، فإذا بُيت في ظلام نقول إنه بُيت بليل ، وإذا بُيت سراً نقول : بُيت بليل أيضاً .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول » أي إنهم إذا ما خرجوا بيتوا أمراً غير الذي تقول ، فهم يعلنون الطاعة باللسان بينما يكون سلوكهم على العكس من ذلك ، فسلوكهم هو العصيان أو « طاعة » غير الذي تقولها . فإن قلت : افعلوا فلن يفعلوا ، وإن قلت : لا تفعلوا فهم يفعلون عكس ما تأمر به . إنهم يطيعون أهواءهم وشياطينهم .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول » يعني قالت طائفة : أئمرنا وشأننا طاعة لما تقول ، أو أطعناك طاعة ولكنهم يبيتون غير ما تقول فهم إذن على معصية . « والله يكتب ما يبيتون » وسبحانه يكتب نتيجة علمه ، وجاء بكلمة « يكتب » حتى يعلموا أن أفعالهم مسجلة عليهم بحيث يستطيعون عند عرض كتابهم عليهم أن يقرؤوا ما كتب فيه ، فلو لم يكن مكتوباً فقد يقولون : لا لم يحدث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من هذه الطائفة ، لأنها تستبطن أمر الدعوة ، لذلك يوضح الحق : إنك لن تنصُرَ بمن أرسلت إليهم وإنما تنصُرَ بمن أرسلك ، فإليك أن ينال ذلك من عزيمتك أو يشعلها نحو الدعوة . فإذا حدث من طائفة منهم هذا فـ « أعرض عنهم » أي لا تخاطبهم في أمر من هذه الأمور ودعهم ودع الانتقام لي ، لأنني سأنصرك على الرغم من مخالفتهم لك ، واتجه إلى أمر الله الذي أرسلك .

ونعلم أن المصلحة في كل الرسائل إنما تكون عند من أرسل ، ولكن المرسل إليه قد تتبعه الدعوة الجديدة ؛ لأنها ستخرجه عن هوى نفسه ، ومستلزمات طيشه ، فالذي أرسلك يا محمد هو الضامن لك في أن تنجح دعوتك .

« فاعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » لماذا ؟ لأن الذين يؤمنون بك محدودو القدرة ، ومحدودو الحيلة ، ومحدودو العدة ، ولكن الذي أرسلك يستطيع أن يجعل من عدد خصومك ومن عُدَّة خصومك جنوداً لك ، وينصرك من حيث لا تحسب . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى بدأ قضية الإسلام وكان المؤمنون بها قلة ، فلو جعلهم كثرة لقاتلوا : كثرة لو اجتمعت على ظلم لنجحت ، ولكن عندما تكون قلة وتنجح ، فهذا قال طيب ويشير على أنك لست منصوراً بهؤلاء وإنما أنت منصور بمدد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

وإذا سمعت كلمة « أفلا » فاعلم أن الأسلوب يقرع من لا يستعمل المادة التي بعده . « أفلا يتدبرون القرآن » أى كان الواجب عليهم أن يتدبروا القرآن ، فهناك شيء اسمه « التدبر » ، وشيء اسمه « التفكير » ، ثالث اسمه « التذكر » ، ورابع اسمه « العلم » ، وخامس اسمه « التعقل » ، ووردت كل هذه الأساليب في القرآن ، « أفلا يعلمون » ، « أفلا يعقلون » ، « أفلا يتذكرون » ، « أفلا تفكرون » . هي إذن تدبر ، تفكر ، تذكر ، وتعقل ، وعلم .

وحين يأتى مخاطبك ليطلب منك أن تستحضر كلمة « تدبر » ، فمعنى هذا أنه واثق من أنك لو أحملت عقلك إعمالاً قوياً لوصلت إلى الحقيقة المطلوبة ، لكن الذى يريد أن يخشك لا ينبه فيك وسائل التفتيش ، مثل التاجر الذى تدخل عنده لتشتري قميصاً ، فيعرض قميصه ، ويريد أن يثبت لك أنه قميص طبيعى وقوى وليس صناعياً ، فيبته لك ويحاول أن يمزقه فلا يتمزق ، إنه ينبه فيك الحواس الناقدة ، فإذا نبه فيك الحواس الناقدة فمعنى ذلك : أنه واثق من أن إعمال الحواس الناقدة فى

صالح ما ادعاه ، ولو كان قياشه ليس في صالح ما ادعاه لحاول خداعك ، لكنه يقول لك : انظر جيداً وجرب .

والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن » والتدبر هو كل أمر يُعرض على العقل له فيه عمل فتفكر فيه لتتظر في دليل صدقه ، هذه أول مرحلة ، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر النتيجة التي تعود عليك لو لم تعملها ، والتدبر تعنى أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها ، فالرسول يبلغك : الإله واحد ، إبحث في الأدلة بفكرك ، فإذا ما انتهيت إليها أمنت بأن هناك إلهاً واحداً . وإليك أن تقول إنها مسألة رفامية أو سفسطة ، لأنك عندما تنظر العاقبة ماذا ستكون لو لم تؤمن بالإله الواحد . سيكون جزاؤك النار .

إذن فتدبرت تعنى : نظرت في أدبار الأشياء وحاولت أن ترى العواقب التي تحدث منها ، وهذه مرحلة بعد التفكير . فالتفكير مطلوب أن تتذكر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان . فالتفكير يأتي أولاً وبعد ذلك يأتي التدبر . وأنت تقول - مثلاً - لايتك : لكي يكون مستقبلك عالياً وتكون مهندساً أو طبيباً عليك أن تذاكر وتجتهد ، فيفكر الولد في أن يكون ذا مكانة مثل المتفوقين في المهن المختلفة في المجتمع ، ويبلل الجهد .

إذن فأول مرحلة هي : التفكير ، والثانية هي : التدبر ، فإذا غفلت نقول لك : تذكر ما فكرت فيه وانتهيت إليه وتدبر العاقبة ، هذه كلها عمليات عقلية : فالتفكير يبدأ بالعقل ، والعقل ينظر أيضاً في العاقبة ثم تعمل الحافظة لتذكرك بما فات وبما كان في بؤرة الشعور ثم انتقل إلى حاشية الشعور ، فإذا كنت قد تعقلت الأمر لذاتك يقال : عقلته . فإن فهمت ما عقله غيرك فقد علمت ما عقله فلان .

إذن فليس ضرورياً أن تكون قد انتهيت إلى العلم بعقلك ، بل أنت أخذت حصيلة تعقل غيرك ، ولذلك عندما ينفي ربنا عن واحد العلم فإنه قد نفى عنه التعقل من باب أولى ، ذلك أن العلم يعنى قدرته على تعقل قدرات غيره ، دون الوصول إلى قوانينها وقواعدها وأصولها ، إنه فحسب يعلم كيف يستفيد ويستفيع بها ، وفي حياتنا اليومية نجد أن الأمي يتضع بالتلفزيون ويتضع بالكهرباء ، أى انتضع بعلم غيره . لكنه لا يتعقل قدرات ذلك العالم . إذن فدائرة العلم أوسع ، لأنك تعرف بعقلك أنت . أما في دائرة العلم فإنك تعلم وتفهم ما عقله سواك .

ولذلك فعندما يأتى ربنا ليعرض هذه القضية يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧)

(سورة البقرة)

وفى المعنى نفسه يأتى فى آية أخرى عندما يقول لهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٨)

(سورة المائدة)

فى الآية الأولى قال سبحانه : « لا يعقلون » لأنهم قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » بدون طرد لغيره ، وفى الثانية قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » بإصرار على رفض غيره والخضوع لسواه ، فقال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وسبحانه هنا نفى عن آباؤهم العلم الذى هو أوسع من نفى التعقل ؛ لأن نفى التعقل يعنى نفى القدرة على الاستنباط . لكنه لا ينفى أن يتفحص الإنسان بما استنبطه غيره .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . . . والحق سبحانه وتعالى حينها يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجهم أن يتدبروا القرآن ، معناه أنه يجب منهم أن يعملوا عقولهم فيها يسمعون ، لأن الحق يعلم أنهم لو أعملوا عقولهم فيها يسمعون لانتهوا إلى قضية الحق بدون جدال ، ولكن الذى يجعلهم فى مواقف يعلنون الطاعة « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إن هذا دليل على أنهم لم يتدبروا القرآن ، وقوله الحق : « أفلا يتدبرون » تأتى بعد تلك الآية ، كأنها جاءت ودليها يسبقها ، فهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله وأن هذا كلام حق .

وبالله حين يبيتون فى نفوسهم أو يبيتون بلبيل غير الذى قالوه لرسول الله ، فمن الذى قال لرسول الله : إنهم يبيتوا هذا ١٩

إذن فلو تدبروا مثل هذه لعلموا أن الذي أخبر رسول الله بسرائرهم وتبينهم ومكرهم إنما هو الله ، إذن فرسول الله صادق في التبليغ عن الله ، ومادام رسول الله صادقا في التبليغ عن الله ، فتعود للآية الأولى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وكل الآيات يُخدم بعضها بعضها ، فالقرآن حين نزل باللسان العربي شاء الله ألا يجعل كل مستمع له من العرب يؤمن به أولا ، لأنهم لو آمنوا به جميعا أولاً لقالوا : إيمانهم بالقرآن جعلهم يتغاضون عن تحدى القرآن لهم . لكن يظل قوم من اللواجهين بالقرآن على كفرهم ، والكافر في حاجة إلى أن يُعارض ويُعارض . فإذا ما وجد القرآن قد تحداه أن يأتي بمثله ، وتحده مرة أن يأتي بعشر سور من مثله ، وتحده بأن يأتي بأقصر سورة من مثله ، هذا هو التحدى للكافر . . ألا يبيح فيه هذا التحدى غريزة العناد ؟ ولم يقل منهم أحد كلمة ، فما معنى ذلك ؟ معناه : أنهم مقتنعون بأنه

لا يمكن أن يصلوا لذلك واستمروا على كفرهم وكانوا يجترئون ويقولون ما يقولون . ومع ذلك فالقرآن يمر عليهم ولا يجدون فيه استدراكاً .

كان من الممكن أن يقولوا : إن عمدا يقول القرآن معجز وبلغ وقد أخطأ في كذا وكذا . ولو كانوا مؤمنين لأخفوا ذلك ، لكنهم كفارون والكافر يحميه أن يشيع أى خطأ من القرآن ، وبعد ذلك يأتي قوم ليست لهم ملكة العربية ولا فصاحة العربية ، ليقولوا إن القرآن فيه مخالفات ! فكيف يتأتى لهم ذلك وليس عندهم ملكة العربية ، ولغتهم لغة مصنوعة ، وليس لهم ملكة فصاحة ، فكيف يقولون : إن القرآن فيه مخالفات ؟ لقد كان العرب الكافرون أولى بذلك ، فقد كانت عندهم ملكة وفصاحة وكانوا معاصرين لنزول القرآن ، وهم كفارون بما جاء به محمد ولم يقولوا : إن في القرآن اختلافاً !! هذا دليل على أن المستشرقين الذين ادعوا ذلك يعانون من نقص في اللغة .

ونقول لهم : لقد تعرض القرآن لأشياء تُثبت فصاحته وبلاغته عند القوم الذين نزل لهم أولا . فمنهم من سيجملون منهج الدعوة ، ثم حل القرآن معجزات أخرى لغير الأمم العربية ، فمعجزة القرآن ليست فصاحة فقط ، ولا لقال واحد : هو أعجز العرب ، فما شأن العجم والرومان ؟ ونقول له : أكل الإحجاز كان في أسلوبه ؟ لا ، الإحجاز في أشياء تتفق فيها جميع اللسان في الدنيا ، لأنه يأتي ليثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة خصومه لم يبارح الجزيرة إلا في رحلة

التجارة للشام ، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم ، وكلهم يعرف هذا ، حتى الغلظة التي أخطأوا فيها ، جاء ربنا بها ضدكم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ ۖ

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النحل)

يقصدون بـ : « بشر » هذا غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه ، أو غلاماً آخر رومياً أو سلبان الفارسي ، فأوضح الحق : تعقلوا جيداً ، فمحمد لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب في رحلات . وبعد ذلك جاء القرآن تحدياً لا بالمنطق ولا باللغة ولا بالفصاحة ولا بالبيان فحسب ، بل بالأمر الشامل لكل العقول وهو كتاب الكون . ووقائمه وأحداثه التي يشترك فيه كل الناس .

والكون - كما نعرف - له حجب ، فالأمر الماضي حجاب الزمن الماضي والذي كان يعيش أيامه يعرفه ، والذي لم يكن في أيامه لا يعرفه ، إذن فأحداث الماضي حجبها الزمن الماضي ، وأحداث المستقبل حجبها المستقبل لأنها لم تقع بعد . والحاضر أماناً ، فنجعل له حاجزاً هو المكان ، فيأت القرآن في أساليبه يخرق كل هذه الحجب ، ثم يتحدى على سبيل المثال ويقول :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنْتَ ثَارِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَرْسَلْنَا الْمَلَائِكَةَ ۖ ﴾

(سورة العنكبوت)

وكل « ما كنت » في القرآن تأتي بأخبار عن أشياء حدثت في الماضي . بالله لو كانوا يعلمون أنه علم أو جلس إلى معلم ، أكانوا يسكتون ؟ طبعاً لا ، لأن هناك كفاراً أرادوا أي ثغرة لينفذوا منها ، وبعد ذلك يأتي القرآن لحجاب الزمن المستقبل ويخرقه ، يحدث ذلك والمسلمون لا يقدرّون أن يحموا أنفسهم فيقول الحق :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدَّبْرَ ١٥ ﴾

(سورة القمر)

حتى أن عمر بن الخطاب يقول : أي جمع هذا ؟ وينزل القرآن بآيات تتل وتسجل وتحفظ .. وتأتي غزوة « بدر » ويهزم الجمع فعلاً . وتنزل آية أخرى في الوليد ابن المغيرة الجبار المقتري :

﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخَرْطُومِ ١٦ ﴾

(سورة القلم)

ويتساءل بعضهم : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتي غزوة « بدر » فينتظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذي خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله . وليس محمداً ، فإذا تدبرتم المسائل حق التدبر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مبلغ للقرآن ، وأن الذي قال القرآن هو الإله الذي ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له ، ويأتى القرآن فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هم قالوا في أنفسهم ولم يسمع لهم أحد ، ثم ينزل القرآن فيخبر بما قالوه في أنفسهم .. فإذا يقولون إذن ؟ وهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي أخبر رسول الله بما قالوا في أنفسهم .. فهذه الآية « أفلا يتدبرون القرآن » جاءت بعد « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول » ، إذن فقد فُضحوا ، فلو كانوا يتدبرون لعلموا أن الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هو الذي أخبره بما بيتوا ، والذين لا يفهمون اللغة يطبقون فرحاً باختلاف توهموا أنه موجود بالقرآن ، يقولون : إن الحدث الواحد المنسوب إلى فاعل واحد لا ينفي مرة ويثبت مرة أخرى ، فإن نفيته لا تثبته ، وإن أثبته لا تنفيه ، لكن القرآن فيه هذا .

وهي لهم ذلك في قول الحق :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

وما رميت « هو نفى « الرمي » ، « إذ رميت » أثبت « الرمي » وجاء القرآن بالفعل وهو « رميت » ، والفاعل هو « رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكيف يثبت الفعل مرة وينفي مرة في آية واحدة ؟ ونقول لهم : لانكم ليس عندكم ملكة العربية قلتم هذا الكلام ، أما من عنده ملكة العربية وهي أصيلة وسليقة وطبيعة وسجية فيه ، فقد سمع الآية ولم يقل مثل هذا الكلام ، مما يدل على أنه فهم مؤداها .

ثم لماذا نتعد ونقول من أيام الجاهلية ، لناخذ من حياتنا اليومية مثلاً ، أنت إذا ما جئت مثلاً لولدك وقلت له : ذاكر لأن الامتحان قد قرب ، وأنا جالس معك لأرى هل ستذاكر أو لا . فيأخذ الولد كتابه ويجلس إلى مكتبه وبعد ذلك يفتح الكتاب ويقلب الأوراق ويهز رأسه . وبعد مدة تقول له : تعال انظر ماذا ذاكرت . فتمسك الكتاب وتساله سؤالين فيما ذاكر .. فلا يجيب ، فتقول له : ذاكرت وما ذاكرت . أي أنك فعلت شكلية المذاكرة ، ولا حصيلة لك في موضوع المذاكرة .

قولك : « ذاكرت » هو إثبات للفعل ، وقولك : « وما ذاكرت » هو نفى للفعل . فإذا جاء فعل من فاعل واحد مثبت مرة ومنفى مرة من كلام البليغ . فاعلم أن جهة الإثبات غير جهة النفي .

وقوله الحق : « وما رميت إذ رميت » فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاء إلى المعركة أخذ حفنة من الحصى ، وجاء ورمى بها جيش العدو .

إذن فالعملية الشكلية قام بها النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الرسول الله قدرة أن يرسل الحصى إلى كل جيش العدو ؟ إن هذه ليست في طاقته ، فقوله الحق : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . أنت أخذت شكلية الرمي ، أما موضوعية الرمي فهي الله سبحانه وتعالى .

ويأتى مثلاً في آية أخرى يقول :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

وهذا نفى . ثم يقول بعدها مباشرة :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الروم)

وتساءلون أيقول : « لا يعلمون » . . ثم يقول : « يعلمون » بعدها مباشرة ؟
نعم فهم لا يعلمون العلم المفيد . وقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أنهم
لا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها . فإذا جاء فعل فثبت مرة ونفى مرة أخرى
فلا بد أن الجهة متفكة .

مثال ذلك هو قول الحق :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول القرآن في موقع آخر :

﴿ وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾

(سورة الصافات)

ومعناها أنهم سيُسألون . ونقول : اجعلوا عندكم ملكة العربية ، ألا يسأل
الأستاذ تلميذه . إذن فالسؤال قد يقع من العالم ليُعلم ما عند المسئول ويُقرَّ به ،
وليس ليُعلم العالم ما عند المسئول ، وعندما يقول ربنا : « وقفوهم إنهم
مسئولون » . . فإياكم أن يذهب ظنكم إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم ، وإنما يسأل
ليقرركم لتكون حجة الإقرار أقوى من حجة الاختبار . إذن فإن رأيت شيئاً نفى ،
وأثبت في مرة أخرى فاعلم أن الجهة متفكة . وحينما نتكلم عن إعجاز القرآن نجده
يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الانعام)

وجاء في الآية الثانية وقال ربنا :

﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

قد يقول من لا يملك ملكة اللغة : فأيها بليغة ؟ إن كانت الأولى فالثانية ليست بليغة ، وإن كانت الثانية فالأولى ليست بليغة .

نقول له : أنت أخذت عجز كل آية فقط . وعليك أن تأخذ عجز كل آية مع صدرها . صحيح أن عجز الآية مختلف ؛ لأنه يقول في الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » وفي الثانية يقول : « نحن نرزقهم وإياكم » . ولكن هل صدر الآية متحد ؟ لا ، فصدر كل آية مختلف ؛ لأنه قال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . فكان الإملاق موجود .. حاصل ؛ لذلك شغل المخاطب برزقه قبل أن يشغل برزق ولده .. ويخاف أن يأتي له الولد فلا يجد ما يطعمه . لأنه هو نفسه فقير . فيطمئنه الله على رزقه أولاً ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق من سيأتي : « نحن نرزقكم وإياهم » .. لكن في الآية الثانية لم يقل ذلك .. بل قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتي الولد ، ومادام قد قال : « خشية إملاق » فهذا يعني أن الإملاق غير موجود ، ولكنه يخاف الإملاق إن جاء الولد ، يخاف أن يأتيه الولد فيأتيه الفقر معه ، فأوضح الحق له : لا تخف فسيأتي الولد برزقه .. « نحن نرزقهم وإياكم » إذن إن نظرت إلى الآية عجزها مع صدرها .. تجد العلاقة مكتملة ، ويحاول بعضهم أن يجد منفذاً للطعن في بلاغة القرآن فيسأل لماذا يقول الحق في آية في القرآن :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفي سورة ثانية يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤٣)

(سورة الشورى)

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا الآيات على حقيقتها . ففي الآية الأولى يقول : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » أى في المصائب التي لا غريم لك فيها . ومادام ليس لك غريم فيها .. فماذا تفعل ؟ لكن إذا كان لك غريم وخصم فقد تتحرك نفسك بأن تنتقم منه . ولذلك فانتبه لقوله الحق : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يناسب الموقف الذي لا يوجد فيه غريم ، وفي

الآية الثانية : « إن ذلك لمن عزم الأمور » فالآية تناسب الموقف الذي فيه غريم لأنك ستصبر على المصيبة وعلى من عملها من غريم ؛ لأنك كلما رأيته تهبج نفسك وهذا يحتاج لتأكيد الصبر بقوة ، وتلك هي كلمات المستشرقين الذين يريدون الطعن في القرآن ويقولون لنا : أنتم تنظرون للقرآن بقداسة لكنكم لو نظرتهم إليه بتخصص لوجدتم أن فيه اختلافات كثيرة ، نقول لهم : قولوا لنا المخالفات ، ونحن ردنا على هذا في ثانيا خواطرتنا عن القرآن ، ومنهم من يقول لك مثلاً : القرآن عندما تعرض لقضية خلق السموات والأرض جاءت كل الآيات لتؤكد أن الله سبحانه خلقها في ستة أيام .. لكنهم يقولون عندما نذهب إلى آيات التفصيل في قوله :

﴿ قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ① وَجَعَلَ فِيهَا رَواسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَا النَّهْلَيْنِ ② ثُمَّ أَتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ③ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ④ ﴾

(سورة فصلت)

نجدنا ثمانية أيام فقالوا : هذا خلاف . نقول لهم : أنتم لم تفهموا . فسبحانه حين قال : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض » ، فهل تكلم عما تستقيم به الحياة على الأرض ؟ إنه عندما تكلم عن الأرض يقول : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتعملون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسٍ من فوقها » ، فهذه تكون تنمة الأرض لأنه يتكلم عن الأرض .. « وجعل فيها » أى الأرض .. « رواسٍ من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وكل ذلك في الأرض .. إذن فالمرحلة الثانية مرحلة تنمة خلق الأرض فسبحانه خلق الأرض كجرم أولاً ، وبعد ذلك جعل فيها الرواسي وجعل فيها الأقوات وبارك فيها . في كم يوماً ؟ في أربعة أيام فكان اليومين الأولين دخلاً في الأربعة ، لأن هذه تنمة خلق الأرض .

وفيه المثل الأعلى ، مثلما تقول : سرت من هنا إلى الإسماعيلية في ساعة ، وإلى بورسعيد في ساعتين ، فقولك : إلى بورسعيد في ساعتين ، يعنى أن الساعة الأولى تم حسابها ، إذن فهؤلاء المستشرقون لم يفهموا معطيات القرآن ؛ لذلك يقول سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » فإن وجدت شيئا ظاهريا يشير تساؤلا في القرآن فأعمل عقلك ، وأعمل فكرك كي تعرف أن التناقض في فهمك أنت وليس التناقض في القرآن ؛ لأنه من عند من إذا قص واقعا قصه على حقيقته ، وعند من لا يغيب شيء عنه ، لا حجاب الزمن الماضي ، ولا حجاب الزمن المستقبل ، ولا حجاب المكان ، ولا حجاب المكين « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، فالقرآن كتاب كبير به أربع عشرة ومائة سورة ، بالله هاتوا أى أديب من الأدباء كي يكتب هذا ، ثم انظروا في فصاحته ، إنكم ستجدونه قويا في ناحية وضعيفا في ناحية أخرى ، وبعد ذلك قد تجدونه أخل بالمعنى ، وقال كلمتين هنا ثم جاء بما يناقضها بعد ذلك ! مثلما فعل أبو العلاء المعرى عندما قال :

نحططنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
وكان أيام قوله هذا: ينكر البحث .

وعندما رجع إلى صوابه بعد ذلك قال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صَحَّ قولكما فليست بخاسر أو صَحَّ قولي فالحُसार عليكما

إذن فالتناقض يأتى مع صاحب الأغيار الذى كان له رأى أولاً ثم عدلته التجربة أو الواقع إلى رأى آخر . لكن ربنا سبحانه وتعالى لا يتغير ومعلومه لا يتغير فهو الحق ، إذن فالتناقض يأتى إما من واحد يكذب ، لأن الواقع لم يحكمه ، وإما من واحد هو في ذاته متغير ، فرأى رأياً ثم عدل عنه ، فيكون متغيراً . لكن الحق سبحانه وتعالى لا يتغير .. ويقول على الواقع الحق : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ..

والواقع أيضاً أننا نجد كل قضية قرآنية تعرض كنص من نصوص القرآن أنزله الله على رسوله .. هذه القضية القرآنية في كون له تغيرات ، والتغيرات بعضها يكون من

مؤمن بالقرآن ، وبعضها يكون من غير مؤمن بالقرآن ، فهل رأيت قضية قرآنية ثم جاءت قضية الكون حتى من غير المؤمنين فكذبتها ؟ لا ، هم في الغرب مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى اخترعوا أسطوانة تحطيم الجواهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ .. وكانت تلك أول مرحلة في تفتيت الذرة ، ونجد القرآن يضرب المثل بالذرة ، وأنها أصغر شيء في قوله سبحانه :

﴿ قَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ ﴾

(سورة الزلزلة)

وضع العلماء أيديهم على قلوبهم لأن الذرة قد تفتت . فوجد ما هو أصغر من الذرة !! ووجدنا من قرأ القرآن .. وقال : إن القرآن نزل في عصر كان أصغر شيء فيه « الذرة » عند العرب القديم ، والله يعلم ألا أن العلم سيطمح ويرتقى ويفتت الذرة ، فقال :

﴿ عَنَلِمِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا

أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٨ ﴾

(سورة سبا)

لقد تدبر صاحب هذا القول القرآن وفهم عن الله الذي تتساوى عنده الأزمنة ، فالمستقبل مثل الماضي ، ليس عنده علم مستقبل وعلم حاضر وعلم ماضٍ ، وأوضح لنا : أن هناك ما هو أصغر من الذرة . فلو فتتوا المفتت منها لوجدنا في القرآن له رصيذاً .

تعالوا للقضايا الاجتماعية مثلاً . تجدوا أى قضية قرآنية يجتمع لها خصوم القرآن ليجندوا مطعناً ، فنجد من لم يفهموا من المسلمين يهرون وراءهم ويقولون : هذه الأمور لم تعد ملائمة للعصر ، ثم نجد أعداء الإسلام يواجهون بظروف لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا ما جاء في القرآن .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف في القراءات . . مثل قوله تعالى :

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ١ ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول : هناك من يقرأها « ملك يوم الدين » . . لكن هناك ما يُسمى « تريب الفائدة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « مَلِك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند غير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان - أي القرآن - « من عند غير الله » أخير الله كان يأتي بقرآن ! لا . إنما القرآن لا يأتي إلا من الله سبحانه وتعالى ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكان الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهى إلى مطلوبات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكان الإنسان مزود بآلة فكرية . . هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف يناقض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تحمد آية تختلف مع آية أخرى ، فكان الذي قال هذه نسي أنه قالها ! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كي لا يخالفه ثانياً . .

إذن فلا تضارب ولا اختلاف في القرآن ، لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٧﴾

الحق سبحانه وتعالى يرى الأمة الإيمانية على أسلوب يضمن ويؤمن لهم سرية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عنيف ولهم خصوم أشداء ، فيريهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول : « وإذا جاءهم أمر » . أى إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبی عليه الصلاة والسلام سيخرج في سرية إلى المنطقة الفلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كى تنضم إليه ، وعندما يسمع الضعاف المنافقون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط الحصوم بمحاصرة القبيلة التى وعدت الرسول أن تقاتل معه كى لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبی سيخرج ليفعل كذا فيذيعوا أيضاً هذا الخبر ! ف أوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك فى أى خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد لهذا المنهج أن يسيطر ، لأن هذا المنهج له خصوم .

إياكم أن تسمعوا أمراً من الأمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون فى صالحهم « أو الخوف » أى من عدوهم « أذاعوا به » .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، فـ « أذاعه » يعنى « قاله » ، أما « أذاع به » فهى دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكان الخبر بذاته هو الذى يذيع نفسه ، فهناك أمر تحكيه وتنتهى المسألة ، أما « أذاع به » فكان الإذاعة مصاحبة للخبر وملزمة له تنشره وتخرجه من طى محدود إلى طى غير محدود . . أو من أذان محترم خصوصية الخبر إلى أذان تتعقب الخبر ، ثم يقول : « ولوردوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « النبط » وهو ظهور الشيء بعد خفائه ، واستنبط أى استخرج الماء مجتهداً فى ذلك والنبط هو أول مياه تخرج عند حفر البئر فنقلت الكلمة من المحسات فى الماء إلى المعنويات فى

الأخبار . وصرنا نستخدم الكلمة في المعاني ، وكذلك في العلوم . مثلاً تعطى الطالب مثلاً تمريناً هندسياً ، وتعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا = كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستنبط من موجود معدوماً .

وهنا يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالأمن أو أمراً يتعلق بالخوف ، فإياكم أن تذيعوه قبل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ، لأنهم هم الذين يستنبطون . . هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفضل من الله سبحانه وتعالى وبعض إلهاماته فكان بما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم - العزم على أن يذهب إلى مكة فاتحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها . . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كي يأخذ الخصوم على غرة ، وعندما يأخذ الخصوم على غرة يكونون بغير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث في غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بجنود لا قبل لهم بها ، يستكينون ويستسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلتعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لقريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بغيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم : إن هناك امرأة في روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بقدمونا إلى مكة ، فذهبوا إلى الظعينة فأنكرت ، فهددها سيدنا على وأخرج من عقاصها - أى من صفائر شعرها - الكتاب ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟ قال : نعم يا رسول الله ، فقال : وما دهاك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابي لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق في قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لي بها عصبية ولي بين أظهرهم ولد وأهل فاحسبت أن أتقدم إلى قريش بيد تكون لي عندهم يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبي : قد صدقت .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين القضايا الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمنين مع أعدائهم على الصدق ، ولا يستقيم الأمر أن يفشى ويذيع كل واحد الكلام الذي يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستنبطون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أذنوا لكم في قولها ، أو أذنوا بغيرها إذا كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعي ذلك . وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح : أنا الوكيل وأنا الذي أنصر ولا تخابوهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنون بالأسباب .. ويكفائتهم به على أنه هو الناصر ..

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذي سندهم وحفظهم فلم يجعل هذه المسألة مغبة أو عاقبة فيما يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » ونعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء . فنحن ننظر: هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ .. وهنا نجد قوله الحق : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اتباع الشيطان قليلاً أى اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان . فهل نظرت إلى القلة في الحدث أو في المحدث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة في الحدث فيكون : لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً تهتدون فيه بأمر الفطرة ، وإن أردت القلة في المحدث : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى إلا نفراً قليلاً منكم سلمت فطرعتهم فلا يتبعون الشيطان .

فقد ثبت أن قوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليفكروا فيما عليه أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، فلم يرقهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صدّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادرة في البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل « الذي لم يصدق كل ما عرض عليه ، و أمية بن أبي الصلت » ، و قس بن ساعدة « ، كل هؤلاء بفطرتهم اعتدوا إلى أن هذه الأشياء التي كانت عليها الجاهلية لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها العرب فهؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعبد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أي لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان في بعض الأشياء . . بل يفضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما فضح أمر الشيطان مع المنافقين أخذكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ الْإِنْفَسَ
وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شيء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ آتَاهُ فَأَقْبَرَهُ ۝١١ ﴾

(سورة عبس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيها بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية في قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَالِكُمْ لَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله لمن ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ، لذلك فإنه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله في قوله : « فليقاتل في سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله في هذا الأمر . فالرسول هو أول منفعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَالِكُمْ لَا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل بأوامر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذى قاله له : « ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل فعليه أولاً نفسه ، لأنه صلى الله

عليه وسلم بإقباله على القتال وحده ، إنما يدل من سمع القرآن على أن الرسول الذي نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد لن يغش نفسه . فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق - رضوان الله عليه - حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت الردة من بعض العرب ، وأصرَّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو ممنون عقاب بغير كانوا يؤذونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدتهم عليه بالسيف . وحاول بعض الصحابة أن يثنى أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت بمضى أن تقاتلهم لقاتلتهم بشألى .

إذن فقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل في سبيل الله » ينهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلغ . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً ، وبعد ذلك يبلغ الرسول المؤمنين « فمن استمع إليه فعل فعله .

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبلغ ، لكن أن يفعل المؤمنون ما بلغهم به عن الله أو لا يفعلوا فهذا ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل في سبيل الله . « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ . لا . فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تركهم لنفوسهم : « وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرّض » مأخوذ من « الحرّض » وهو ما به إزالة العوائق وما ينظف الأيدي والملابس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس . فعليك يا رسول الله أن تنظر في أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تنفض عنهم الموانع وتزيل العوائق التي تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر ليد الله في النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » في الآية التي نحن بصدددها ، يراد بها القوة والشدة في الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معاني متعددة . والحق يبلغ رسوله : إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإياك أن يخطر على بشرتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدي فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله في النصر :

﴿ فَتَنَلُوهُمْ يَدَيْهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ . لأن النصر لو جاء بسبب غيبي من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت .. ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هي التي غلبت ، فالؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى السبب ، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط في « حنين » ، وقال بعضهم : لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، هنا ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحق الدرس التأديبي أولاً .. نصرهم ثانياً . والحق يقول :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا لفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب ويتذكروا المسبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتي فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انتصروا بأي سبب غيبي آخر لقال الأعداء : إن هذا الذي حدث هو ناتج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية في الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يهزمه الحق مجرد إنقاذ سيدنا إبراهيم من النار ، لأن الأمر لو كان كذلك لما مكن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه .. ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكن ذلك فرصة لكفرهم .

ولكن الحق يجعلهم يسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النَّارَ تَنَاجِجَ ، ويقطع
سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢٤)

(سورة الانبياء)

هذه هي النكاية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير
المادية المحسنة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذي أرسلتك ، ولم
أجلك إلى نصره من يؤمن بك ، وإنني قادر على نصرك وحدك بدون شيء ، ولكن
أردت لامتك التي آمنت بك أن ينالها يَمْنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتتاب
الامة ، وتتصغر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول
الله لنصره الله دون حرب أو جهاد .

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد
تكتيلاً » أى أنه سبحانه قادر على أن يوقف ويمنع حرب وكيد الكافرين فيبطله
وهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التي ماحت نهايتها ولا يستطيع أحد
أن يجدد من المنتصر فيها ومن المهزوم ، لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف
الرملة أمر رسول الله ، فحدث خلل في صفوف المقاتلين المسلمين ، ولكن لم يبق
المحاربون من قریش في مكان المعركة ، وأيضاً لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ،
ولذلك لم تنته معركة أحد بنصر أحد . وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد في بدر الصغرى
في العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلما
طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطمعه إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى
المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، وقذف الله الرعب في قلب أبي سفيان
وقومه فلم يخرجوا . إذن فربنا قادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

في المكان ، وجلس مع المقاتلين وكان معهم تجارة وبيعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة .

« عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » في اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ « عسى » معناها في اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يأتي فلان . أى : أرجو أن يأتي فلان . أو قول واحد مخاطباً صاحبه له : عسى أن يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أن يأتي فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتي فلان بالخير وقد لا يأتي ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة ، لأن الرجاء في الأولى في يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو في يد المتحدث . لكن أبيضن المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتي بالخير لمن يتحدث إليه ؟ .

إنه صحيح ينوى ذلك ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هي الأوغل في الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟ . قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله لا لمعايير من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات . فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قممها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » . أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً . هذه مرحلة أولى في الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن آتيك أنا بخير . هذه مرحلة أقوى في الرجاء ، فقد يحب الإنسان أن يأتي بالخير لكن قد تأتي له ظروف تعوقه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه .

والأقوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا ، وه عسى ، بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطباع من الله عز وجل هو الإطباع منه واجب تحققه لأنه - سبحانه - هو الذى يمتنا ويدفعنا إلى الطمع فى فضله لأنه كريم ، وهو القائل سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أضرار ، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتخلخل عظامه . أما واهب الفعل وواهب القوى لخلقهم فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شيء من مادة « نكل » فعليه أن يعرف أنها مأخوذة من « النكل » وهو القيد . وعندما يوقع الحاكم - مثلاً - العذاب على مرتكب الجريمة ، والشخص الذى يرى هذا العذاب يخاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكان الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى أنزله بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله . ولذلك يقال على السنة الحكام : سأجعل من فلان نكالاً . أى أن القائل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً خوفاً من أن تنزل به العقوبة التى نزلت ولحقت بمن فعل الجريمة .

إذن فالتنكيل والنكال والنكل كلها راجعة إلى القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التى فعلها أولاً ، أو أن هذا القيد وهو العذاب الذى عوقب به مرتكب الجريمة يكون ماثلاً أمام الناس يحذرهم من الوقوع فيها كى لا تنالهم عقوبتها ونكالها .

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ، لأن فكر الإنسان وطاقته وزمنه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءاً من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءاً آخر حتى يتكامل العباد معاً . فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملأ ، فما أفقده أنا أجده عند غيرى . فتجد بارعاً فى الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بالأم فهو يطلب طبيباً ، والطبيب الذى يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان التفكك في المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا حِجْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك في مجال المال فقط . . ونقول لمن يظن ذلك : - أنت مخطئ ، فإن فضلك الله في القوة والجسم فهذه رفعة ، وإن فضلك في العلم فذلك رفعة أيضاً ، وإن فضلك في الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك في أى مجال هو رفعة لك ، فانت كعبد تكون مفضلاً ، ومفضلاً عليك .

إذن فحين يقول الحق : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » . قد يسأل إنسان : أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه ؟ . ونقول : كل واحد مرفوع بموهبته ، وغیره مرفوع عليه بموهبته .

ومن القصور أن ننظر إلى التفضيل في مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه الزاوية وحدها ولكن لننظر من كل الزوايا . وعندما ننظر في الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً في شيء ، ومرفوعاً عليه في أشياء ، وكل منا مسخر لغيره . إذن فعندما خلق الله العباد جعل كلاً منهم مسخراً للآخر ، ومادام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد في البيئة الإيمانية فداً ، بل على كل ذي موهبة يفقدها غيره أن يمدّه بهذه الموهبة . فبعد أن كان فداً - أى فرداً - يصير شافعاً . والشفع - كما نعلم - هو ضم شيء إلى مثله ، فما ضم إلى غيره ليصير زوجاً فهو شفيع بخلاف الوتر فإنه الواحد .

فإذا كان الواحد منا موهوباً فليضم موهبته للثاني ، حتى يصبح الاثنان شافعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق :

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا
وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ رُكْفٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾

وما هي الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الريف يعرفون مسألة « الشفعة » في العرف . فيقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتتضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض . إذن فمعنى يشفع . هو من يقوم بتعدية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوانه المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

فالشفاعة الحسنة هي التوسط بالقول في وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً في ذاته صار شفيعاً . ولذلك يقال : فلان سيشفع لى عند فلان ، أى أنه سيقدم صوته لصوت المستعين به . والحق سبحانه وتعالى فيها يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليعمل العمل الواحد أحكمه به في الجنة .

أى أن رجلاً واحداً يؤدي عملاً ما ، فيعطيه الله فضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد في الجنة ، وكأنه وكيل في الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلاً له فقط ، ولكنه يتصرف في إعطاء المنازل أيضاً ، فتسأله داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى في حاجة أخيه يجب أن يقضيها قضيت أو لم تقض .

قال صلى الله عليه وسلم : « من مثى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً له من

اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين ،^(١) .

ذلك لأن العبد الذي سعى في قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيها تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على ذى الموهبة . وبذلك فسبحانه يزيل الحقد من نفس غير الموهوب على ذى الموهبة ، فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفعنى أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنده وغماءها لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعه حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتي الحق بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع التهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها » .

ولنر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة « النصيب » تأتي بمعنى الخير كثيرا . فعندما يقول واحد : أنت لك في مالى نصيب . هذا القول يصلح لأى نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهي جزء على قدر السيئة فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب كبير . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أى أنك يا رسول الله مُطالب بأن تضم لك أناساً يقاتلون معك ، فتلك شفاعه حسنة سوف ينالون منها نصيباً كبيراً وثواباً جزيلاً .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها » أى يكون له جزء منها ، أى يهيبه شؤم السيئة ، أما الجزء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالمجتمع يكون متسانداً لا متعانداً ، ويصير الكل متعاوناً صافى القلب ، فساعة يرى واحد النعمة عند أخيه يقول : « سأتى يوم يسمى لى فيه خير هذه النعمة » .

ولذلك قلنا : إن الذى يجب أن تسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها . فإنك أيها المؤمن إن أحببت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك في مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد نهد نفسك مصاباً بشيء من الغيرة منها أو كارهاً للنعمة عنده ، فتصبر النعمة وكأنها في غيرة على صاحبها ، وتقول للكاره لها : « إنك لن تقربنى ولن تنال خيرى » .

ويختم الحق الآية : « وكان الله على كل شيء مُّقْتِياً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفي ذلك تنبيه لكل العباد : إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهماً صغر يفلت من حساب الله ، فلا في الحسنة سيفلت شيء ، ولا في السيئة سيفضيع شيء . وأخذت كلمة « مُّقْتِياً » من العلماء أبحاثاً مستفيضة . فعالم قال في معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مُّقْتِياً » معناها « مانع القوت » ورابع قال : « إنه حفيظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعى للخلاف في هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه وقد تتعدد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعانى قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذى يكون من مادة الكلمة ذاتها . و « مُّقْتِياً » من « قاته » أى أعطاه القوت ، ولماذا يعطيهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مُّقْتِياً بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحفيظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالقه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو يجازيه .

إذن كل هذه المعانى متداخلة ومتلازمة ، لذلك لا نقول يختلف العلماء في هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحظاً في الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصل على صواب ، فلا يعطى القوت الأصل إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً على شأنه فهو حسيب . وسبحانه لا يُقْتِى

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل صنفاً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر .

إننا إذا رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعاً على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فنحن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذور ، فهو يأخذ غذاءه من فلقق الحبة التي تضم الغذاء إلى أن ينبت لها جذر ، وبعد أن يكبر جذر النبات فالفلقتان تصيران إلى ورقتين ، وسبحانه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بخاصية الأنابيب الشعرية . أى أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التي تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنبوبة في الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار الشعرة ، وعندما توضع في الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الحوض ، وعندما تتوازي ضغوط الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأى بماء ملون ونضعه في إناء ، ونضع في الإناء الأنابيب الشعرية ، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية ، ولا تأخذ أنبوبة مادة من السائل ، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها . لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعي » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضى عقلاً يفكر ويرجع ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهي » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَسْقَى بِمَاؤِ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفة ، والقصب يأخذ المادة التي تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهي .

« وكان الله على كل شيء مُقْبِتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن له « كان » هنا ملحظاً في الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه . لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله وما زال » ، لأن الذي كان ويتغير هو من تتركه الأغيار . وسبحانه هو الذي يُغَيِّرُ ولا يَتَغَيَّرُ ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تتساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للعبد المؤمن ويربيها للجميع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ ﴾

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة . فإما معنى : « حَيِّيتُمْ » ؟ الكلام السطحي الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله . وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية في اللقاء هي السلام :

﴿ تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق في موقع آخر :

﴿ فَسَلِّوْا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ نَحْمَةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النود)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » . مادة الكلمة هي « الحاء » ، و« الباءان » ، ومنها كلمة « حياة » ، التي منها حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنى سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركي وهي أول ظاهرة فينا ، وبعد ذلك في الحيوان ، وإن ارتقيت في الفهم نجد أن كلمة « الحياة » تتظم كل أجناس الوجود حتى الجهاد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا في المظهر الحسي والحركي ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا في المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأني بقضيب مغناطيسي ، ثم تأتي ببرادة الحديد ، ونسير به في اتجاه واحد وذلك حتى ترتب الجزئيات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية في القضيب الحديدي . هذا القضيب الذي نراه مادة جامدة في نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كي يدرك حركتها .

وحق يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأنبوية زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب الممغنط ومرّوه بجانب البرادة ، قرأى التلاميذ البرادة وهي تتقافز إلى أن تستقر ، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير الممغنطة عندما يمر عليها القضيب الممغنط في اتجاه واحد فلزاتها ترتب على أساس واضح ، حتى تصبح ممغنطة .

وهذا دليل الحس ؛ فقد انقلبت السوالب في جهة والموجبات في جهة .. فالقضيب المغناطيسي له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصبح نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهي ليست ثابتة ، وإنما هي متحركة بصورة دقيقة جداً للدرجة أنها لا تُدرك . فكل شيء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شيء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما نأتي للقرآن ، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أى ذاته ، فكل شيء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أى ليس فيه حياة ، ومادام كل شيء يهلك فهذا دليل أن فى كل شيء حياة ، حتى يأتى الإذن من الحق أن تذهب الحياة من كل شيء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذى قال : إن كلمة « هالك » تعنى ليس فيه حياة ؟ . نقول : إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع فى كل آية جزئية تشرح لنا ما خفى علينا فى جزئية أخرى كى نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فيكون الهلاك ضد الحياة .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الصناعات التى نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إننا نصنع منه أواني للغسيل أو للخلافه ، وأول ما نشتره للاستعمال نجده زاهى اللون ، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذى حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذى أحدث التغيير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن ففيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغير ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات السنين وأحياناً بالآلاف السنين ، وكلها طال عمرها تغير لونها من الحياة والتفاعلات .

وعندما تمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقريتها وتتبعها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التي تستنبط والتي تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس - وهو الإنسان - المتنع بكلكائن حتى في الكون ، هذه حياة تنتهي في ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله . وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونقله فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهي . وعندما نقيس الحياة التي لا تنتهي بالحياة التي تنتهي ، فأى منهما جذيرة بأن تسمى حياة ؟ . إنها الحياة الأخرى التي لا تنتهي ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَّ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هي الحياة الحققة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التي تهدك فيها الآفات والالام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهي ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هي الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض لهذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هي التي أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو يخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى مآدعهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهي حياة لا تهددها الآفات ولا الانقار ولا الأمراض ولا الفناء ، إنها الحياة الحققة ، ولذلك يسميها الحق

« الروح » لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهى فيقول :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتي لا تنتهى بسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وهذه هي التي سوف تعطى الحياة الأرقى . الأولى اسمها «روح» تعطى حياة فانية . والثانية هي «روح» أيضاً ، إنها ما أوحى الله به ، لأن الناس إذا عملوا به يمحون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر . إذن فقله : « إذا دعاكم لما يحييكم » هي دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة في الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله في حياته ، وإن كانت متتية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأغيار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفي عنه القلق والخوف فكانه يحسن حياته . وكلمة «حيالك الله» أو «السلام عليكم» تعنى : «كن آمناً مطمئناً» وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟ .

إذن فكلمة «حيالك الله» أو «السلام عليكم» أى الأمان والاطمئنان لك . فانت لا تعرف هل يحيى القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : السلام عليكم ، فقد يجعل بهذه التحية الأمان فى قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقله الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » يعنى : إذا ربيتم حياتكم بالتحية التي هي السلام والتي تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية . فكلمة «تحية» إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة «حيوا» أى أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الأمانة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربي يقول :

ليس من مات فاستراح بميت
إلما الميت ميت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أى أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتكم بالأمن وبالسلم
« فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل
منها . والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء .
فمن قال لك : السلم عليكم ، فقل له : وعليكم السلم ورحمة الله . أى أنك تزيد
عليه .

عن سليمان الفارسي قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
السلم عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلم ورحمة الله ، ثم جاء آخر
فقال : السلم عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم : وعليك السلم ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلم عليك
يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك : فقال له الرجل : يا رسول الله
- بأى أنت وأمى - أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على ،
فقال : إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو
ردوها فرددناها عليك » (١) .

وعندما تكلم العلماء فى مسألة السلم ، صنفوا لها فقالوا : الماشى يسلم على
القاعد . والراكب يسلم على الماشى ، والصغير يسلم على الكبير . والمبصر يسلم على
الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين يتنظم ويشمل
ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أللنساء
تحية ؟ نعم ، لكن تحية ، المرأة تحيى المرأة ، والمرأة تحيى زوجها ، والمرأة تحيى
محارمها ، والمرأة المعجوزة التى لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهى
لا تبدأ أحداً بالسلم ولا ترد السلم . لا تبدأ بالسلم إلا إذا كان معها مثلها ، لأنهم

يقولون : المرأة على المرأة عين أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرس المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثلتها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا ؟ لأن بدءها له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأه به غير مؤمن ؟ النبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلوون فى الكلام ، فإذا قالوا لكم : « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك يعنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأهلاً بها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كفولهم : « السام عليكم » فقولوا : « وعليكم » ؛ لأن السام معناها الموت ، فلكيلا يستهزئوا بكم ، قولوا : وعليكم . وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن « وردوها » بالنسبة للكافر .

لكن أتلك هى التحية فقط ؟ إذا كان الذى حياك بقول وأمنك بقول ، فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول تفاقاً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الضر ؟ كما أن الحق علمنا أن ترد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هى المحك والاساس ، فإذا حياك إنسان بخير عنده فعل المسلم أن يقدم التحية بخير منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكرار بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيراً لإنسان آخر ، وردّ عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك ثناء للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوزاً على نفسه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ على قدر ما يعطى ، فكأنه لم ينقص من خيره شيئاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يسخى النفوس فى أن تعطى أكثر مما حبيت به ، فهذا يبين أن المؤمن فى البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنه كلما فعل خصلة خير فهو تعود عليه بالخير . ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهذه تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودي يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة عندي ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكاثرون ، فهو يضعها في الحساب ، لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شيء حسيباً » فالحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هناك جزاء أعلى وأفضل عند ملك مقدر .

وفى تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى الحياة بهجة ، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكان إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعاً صفائياً ، ومادام المجتمع كله مجتمعاً صفائياً ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله : « السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمان بالحق سبحانه وتعالى . وبذلك تتذكر وتعى أن الخلق عيال الله ، وسبحاته يجب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً » ومن الطيبى أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول : تحية مثل التى قالها لنا ، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لقيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدينهم ونصفه » فهل معنى ذلك أنني تصدقت بدينهم ثم استردته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أنني تصدقت بدينهم ، ونصف مثل الدينهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أي ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التي تتلقاها . فإذا ما قيل لك : « السلام عليكم » فقل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أني بخلقكم لكم وإعطائي لكم حرية الاختيار في الإيمان أو في الفعل أو في الترك إياكم أن تظنوا أني لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين أمركم بفعل ، فمعناه أنني خلقتكم صالحين أن تفعلوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أنني خلقتكم صالحين ألا تفعلوا .

إذن فعندما يأتي أمر ؛ فمعنى هذا أن الذي خلقتني علم أولاً بصلاحي لتنفذ هذا الفعل أو عدم تنفيذه . . أي صلاحيتي أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه : « افعله » ، وفعل يقول له فيه : « لا تفعله » ، والمخالفات والمعاصي إنما تنشأ من نقل « افعل » في مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » في مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية . والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإنك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » . فلو أخذت الاختيار لتربح نفسك لحظة وهي فانية ، فكيف تتعب نفسك في الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وعاقلاً فلا تفعل ذلك ؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقَدِّمُ على مثل هذا .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٨٧)

وهذا يعني : أنه لا يوجد إله آخر سواي ليتدخل وينهي المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » فليس هناك إله سواي ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعي وسترجعون إلي ، وليس هناك واحد يقول : « افعل » ، « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ « افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهي منه بـ « لا تفعل » هو النهي الوحيد الذي يجب على العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ
③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ
دِينِ ⑥ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مضاربة بين دينين ، دين للكافرين ، ودين للمؤمنين ، لا ، بل هو دين ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعا وختم بالإسلام الذي لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① ﴾

(سورة النصر)

ويأتي بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَبَصَّ نَارًا ③ ﴾

ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو لهب يقدر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر ، ولو قالها لشكك في هذه الآية ، ولقالوا : إنه لن يصل ناراً ذات لهب . إن هذا الأمر كان له فيه اختيار ، ولم يوفقه الله إلى أن يقولها ولو نفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾

(سورة الإخلاص)

أى فليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » . وكلمة « يجمع » تعنى أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعاً ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى « ليجمعنكم » أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقى جزاء يوم القيامة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكى يتفحصه العاقل ، فلا يأخذ انفلات نفسه من منج الله إلا بملاحظة الجزاء على الانفلات من المنهج ، فلو أخذ نفسه منفلتاً عن منج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحمق وأخرق .

ولذلك قلنا : إن الذين يسرفون على أنفسهم في المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية . ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم في غفلة صاحبها عن الجزاء ، فالمجرم يرتكب جريمته وهو مقدر السلامة لنفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع في ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياك يا من تريد - بالاختيار الذى أعطيته لك - الانحراف عن منهجى ألا تقدر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيعطيك الله من خير على الطاعة ، وضع الاثنين في كفتى ميزان ، فالذى يعطيك الخير الأبقى افعله ، وابعد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك في الشقاء والشر .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذي قال فيه الحق :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(سورة المطففين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دنيا الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما نراه ، وبعد ذلك ندخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتي قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

أى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لا شك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذي خلقه الله مختاراً ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وهو - سبحانه - زود العباد بالخير ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه - سبحانه - هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا يحتاجاً طلبه الله منك .

ونضرب هذا المثل لا للتشبيه ، ولكن للتقريب - والله المثل الأعلى - الوالد يعطي ابنه جنياً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئاً مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب . هل هذا الشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ، لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فما بالنا بالعيد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قَدَّرَ أحد أن يفعل معصية . فالعاصي عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق . ولماذا يتعذب مرتكب المعصية مع أنه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له ؟ ونقول إنه وجهها مخالفاً لأمر الله ، فالسكين للذبح ، إن ذُبعت بها دجاجة لما استحق الذابح على ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا في محذور يشبهه الحق بقتل الناس جميعاً . فالذي جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له : « أنت أتيت بأداة الجريمة » ؟ لا ، لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة للذبح ما يحل ذبحه أو أداة

لجرمة . إذن فحق المختار لم يفعل اختياره إلا من باطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل ألزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال ، ولك أن تختار الشيء الذي يأتي بالنفع ولا يأتي بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله . والكلام الخبري عندنا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام في ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، ولذلك يذيل الحق الآية بما يلي : « ومن أصدق من الله حديثاً » وهل الصدق فيه تفاضل ؟ ليس في الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدير المسألة التي يريد الكلام فيها ليحمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن ففي الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء في ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هي « النسبة الذهنية » ، وعندما ينطقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟ إن طابقت النسبة الواقعية كلاماً من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية والكلامية » فيكون الكلام كذباً . فالصدق يقتضي أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أي مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟ ليحقق لنفسه نفعاً يفوته ولا يحققه الصدق في نظره أو يدفع عنه ضرراً . مثال ذلك : بكسر الابن شيئاً في المنزل كمنضدة . قال الأب يقول لابنه : هل كسرت هذه المنضدة ؟ وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً . ولا يحمله على الكذب إلا تفويت مصرة قد تصيبه من الصدق فيلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذي ينفع الإنسان لا بد أن يكون أقوى منه ، وكذلك الذي يضره . لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضرراً . إذن فإذا قال الله فقله الصدق ، لأن الأسباب التي تدفع إلى الكذب هو - سبحانه - منزعه عنها .

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذي يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذي لا يدخل في واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذي لا يدخل في نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً .

فقله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكداً بالنسبة لنا . وأفضل التفضيل هنا لا تأتي للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لنعرف أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يحىء من ناحية كثرة الكلام ، لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد في الصدق أيضاً ، كيف ؟ لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر . فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم ينزف من القتل إثر التحام القتلى . به . ولكن هناك شاهد آخر يروي كل التفاصيل التي بدأت من قبل المشاجرة بين القتلى والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثاني أشمل في الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثاني أشمل في القضية نفسها .

إذن فقله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » أي أن الحق هو الأصدق بمعنى أن إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفضل التفضيل تأتي في « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هي عليه أي بشمول كامل . وخلقه إن حدث منهم صدق في شيء فقد يحدث منهم الكذب في شيء آخر . فقد تقول قضية تعلم أنها صدق ، ولكنها في الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ، فقد يقول قائل : زار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال في بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقبل له : « فلان » فهو يروي خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إننا يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟ . إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أي وجد واحد اسمه زيد ومجتهد بالفعل ؟ . هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟ . إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشيء . واعتقاد الشيء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقاً أيضاً .

وافترض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق في الواقع . إذن ففيه فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أضاف :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ؛ لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصديق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح في قولهم : « نشهد » ، وليس في مقول القول وهو « إنك لرسول الله » فالشهادة تقتضي أن يوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية . . فيفهم بالسطحية هذه الآية فهماً خاطئاً :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾

(سورة المنافقون)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون ؟ . ونرد : إن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين في شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يطمنون ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً » .

إن المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شك فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب لكان الذين انحرفوا في الحياة الدنيا وولغوا في أعراض الناس وأخذوا أموالهم وعاثوا في الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا في سذاجة . فالمنطق يقتضي أنه مادام قد وُجد أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدى عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب . ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية الموت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله . ودليل هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قاداتها القوانين التي تكفل حماية حركة المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه . فإذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالجريمة ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفلح في الإدارة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع التقنيات لحماية نفسها ، فإذا تفعل هذه المجتمعات في الذين سترها أنفسهم ؟ . هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنتم إن هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقاب من أفلت منا . فانت أيها الملحد قد قننت لمن خالف تقنيك عقوبة . وهذا إن وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يلك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يلك ؟ .

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمِيتُمْ على قضاء الأرض فلن تَعْمُوا على قضاء السماء الذى لا تحفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن بمنهج نأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وهل غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً فى تقنين البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجرمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً ، أى لا أحد أصدق من الله فى الحديث . و « أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعلوه صدق أصدق ، بل الصديق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذى حدثنا الله به عما نشهد من عالم الملك وما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فلنما يتحدثون فى عالم الملك الذى يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا فسبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضاً ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر من حدث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِشَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومسبب ، علة ومعلول ، مقدمة ونتيجة ، وكل الأشياء التى تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيها

يتعلق بمشروعية القتال للمؤمنين ليحملوا المنهج إلى الناس ، ويكون الناس - بعد سماعهم المنهج - أحراراً فيما يختارون . إذن فالقتال لم يشرع لفرض منهج ، إنما شرع ليفرض حرية اختيار المنهج ، بدليل قول الحق :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالإسلام لا يفرض الدين ، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار في الدين ، فالقوى التي تعوق اختيار الفرد لدينه ، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعتقدون ما يشامون ، بدليل أن البلاد التي فتحتها الإسلام بالسيف ، ظل فيها بعض القوم على دياناتهم . فلو أن القتال شرع لفرض دين لما وجدنا في بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في مواقع متعددة من سورة النساء ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَكْفُرَ بِأَسْ أَلَّذِينَ كَفَرُوا وَآلَهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنَجِيلًا ﴾

(سورة النساء)

شرع الحق سبحانه وتعالى قضية استفهامية هنا ، فيها معنى الإنكار وفيها معنى التوبيخ وذلك شائع في كل الأساليب التي تنفق معها في القرآن الكريم . فإذا سمعت كلمة «فمالك» لا تفعل كذا ، فكان قياس العقل يقتضي أن تفعل ، والمجيب ألا تفعل . ولا يمكن أن يأتي هذا الأسلوب إلا إذا كان يستنكر أنك فعلت شيئاً كان ينبغي ألا تفعله أو أنك تركت شيئاً كان عليك أن تأتي به .

فالأب يقول للابن مثلاً : «مالك لا تذاكر وقد قرب الامتحان ؟» . كأن منطق العقل يفرض على الابن إن كان قد أهمل فيما مضى من العلم ، فما كان يصح للابن أن يعمل قبل الامتحان ، وهذا أمر يدهى بالقياس العقل ، فكان التشريع والقرآن يخاطبان المؤمنين ألا يقبلوا على أى فعل إلا بعد ترجيح الاختيار فيه بالحجة القائمة

عليه ، فلا يصح أن يقدم المؤمن على أى عمل بدون تفكير ، ولا يصح أن يترك المؤمن أى عمل دون أن يعرف لماذا لم يعمل ، فكان أسلوب « فما لكم » ، « فما لك » ، مثل قول أولاد سيدنا يعقوب :

﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾

(من الآية ١١ سورة يوسف)

ما معنى قولهم هذا ؟ معناه : أى حجة لك يا أبانا في أن نحرمنا من أن نكون مؤمنين على يوسف نستصحبه في خروجنا . فكان القياس عندهم أنهم إخوة ، وأنهم عصبية ، ولا يصح أن يخاف أبوهم على يوسف لا منهم ولا من شيء آخر يهدد يوسف ، لأنهم جماعة كثيرة قوية . وكذلك قول الحق :

﴿ قَالَهُمْ لَا يَأْمَنُونَ ﴾

(سورة الانشقاق)

أى أن القياس يقتضى أن يؤمنوا . وقوله الحق :

﴿ قَالَهُمْ عَنِ التَّذِكْرَةِ مُغْرِضِينَ ۝ كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾

(سورة الدثر)

كان القياس ألا يعرضوا عن التذكرة . إذن فأسلوب « فماله » ، « فما لك » ، « فما لهم » ، « فما لكم » كله يدل على أن عمل المؤمن يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع . أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير في حيثيات فعلها ، أو في حيثيات عدم فعلها فهذا ليس عمل العاقلين .

إذن فعمل العاقل أنه قبل أن يُقبل على الفعل ينظر البديلات التى يختار منها الفعل ؛ فالتلميذ إن كان أمامه اللعب وأمامه الاستذكار ، ويعرف أنه بعد اللعب إلى رسوب ، وبعد الرسوب إلى مستقبل غير كريم ، فإذا اختار الاجتهاد فهو يعرف أن بعد الاجتهاد نجاح ، وبعد النجاح مستقبل كريم . فواجب التلميذ - إذن - أن يبدل قدراً من الجهد ليتفوق . وكل عمل من الأعمال يجب أن يقارنه الإنسان بالنتيجة التى يأتى بها وبترجيح الفعل الذى له فائدة على الأفعال التى لا تحقق الهدف المرجو .

والآية هنا تقول : « فإلکم فی المنافقین فتنین » کأن القیاس یقتضی ألا نكون فی نظرتنا إلی المنافقین فتنین ، بل یجب أن نكون فئة واحدة . وكلمة « فئة » تعنی جماعة ، والجماعة تعنی أفراداً قد انضم بعضهم إلی بعض علی رغم اختلاف الأهواء بین هؤلاء الأفراد وعلی رغم اختلاف الآراء ، إلا أنهم فی الإیمان یجمعهم هوی واحد ، هو هوی الدین ، ولذلك قال الرسول :

(لا یؤمن أحدکم حتی یكون هواه تبعاً لما جئت به)^(١) .

فالسبب للاختلاف هو أن کل واحد له هوی مختلف ولا یجمعهم هوی الدین والاعتصام بحبل الله المتین . وما حکایة المنافقین وكيف انقسم المؤمنون فی شأنهم لیكونوا فتنین ؟

والفئة - كما عرفنا - هی الجماعة ، ولكن لیس مطلق جماعة ، فلا نقول عن جماعة یسیرون فی الطریق لا یجمعهم هدف ولا غایة : إنهم فئة ، فالفئة أو الطائفة هم جماعة من البشر تجتمع لهدف ؛ لأن معنی « فئة » أنه یرجع ویفیء بعضهم إلی بعض فی الأمر الواحد الذی یجمعهم ، وكذلك معنی « الطائفة » فهم یطوفون حول شیء واحد . والحق یقول : « فإلکم فی المنافقین فتنین » . هذا لفت وتنبیه من الحق بأن ننزه عقولنا أن نكون فی الأمر الواحد منقسمین إلی رأین ، وخصوصاً إذا ما كنا مجتمعین علی إیمان بآله واحد ومنهج واحد . والمنافقون - كما نعرف - هم الذین یظهرون الإیمان ویبطنون الکفر .

إننا نعرف أن کل المعنویات یؤخذ لها أسماء من الحسیات ؛ لأن الإدراک الحسی هو أول وسیلة لإدراک القلب ، وبعد ذلك تأتي المعانی . وعندما تأتي لكلمة « منافقین » نجد أنها مأخوذة من أمر حسی کان یشهده العرب فی بیئتهم ، حیث یعیش حیوان اسمه « الیربوع » مثله مثل الفأر والضب . والیربوع مشهور بالکفر والخداع ، ولکی یأمن الحیوانات الی تهاجمه فإنه یبني لنفسه جحرین ، أو جحوراً متعددة ، ویفر من الحیوان المهاجم إلی جحر ما ، ویحاول الحیوان المهاجم أن یتطرده عند فوهة هذا

(١) رواء البغوی فی شرح السنة ، وابن أبی عاصم فی السنة ، والمتن الهندی فی کنز العمال ، والخطیب البغدادی فی

الجمهر ، فيتركه اليربوع إلى فتحة أخرى ، كان اليربوع قد خطط وأعد لنفسه منافذ حتى يجادع ، فهو يصنع فتحة يدخل فيها في الجمهر ، وفتحة ثانية وثالثة ، وذلك حتى يخرج من أى فتحة منها ، وكذلك المنافق .

ونعرف أن المسائل الإيمانية أو العقدية على ثلاثة أشكال : فهناك المؤمن وهو الذى يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وهو يحيا بملكاته منسجمة تماماً . وهناك الكافر وهو الذى لا يعتقد ولا يدين بالإسلام ولا يقول لسانه غير ما يعتقد ، وملكاته منسجمة أيضاً ، وإن كان ينتظره جزاء كفره في الآخرة ؛ فملكاته منسجمة - لكن - إلى غاية ضارة ، وهى غاية الكفر . أما « المنافق » فهو الذى يعتقد الكفر ويعتقد عليه قلبه لكن لسانه يقول عكس ذلك ، وملكاته غير منسجمة ؛ فلسانه قد قال عكس ما في قلبه ؛ لذلك يحيا موزعاً وقلقاً ، يريد أن يأخذ خير الإيمان وخير الكفر ، هذا هو المنافق .

وهناك جماعة - في تاريخ الإسلام - حينما رأوا انتصار المسلمين في غزوة بدر ، قالوا لأنفسهم : « الريح في جانب المسلمين ، ولا نأمن أنهم بعد انتصار بدر وقتل صناديد قريش وحصولهم على كل هذه الغنائم أن يأتوا إلينا » ، هذه الجماعة حاولت النفاق وادعت الإسلام وهم بمكة ، حتى إذا دخل المسلمون مكة يكونون قد حصنوا أنفسهم . أو هم جماعة ذهبوا إلى المدينة مهاجرين ، ولم يصبروا على مرارة الهجرة والحياة بعيداً عن الوطن والأهل والمال ، ففكروا في هذه الأمور ، وأرادوا العودة عن الدين والرجوع إلى مكة ، وقالوا للمؤمنين في المدينة : « نحن لنا أموال في مكة وسنذهب لاستردادها ونعود » .

وبلغ المسلمون الخبر وانقسم المسلمون إلى قسمين : قسم يقول : نقاتلهم ، وقسم يقول : لا نقاتلهم . الذين يقولون : « نقاتلهم » دفعهم إلى ذلك حمية الإيمان . والذين يقولون : « لا نقاتلهم » قالوا : هذه الجماعة أظهرت الإيمان ، ولم نشق عن قلوبهم ، وربما قالوا ذلك عطفاً عليهم لصلوات أو أواصر .

فجاء القرآن ليحسم مسألة انقسام المسلمين إلى قسمين ، ويحسم أمر الاختلاف .

وعندما يأتي القرآن ليحسم فهذا معناه أن رب القرآن صنع جمهور الإيمان على عينه ، وساعة يرى أى خلل فيهم فسبحانه يحسم المسألة ، فقال : « فإلحكم في المنافقين ففتين » .

والخطاب موجه للجماعة المسلمة ، فقوله : « فإلحكم » يعنى أنهم متوحدون على هدف واحد ، وقوله : « ففتين » تفيد أنهم مختلفون .

إذن فـ « ففتين » تناقض الخطاب الذى بدأه الحق بـ « فإلحكم » ، كأن المطلوب من المتلقى للقرآن أن يقدر المعنى كالآتى : فإلحكم افترقتم في المنافقين إلى ففتين ؟ إذن فهذا أسلوب توبيخى وتهديدى ولا يصح أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهل ينصب هذا الكلام على كل المخاطبين ؟ ننظر ، هل القرآن مع من قال : « نقتل المنافقين » أو مع من قال بغير ذلك ؟ فإن كان مع الفئة الأولى فهو لا يؤنب هذه الفئة بل يكرمها ، إن القرآن مع هذه الفئة التى تدعو إلى قتال المنافقين وليس مع الفئة الثانية ، لذلك فهو يؤنبها ، ويوبخها . والأسلوب حين يكون توبيخاً لمن يرى رأياً ، فهو تكريم لمن يرى الرأى المقابل ، ويكون صاحب الرأى المكرم غير داخل في التوبيخ ، لأن الحق أعطاه الحبيبة التى ترفع رأسه .

والحق يقول : « فإلحكم في المنافقين » أى إن الحق يقول : أى حجة لكم في أن تفرقوا في أمر المنافقين إلى ففتين ، والقياس يقتضى أن تدرسوا المسألة دراسة عقلية ، دراسة إيمانية لتنتهوا إلى أنه يجب أن نكون على رأى واحد ، ومعنى الإنكار هو : لا حجة لكم أيها المؤمنون في أن تنقسموا إلى ففتين .

ويقول الحق : « والله أركسهم بما كسبوا » وساعة تسمع كلمة « أركسهم » ماذا نستفيد منها حتى ولو لم نعرف معنى الكلمة ؟ نستفيد أن الحق قد وضعهم في منزلة غير لائقة . ونشعر أن الأسلوب دل على نكسهم وجعل مقدمهم مؤخرهم أى أنهم انقلبوا حتى ولو لم نفهم المادة المأخوذة منها الكلمة ، وهذا من إيماءات الأسلوب القرآنى « إيماءات اللفظ ، وانسجيمات حروفه .

« والله أركسهم بما كسبوا » « أركسهم » مأخوذة من « ركسهم » ومعناها

« ردهم » . كأنهم كانوا على شيء ثم تركوه ثم ردهم الله إلى الشيء الأول ، وهم كانوا كفاراً أولاً ، ثم آمنوا ، ثم أركسهم ، لكن هل الله أركسهم تعتاً عليهم أو قهراً ؟ لا ؛ فهذا حدث « بما كسبوا » ، وذلك حتى لا يدخل أحد بنا في متاهة السؤال ولماذا يعاقبهم الله ويوبخهم مادام هو سبحانه الذي فعل فيهم هذا ؛ لذلك قال لنا الحق : إنه « أركسهم بما كسبوا » . و« أركسهم » مادته مأخوذة من شيء اسمه « الرُكس » - بفتح الراء - وهو رد الشيء مقلوباً ومنه « الرُكس » بكسر الراء وهو الرجيع الذي يرجع من معدة الإنسان قبل أن يتمثل الطعام . مثلما نقول : « إن فلاناً غمت نفسه عليه » أو « فلان يرجع ما في بطنه » .

وعندما ننظر إلى هذه العملية نجد أن الطعام الذي يشتهي الإنسان ويحبه ويقبل عليه ويأكله بلذّة ، وتنظر عيونه إليه باشتهاء ، ويده تقطع الطعام بلذّة ويمضغ الطعام بلذّة ، هذا الطعام بمجرد مضغه مع بعضه ينزل في المعدة وتضاف إليه العصارات الهضمية ، فإذا رجع فإنه في هذه الحالة يكون غير مقبول الرائحة ، بل إن الإنسان لو هضم الطعام وأخذ منه المفيد وأخرج الباقي بعد ذلك ، فرائحة الفضلات الطبيعية ليست أسوأ من رائحة الطعام لو رجع بدون تمثيل . فلو رأيت إنساناً يقضى حاجة وآخر يتقيأ الطعام ، فالنفس تتفرز من الذي يتقيأ أكثر مما تتفرز من الذي يقضى حاجته ؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل .

ولذلك نسمع المثل « كل ما فات اللسان صار نتان » . و« الرُكس » هو الرجيع الذي يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصبح روثاً ، وغائطاً وبرازاً . والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التي تصفهم : « والله أركسهم » أي أنهم ارتدوا من قبل أن ينتفعوا بأي شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآني الذي جاء بالعبارة التي تؤدي هذا المعنى ، وتؤدي إلى نفرتنا منهم . فيكون الإركاس هو الرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية ؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف ؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الرُكس أن نجعل رأسه في مكان قدمه وقدمه في مكان رأسه . وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادياً بل إنه

رد جعل المردود مُرَوِّا . وإن كانت استقامة الأمر على الامتداد الطولى ، يكون
الركس بأن تاتي بما في الخلف إلى الأمام ، وبما في الأمام إلى الخلف ، فتقلب له
كيانه . وتعكس حاله .

والقرآن يصف الكافرين والمنافقين :

﴿ ثُمَّ نَكْسُوهُمْ عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الانبياء)

لماذا ، لأن الرأس مبنى على القامة والحامة والارتفاع . هذا الرأس يُجْعَلُ مكان
القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن فقوله : « والله أركسهم » أى لم يردهم
مطلق الرد ، بل رُدُّهم ردا مهينا ، رداً يقلب أوضاعهم .

« والله أركسهم بما كسبوا » إذن فلا يقولن أحد : مادام الله قد أركسهم فما
ذنبهم ؟ إن الله قد أركسهم « بما كسبوا » ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل - والله المثل الأعلى - حين تضع المدرسة أو الجامعة درجات
للنجاح في كل مادة . تهجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين في المائة .
وأخرى على سبعين في المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرسب أحدهم
لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرسب ، صحيح هى أرسبته ولكن وفق القوانين التى
وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبذل الجهد
الكافى للنجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فافه لم يأت بالركس ورماء عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية
السنة الكونية هى التى تؤدى بهم إلى الركس ، مثلهم مثل التلميذ الذى لم يستذكر
فلم يُجِبْ فى الامتحان ، فلا يقال عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته . ولكنه هو
الذى أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذى أضلهم ، فما ذنبهم ؟ هذه هى القضية التى
يقول بها المشركون على أنفسهم . ولهؤلاء نقول هذه الآية : « والله أركسهم بما
كسبوا » وكذلك أضل الله الضالين بفعلهم ، كيف ؟ .

نحن عرفنا أن الهداية تأتي بمعنيين ، هداية الدلالة وهداية المعونة . ويأتى المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة - والعياذ بالله - لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الذين أسرفوا على أنفسهم يتيقنون أنهم ذاهبون إلى داهية وأمر منكر شاق عليهم ؛ لذلك نجد الواحد منهم يتمحك في محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى مناهات يصنعها الفهم السطحي للدين . ولذلك نجد المناقشات التى يناقشونها تدل على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : مادام الله هو الذى كتب على كل شيء فلماذا يعذبني وهو الذى كتب على المعاصي ؟ .

نقول له : ولماذا آمنت في هذا الموقف بالذات أن الله هو الذى كتب ؟ ، وما دمت قد آمنت بأن الله هو الذى كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضى أحكام منهجه ؟ . ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضى أن تأتى بالقضية المقابلة وهى أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يثيبه ؟ . لماذا تناسى قضية الطاعة والثواب عليها ؟ ؛ لأنه يعرف أنها القضية التى تجلب الخير ، ووقف في القضية المقابلة التى تأتى بالشر ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا نرى ملتزماً بمنهج الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالمؤمن يجب أن تسير الأمور على ضوء منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن - وليساجئني الله وليغفر لي - أتعجب من أن العلماء الذين سبقونا جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معتزلة وأهل سنة (!!)

المسألة كلها يجب أن تفهم على أساس أن الإسلام دين فطرة ، ولم يأت للفلاسفة فقط ، إنه جاء للعقل الفطرى ، وزاعى الشاة في الإسلام كالفيلسوف ، ومن يكتسب الشارع أو يمسح الأحذية مساو لمن درس الفلسفة أو الحقوق ؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولا بد أن تكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شيء فيك ، لا يدخل معك في مناهة ، هو - سبحانه - يقول لك :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤ ﴾

فالذى صنع الكرسي - والله المثل الأعلى - ألا يعرف أن الكرسي مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « مجنه » ، وأن المسار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسي أى صنف من الفراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسي ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسي بها .

إذن فقول الحق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » لا يحتاج إلى جدال . ولذلك نجد التجار الذى يرغب أن تكون صنعته مكشوفة واضحة بقول للمشتري :

سوف أصنع لك الكرسي من خشب الزان وعليك أن تمر يوماً لترى مراحل فعله .

ويبدأ صناعة الكرسي مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون . وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرجل . وهو ما يوضح على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشجر . وقد جاء سبحانه بما يدحض أى جدل ، ويدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال . جاء الحق بهذا القول الفصل :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤)

(سورة الملك)

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة فى متاهة فلسفية ، فالإسلام دين الفطرة .

ولذلك نجد العلماء الذين ناقشوا هذه المسألة - جزاهم الله خيراً - جاءوا فى آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وأنا أريد أن أعرف ماذا قدمت الفلسفة النظرية للعالم من خير ؟ . لقد انفصلت عنها الفلسفة المادية ودخلت المعمل وأخرجوا لنا الابتكارات التي انتفع بها الخلق ، فماذا فعلت الفلسفة النظرية ؟ . لا شيء . ونقول : جاء الإسلام بالعقيدة الفطرية ، ومعنى العقيدة الفطرية أن الناس فيها سواء ، فالأدلة العقلية تقتضي الوضوح لمن تعلم ولمن لم يتعلم .

والفلاسفة هم الذين قالوا : بأدلة الغاية وأدلة العناية وأدلة القصد . لكن البدوي الذي سار في الصحراء وجد بعر البعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم ، فقال : إذا كانت البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ . هو لم يدخل في فلسفة أو متاهة مثلما دخل الفلاسفة مع بعضهم في متاهات عقلية وحلها البدوي في جملة واحدة . وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراف : ألا تشتاق إلى الله ؟ . فيقول له : إنما يشتاق إلى غائب ، ومعنى غاب الله حتى يشتاق إليه ١٩ .

لذلك نقول لمن اختلفوا في أمر رد الله هؤلاء : نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم في هذه الحكاية « أركسهم بما كسبوا » .

نقول مع حسن الظن بهم ، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق ، فواحد منهم يقول : « الله خالق كل شيء » . فنقول له : أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلقتها في الحق .

وجاء ثانياً وقال : ولكن الله عادل . ولا يمكن أن يخلق في الكافر كفره ثم يعذبه عليه . إنه متعصب لصفة العدل . وكل منهما ذاهب إلى صفة واحدة من صفات الحق . وتناسى الاثنان أن هذه الصفات إنما هي لذاته - تعالى - فسبحانه قادر وعادل معاً . فلا هذه تفلت منه ولا تلك .

ونقول لمن يقول : إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل . ما الفعل ؟ . الفعل هو توجيه جارحة لإحداث حدث ، فاللحى يمسح وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسحه ، وهذا الفعل لا يفعله صاحب الفعل ، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلى

نضغط على أكثر من زر ليتحقق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلى حتى يتحرك حركة واحدة لا بد من ضغط وتحريك عدد آخر من القوى ، لكن الإنسان حتى يمسح وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسح الوجه باليد مسح الوجه . فهل أمسك من يمسح وجهه بشيء وضغط عليه ليمسح وجهه ؟ .

إنه بمجرد أن أراد فعل . وسائق جرافة التراب يحرك عدداً من الأفرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليفتح كباشة التراب ، وحركة تقبض أسنان الكباشة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن يمسح وجهه فهو يمسح وجهه ولا يعرف أى عضلات تحركت ، فمن الذى فعل كل ذلك ؟ . إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فאלله هو الذى فعل والعبد هو الذى وجه الطاقة التى تنفعل بالله . فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذى يقتل واحداً ، هو لم يقتله ؛ لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل باقى بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فآداة القتل هى التى قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله يعذب على المعصية ؛ لأن الإنسان استعمل آداة مخلوقة للفعل ولعدمه ، فجعلها تؤدى فعلاً غير مراد الله أى لا يرضى عنه الله ولا يحبه ، ومع ذلك فالله هو الفاعل لكل شيء .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » ومادام هو سبحانه الذى أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأى فيهم واحداً ؛ لذلك يتساءل الحق : « أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟ » وسبحانه لا يريد أن يقدم لهم العذر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهى هداية لا تتأى لهم ؛ لأنه قد أضلهم فأتى لهم الهداية . فليإذا يقف جانب من المؤمنين فى صفهم ؟ .

لأن الله حين يهذى فهو يهذى من يشاء ويضل من يشاء بوضع القوانين الموضحة

للهداية أو الضلال . ونحن إن سمعنا « أن الله هدى » نفهمها على معنيين ، المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثانى أنه « أعان ومكّن » . فـ « هدى » تكون بمعنى « دل » ، و « هدى » تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشى فى الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطى المرور فيشير الشرطى : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية . إن الشرطى هدى هذا الإنسان ودله على الطريق . لكنه لم يحمل الإنسان على أن يسير فى الطريق ، فإذا ما صدّق المسافر قول الشرطى وقال له : إننى أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أننى وجدتكَ ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطى : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » و « عقبة » ، ساركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطى مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوضح : سأهدى الناس جميعاً وأرشدهم وأدلمهم ، فالذى يقبل على الإيمان به ساعونه على ذلك .

ولذلك يقول :

﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَنَهْدِيَنَّهُمْ فَاَتَتَّعِبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

وهـ هديناهم ، هنا بمعنى « دللناهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبيل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية - إذن - ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى الإعانة . والحق يعين من ؟ . يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

وكذلك :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

إذن فـ لله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهى هداية الدلالة ، وأخرى خص بها من جاءه مؤمناً به ، وهى هداية « المعونة » . ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَرَادَ ضَلَالًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهذا القول فيه نفى الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وليس من المعقول أن ينفي الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له . ونفهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . فإله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تماماً معنى قوله الحق : « والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً » . فالذى يضل الله هو من اكتسب ما يوجب أن يضل فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هو ما يوضحه سبحانه لنا : أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال ، ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذى يعطيك حقاً في الهداية ، فإذا ما امتنع السبيل فماذا تفعل ؟ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً في أن ينقض هذا القرار ، أى لا حجة له على الإطلاق . ولذلك أخذنا المعنيين هنا ، فالذين ينافقون يظهرون الإيمان مرة ويتقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذى يقولون بالستهم هو الإسلام ، أما الإيمان فلما يدخل في قلوبهم .

وما هو الأعز على النفس البشرية ؟ مكنونات القلب أم مقولة اللسان ؟
الأعز هو مكنونات القلب . وماداموا هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بالستهم ، فالعقيدة داخلهم معقودة على الكفر ، ومادامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر ، لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن
تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ٨٩

« ودوا » ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ،
وحكم الله في صالح الفئة التي أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش
والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « وقوا لو تكفرون كما كفروا » ثم
إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ،
لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين
به ، فيحاولون أن يظهرُوا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم في
كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار في رؤوسهم : يقولون
نعلم أمام المسلمين أننا مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون .

وما الذي ألقاهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع
قلوبهم قبل أن يحىء الإسلام ؟ إذن فالذي يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسي
وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضريهم ومستقبلهم هو أن تنتهي
قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل
كافراً .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له
جميع الجوارح إن قلرت ، فإداموا يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون
في سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التي تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك
فاحلروهم ، سافضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وعائثات
أعينهم وعائثات ألسنتهم .

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعني « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق في ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذي جاء ليحدد المصادف هو عينه دليل على الإيمان بالله . فعندما نقول : « كفر بالله » أي « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان . فلفظ « الكفر » في ذاته تعني إيماناً موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » . وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ قَالُوا كُفِرُوا فِي الْمَنَافِقِينَ فَتَعَنَّى ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسياهم الله في آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق في هذه الآية بأنهم كفروا « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذي يحى وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعظم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، وإن كانوا في الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم في الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم في الدرك الأسفل من النار .

إذن فاصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم في الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريجة في كلا الموقعين . فالمرجح لهم ألا توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . فهم يثمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلاً نقول : مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين في مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس أو لا يؤدي عمله على الشكل الراقى المطلوب ، لذلك فهو لا يجب أن يؤدي الآخرون أعمالهم بمتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يفرهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ؛ كى لا يظهروه أمام نفسه بمظهر النقيصة . وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذى يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كإمانة .

وقول الحق عن أمانة المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة في أن صاحب الباطل يجب من صاحب الحق أن يكون معه ؛ لأنه حين يجده في الحق ، فصاحب الباطل يحترق نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فهذا هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف « علياً » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التي عنده .

هم كذبه في الرسالة . ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ؛ لذلك أودعوا عنده الأمانات . إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة . وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع في مشكلة ، سبب أحداً من الناس ورفع المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذى سبه ، ولهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، فيقول المعتدى : أتشهد على ؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقى مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأناب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذى شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعاً لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله . وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » ومادام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة .
« ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء » وفي هذا تحذير واضح للمؤمنين هو :
إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم .

ويصدر الحق الحكم في هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتخذوا منهم أولياء »
أي إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ؛ لأن الله سبحانه فضح
لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن أب الواحد منهم
وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يردده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحدا
لمجرد أنه ارتكب الذنب ؛ لأنه الحق غفور ورحيم ، فإدام قد عاد الإنسان إلى
الصواب وتبعد عن الخطأ ، فعل المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ،
فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ ، لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست
موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلموا عن الخطأ ؛ فهم مقبولون من
المؤمنين .

وهاهو ذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له
بعض الناس هاهو ذا قاتل أخيك زيد . فيقول عمر بن الخطاب : وماذا أفعل به وقد
هداه الله للإسلام ؟

وهكذا نرى أن الكراهية لم تنعقد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ،
فإن أقلمت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الرباني :
« فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » .

والهجرة في سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن
أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفي هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف
المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وأن له الأوان أن يدخل في حوزة
الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا
الذوات عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الذوات في ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره
فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرّون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتى له ابن ليس على منهجه . فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن : « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتني أن تنجيني أنا وأهل .

وهنا يوضح الحق : صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال :

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقييمه . ولذلك يقول الحق : « فلا تتخلوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » والهجرة من « هجر » ، وه هجر بمعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يهجر عادة يتجنى على من « هُجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى في كتابه عندما يأتى بالحدث . يأتى به هاجر ، ولم يأت بالحدث « هجر » ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » (١) .

فالهجرة جاءت ، لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . وه هاجر ، على وزن « فاعل » . والمتنبي يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هم

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته . واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

ويوضح سبحانه أن الذي يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو : أن يهاجروا في سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة في سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الايمانية في الحديث النبوي : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (١) .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن هاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولى المنافقون ؟ . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء في مقام النزاع فمعناه الأسر . وقتلهم في ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين ، ويحاول أن يحرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين . ويستमित ليحرف ما يبيت المسلمون للكافرين .

والمخاذ الولى أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك في صدق بصيرة الإنسان الذي يتولى ويود غير المسلمين المخلصين . فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تتق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما في قلبى لما فعل ذلك . فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما في قلوبنا ؛ لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا .

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم ربٌ يبصرهم ، فلماذا يدعون

أن لهم إلهاً ؟ لو كان لهم إله لبصرهم بما في نفوسنا . ونجد هذا الفضع لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

وعلم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائلة ورحمة سيدركونها فيها بعد . فحين هؤلاء من سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ، فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فيها هوذا ابن الوليد يهتدى ، وها هوذا عمرو بن العاص ، وها هوذا عكرمة بن أبي جهل ، هؤلاء سيكونون سيفاً للإسلام ، ولا يظنن منهم أحد أنه ستر مكنون نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هذا القول قد أدى أمرين :

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً معلماً على خائنة الأعين وخفايا الصدور .
والأمر الثاني : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيفاً للإسلام وسيخرج من قوتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاءه جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فتادان ملك الجبال فسلم على ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثي ربك إليك لتأمرن بأمرك بما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش^(١) . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٢) .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المتنافقين يحده الله في هذه الآية بما يلي :
هم قوم الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يدعى الإسلام ويتمنون أن يكون

(١) الأخشيشان : هما جبلان بحكة : أبوقيس ، والذي يقاتله وهو قتيقمان .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من النافقين ولا نصيراً .
ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحده الله : « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تبخلوا منهم ولياً ولا نصيراً » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة في تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التي كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تتلخص في أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف .

إن الحق يوضح لنا : لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ، لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيت بعض القبائل عهداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل في حمايتهم ، وكذلك الذي يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .

لذلك قال الحق في هذا الاستثناء :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ
يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَتَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يُقْتَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ
السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ٩ ﴾

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاهد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء في الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمي على الآ
يعينوه ولا يعينوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذي
لهلال . والاستثناء يشمل أيضاً من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى
من عاهده المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يؤمن الرسول من جاءه من
المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من
نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » كأن يقول الواحد
منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم . ولا أقدر أن أقاتل قومي فاعفروني هذا واقبلوني
معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم
لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين
فيعملون في معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخلوا موقفاً حاسماً حازماً بين
المسلمين والكافرين ، فهم يقرّون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » . فما الذي يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع
المسلمين بميثاق حتى يهتموا فيهم ؟ أو يقرّون أن صدورهم خبيثة وأنهم غير قادرين
على التصرف ، ويعلمون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح
الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب في نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجراتهم
عليكم ، وقاتلوكم . إذن فسبحانه نصرنا بالرعب ومنع قتالهم لنا .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم
سيلاً » .

إن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين
قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ؛
فلاعتداء عليهم في مثل هذه الحالة ينهى الله عنه .

وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل ، فهي عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التي لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَأَقْبِلُواهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ٩١ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلًّا » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لتزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر ؟ لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا في القرآن . وسبحانه يوضح أن عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم في رعايتي وفي عنايتي .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بني أسد وخطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أي معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلًّا ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » . أي فشلوا في الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا في حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما في

أعيانهم ازدادت حيرتهم . فالفتنة هي اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلاناً في فتنة فعل المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان في الفتنة .

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هي صهر الذهب في البوتقة حتى ينصهر ، فتطفو كالزبد كل العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتهاكمة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث .

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب . وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعاني ، وصارت الفتنة هي الاختبار الذي ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهي ليست ضارة في ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذي يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقرون على الإيمان ، أى فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتل المسلمين ردوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين في الفتنة : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخلوهم واقتلوهم حيث ثقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلاحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال في الآية السابقة :

﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النساء)

وهذا إنصاف وتنبه إلهي من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء . أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلحقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتى فيهم الأمر الإلهي :

خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطان المبين . والسلطان كما نعرف - هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تفهر الإنسان على الفعل كأن يأتي واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأن يأمر القوي الضعيف بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذي يفهر القلب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثاني هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التي تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يفهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالافتناع . والسلطان المبين الذي جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ماداموا حاولوا القتال والحاق الأذى بالمسلمين ، فالحزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحق نفهم معنى السلطان جيداً فلتذكر الجدل الذي سيحدث في الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتموني ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لي عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ويعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعته ، وقاتل المنافقين ، وقاتل الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . ف أوضح لهم : المسألة أنني أنا الذي عملت البنيان الأدمى ، والحياة أنا الذي أهبتها ، وليس من السهل لبني البنيان أن يجرس على هدمه ، إنما أنا أحرص على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكي يسلم باقي البنيان لكم ، وإياكم أن تهترأوا على بنيان الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله ؛ فالنفس التي خلقها الله ، إياك أن تقرب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجتبرأت على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وهو الذي يأخذ الحياة ، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً ، عُدواناً دون حق نقص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأ فأنخذ منه الدية ،

ونتهى المسألة . لكن قاتل نفسه محرم عليه الجنة .

إذن فقبل أن يقول لى : لا تقتل غيرك قال لى : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغير فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فعين شرع سبحانه القصاص فى القتل شرعه ليحميك لا ليحترقك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه : أن من قَتَلَ يُقْتَلْ فهو يقسط ويعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْتَ لا تقتل . ومادمت لا تقتل فقد حيت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذى يتفلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذى يشرع القصاص أيريد أن يقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمى حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقْتَلْ فلا يقتل ، ومادام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قول صدق .

وعندما نكلم الحق عن القتال والقتل ينبهنا : إياكم وأن تمزقوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور فى الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً
وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ
كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٦٢﴾

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نفساً كافرة، ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل .

والقتل - كما نعلم - محاولة إزهاق روح الحى بنقض بنيته . والحى وإن لم ينقض بنيته حين يأتى أجله يموت . إذن فنقض البنية من الإنسان الذى يرهى أن يقضى على إنسان عمل غايته إنهاء الحياة ، فلا يظن ظان أن القاتل الذى أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهى حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذى ينهى الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزاء إنما وقع على القاتل لا لأنه أمانت القتل ولكن لأن القتل تعجل فى أمر استأثر الله وحده به ، والقتل ميت بأجله ، فالحق سبحانه وتعالى هو الذى استخلف الإنسان فى الكون ، والاستخلاف شرحه الحق فى قوله :

﴿وَأَسْتَقَمَّرُكُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

فاله هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الكون ليعمر هذا الكون ، وهمازة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء والصالح فى الكون ، فالصالح تركه صالحاً ، وإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل .

الأرض - على سبيل المثال - تثبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يحد زرعاً

خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينمي في الأرض هذه الخاصة فيأتي الإنسان بالبذور ويحراث الأرض ويزرعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة .

إذن فالاستخلاف في الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة . ومادام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً فلا تأتي أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنتهي حياته فتعطل إحياءه للأرض واستعمارها . فالقتال إنما شرع للمؤمنين ضد الكافرين ؛ لأن حركة الكافرين في الحياة حركات مفسدة ، ودرء المفسدة دائماً مقدم على جلب المصلحة . فالذي يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كي تنهي الحياة فيه ، ونخلص الحياة من معوق فيها .

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيشون في الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف لهصيروا هم به أقوياء ، فشرع الله القتال إما ليؤمنوا فيخضعوا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن - وهو في ذاته صالح للاستعمار في الحياة - يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا ؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجتراً على حياته أو على حياة سواه فلا بد أن نؤذبه . كيف ؟ قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

والتشريع الإسلامي وضع للقاتل عن سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحمي التشريع الحياة ولا ينمي القتل ، بل يمنع القتل . إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتعطى الحياة سعة في مقوماتها لا تضيقها في هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتعملوا القتال في غير الأمر المشروع ، فإذا ما اجتراً إنسان على إنسان لينهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فإذا يكون الموقف ؟

يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون في بالك ألا تهترى على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل . فماذا يكون الأمر ؟ هناك منفعل لك وهو القتل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما - إذن - أمران : عدم القصد في ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثاني هو حدوث القتل .

يقول التشريع في هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد ألحق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى في بيته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيته الأهلية الخاصة كعائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن ؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل في عمومها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع . وحين تنهى حياة إنسان في البيعة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيعة بتقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج الله ومفيد في حركته ؛ لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .

لكن الدائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصاً بشكل ما ، وفي الأصل والفرع نجده نفعاً متبهاً وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفريعاً لبيعة عامة وليئة أسرة وليئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن تلاحظوا في أحداث الحياة شيئاً يمر علينا جميعاً ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحوادث . مثلاً : إذا كنا جالسين في مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، وفي هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو ابنه ، انظروا إلى أثر النعي أو الخبر في وجوه القوم ، فكل واحد سينفعل بالقدر الذي يصله ويربطه بمن مات . فواحد يقول : « يرحمه الله » وثاني يتساءل بفرح : « كيف حدث ذلك » ؟ وثالث يبكي بكاء مرّاً ، ورابع يبكي جوارياً ليرى الميت . الخبر واحد فلماذا يعتمد أثر وصلى الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً ؟

نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع الففيد لمن ينفع لموته ؛ فالذي كان يلتقى به لئاماً وسيراً في أحيان متباعدة يقول : « رحمه الله »

الله . . والذي كان يحالسه كل عيد يفكر في ذكرياته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذي يدرس ، أو البنت الصغيرة التي مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقيهم للخبر بانفعالات شتى ، فالابن الذي له أسرة وله سكن يتلقى الخبر بانفعال مختلف عن الابن الذي مازال في الدراسة ، وانفعال الابنة التي تزوجت ولها أسرة يختلف عن انفعال الابنة التي مازالت لم تجهز بعد .

إذن فالانفعال يحدث على مقدار النفعية ، ولذلك قد نجدنا على صديق أكثر مما نجدنا على شقيق . وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ . قال : النافع . إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالحزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه في المجتمع .

فالذي نحمد المجتمع كله هائجا وثائرا وحزيناً لفراقه كان نافعاً للمجتمع كله ، والذي تبكى عليه أسرته فقط نقول : إنه كان على قدر نفعه لأسرته وأولاده ، وقد يموت واحد ولا يحس أحد أن الكون قد نقص . وهذا هو السبب في أنهم أرادوا أن يجعلوا لكل واحد وطناً . وقالوا : إن أوطان الناس على قدر همهم . فواحد ليس له وطن إلا نفسه فقط ؛ يرى كل شيء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد حتى ولو كانوا أولاده .

وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل على قدر نفعها « وواحد يكون وطنه عائلته وقريته ، وواحد وطنه أمته . وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يرفع المجتمع في واحد فالحزة تأتي على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يُقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عنده لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل ؟ . فالأثر قد حصل ، وتحدث الهزة للأقرب له في الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضرر » .

إنك ساعة ترى شيئاً سينفعك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً سيضررك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتي للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض « وساعة يأتيه من بعد ذلك خير وهو حصوله على جزء من دية القاتل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتي من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفزعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة في الدية . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التي صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن في المجتمع . فمن يقتل خطأ لا يقتصر منه المجتمع ولكن هناك الدية . ومن أجل إشاعة المسؤولية فالقائل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة ؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجني من أهلها جناية وأنها ستتحمل معه فإنها تعلم أفرادها فن صيانة حقوق غيرهم ؛ لأن كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك عمداً فيقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث عن قصد ؛ لأن اللحمة - بضم اللام - الإيمانية تمنع هذا . لكن إن حدث هذا فما العلاج ؟ . « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والقصاص حق الولي فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الدية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولي ، والحد حق الله . وللولي أن يتنازل في القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق لله .

إذن فالقتل الخطأ قال فيه : « فتحرير رقبة مؤمنة » وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة ؟ . هل يعود ذلك على أهل القتل بسيط في النفع ؟ . قد لا تفيدهم في شيء ، لكنها تفيد المجتمع ؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيده ، والسيّد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون

العبد حرّاً فهو حر الحركة ؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ؛ وفي حرّيته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فالقبض الذي حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط في حرية واحد كان محكوماً في حركته فنقول له : انطلق في حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التي جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول « ودية مسلمة إلى أهله » لكي تصنع البسط في نفوس أهله ليعقب القبض نتيجة خير القتل . ولذلك نجد أسرة قد فجعت في أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن في ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذي فقد حياة حبيب لا يظل في حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، ففي الواقع يكون الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القاتل ، والحزين إنما حزن لأن القاتل كان يثرى حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .

ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقلنا له : احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوي من أشواقك إليه ، وبعد ذلك نأخذ منك لندفنه أيرضى ؟ . لن يرضى أبداً بذلك . أو نقول للحزين : « لن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك في حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تلذذ عيناها اللمع وتبكي عليه لكنها تأكل وتشرب .

إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال قضية الحق وهي قضية لا تنقض نواويس الله في الكون . وبعد ذلك يريد الحق أن يشرح التعاطف بين الناس ، فإذا قال أهل القاتل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم في القاتل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إخوة فما الذي يجري في المجتمع ؟ . الذي يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية ، إذن فهذا تريبب للدية ، فساعة يعرف الطفل في العائلة أنه

كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قُتل ، وعفا أهل القتل فلم يأخذوا الدية ، هذا الطفل سيعرف عندما يَشِبُّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه العفة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربب إشاعة المودة والصفاء والنفعية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع ، وإن لم يأخذها فهو ينتفع أكثر ، لذلك يقول الحق : « دية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ في بيئة إيمانية ، ولكن ما الذي يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويعيش بين الكفار ؟ . ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهي ، وحق نزاد يقيناً بأن الله هو رب الجميع ، لذلك قال الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ، أى كان المقتول من قوم في حالة عدا مع المسلمين فهو لا يستحق الدية ، لأنه يحيا في قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع هنا قد شرع لثلاث حالات : شرع لواحد في البيعة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن في قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم في حالة أن يكون القتل من قوم بينهم وبين المسلمين عدا وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وذلك للتعويض الإيماني فينطلق عبد كان عديم الحركة لأن هناك من مات وانتهت حركته ، وفي هذا تعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفعل في الدية ؟ . لا يأخذون الدية ، لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أى فليس هنا دية .

وعندما ننظر إلى قول الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم ، نجد أن كلمة « عدو » مفردة في ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفي اللغة نقول : « هو عدو » و « هما عدو » و « هم عدو » وإن تنوعت عداوتهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصدر العداء فهم عدو واحد . والحق يقول : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة » ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عدا للإسلام فلا دية لهم ، لأنه لا توارث .

ويقول الحق : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بد من الوفاء . هذا الوفاء يقتضى تسليم دية لأهله ، لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . والدية - كما نعلم - تدفعها العاقلة ، ويقول الحق في بيان حق الله في أمر القتل خطأ : « وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » أى فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشراؤها فصيام الشهرين بكل أيامها ، فلا يفصل بينها إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل - دون قصد - على مرض أو على سفر . وبمجرد أن ينتهى المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التابع الحكيم ؟ . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، ومادامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلو لم يكن الصيام متتابعاً لأصاب القاتل غفلة . « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » .

ولماذا قال الحق : « توبة من الله » ؟ . والتوبة - كما نعرف - قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد تسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث : حين يشرع الله التوبة نقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطن أن الله شرع التوبة ؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضيق شديد لنوازع الشر ، فلو لم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يعمث في الأرض بالفساد . فحين شرع الله التوبة عصم المجتمع من الأضرار . فلأنه شرع التوبة ، فهو - سبحانه - يتوب ، هذه هي المرحلة الأولى . ومادام الله قد شرع التوبة فالمذنب يتوب ، هذه هي المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله التوبة ويتوب المذنب فالله يقبل التوبة ، هذه هي المرحلة الثالثة .

وهكذا نرى دقة القرآن حين قال :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ويعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع . والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هي توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : « توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً » ف سبحانه يشرع التشريع الذي يجعل النفوس تحيا في مناخ طبيعي وفي تكوينها الطبيعي ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل المقتول بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيمان من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يُفيد المجتمع الإيمان بتحرير رقبة ، ف يزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية ؛ لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة في الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ؛ لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً . وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لتنتزها على كل مفزع في منفعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجتمع عليهم مصيبتين القتل الذي قام به أصلهم أو فرعهم ؛ لأن ذلك - لاشك - سيصيبهم بالفزع والخوف والاشفاق على من جنى منهم . وأن يشتركوا في تحمل الدية . وذلك العمل ناشئ عن حكمة . فإذا كان الذي يضع الأشياء في موضعها هو خالفها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفي المجال البشري نجد أن أي آلة من الآلات - على سبيل المثال - مكونة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو غير ذلك ، ومادامت كل قطعة في مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعي للمهندس ليضع كل قطعة في مكانها ، وكل شيء حين يكون في موضعه فالآلة تمشي باستقامة ، وكل حركة في الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ فيها فساد ؛ فالفساد إنما ينشأ من حركات

نحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك

أحكم . وقديماً - على سبيل المثال - كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائي . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من تصنيعنا للأشياء . وكنا نجد الأسلاك في السيارة - مثلاً - ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صناعة كل سلك بلون معين ، فسهل هذا عملية الإصلاح .

فالحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشيء في موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

فإذا ما رأينا خللاً في مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلما تبحث عن العطب في أى آلة وتأتى لها بالمهندس الذى يصلحها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله . ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا في شيء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا ننظر في تعب .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحدثنا الله عن القتل العمد أولاً ؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ، ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأتى هذه على خيال المؤمن .

ويسأل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » . ونقول : يجب أن نتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبى ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين ؛ لأن الإسلام أمر ظاهرى ، فقد يقتل إنسان يظهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذى يشمل المظهر والجوهر وهو الإيمان .

وحين يشرع الحق فلا بد أن يأتى بالجزاء والعقاب للذى يقتل عمداً . وهو يقول :

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ١٣

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذي لا يدري به
القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً .
هكذا يشع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش في
فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال في القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أى أن
القاتل قد عاش القتل في تخيله ثم فعله ، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها
القتل أن يراجعها وازعه الدينى ، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير
للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله في باله لتراجع ،
ومادام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا في سبب هذه الآية :
إن واحداً اسمه يقين بن ضبابه كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً في بني
النجار ، وهم قوم من الانصار بالمدينة . فلما وجد هشاماً قتيلاً ذهب يقين إلى سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وكتب
إليهم أن يدفعوا إلى يقين قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلاً ،
ولكننا نؤدى الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا يقين
على الفهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتداً وجعل ينشد :

قتلت به فهرأ وحملت عقله سراة بني النجار أرباب فارع
حلت به وترى وأدركت ثورى وكنت إلى الأوثان أول راجع

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر
دمه » أباح دمه ، أى أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد

« مقبس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب : جزاء جهنم ، خلود في النار ، غضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكان جهنم ليست كل العذاب ، ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيد بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض من أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفي الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشد من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء في ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن عباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله : ألقاتل عمداً توبة ؟ قال ابن عباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن عباس : ألقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن عباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن عباس : سألني أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سألني ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول لرهبته والثاني لم أقنعه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن عباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي يسطرها الله على المفتي . فساعة يوجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته يسأله واحد قائلاً : « أي الإسلام خير » ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »^(١) ويسأله آخر فوجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله
عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه
عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس
من لسانك » (١) .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكير حول نصها « فجزاؤه جهنم
خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد . . بمعنى أن زمن
الخلود لا ينتهى ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث في النار مرة
بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة النساء)

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد في « أبداً » فيه ملحوظ يزيد على معنى الخلود
دون تأبيد . وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن « خالدين
فيها أبداً » تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشيء زائد .
والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزّه عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا
أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طويلاً لا ينتهى ، وعلى
ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين »
حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنُفِثَ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُفَوَّقَنَ

النَّارَ لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهيقٌ ۚ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦٧﴾

(سورة هود)

فكان الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود «إلا ما شاء ربك» . والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأييد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول في خلود الجنة :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَا الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ يَجْدُدُ﴾ (١٥٨)

(سورة هود)

وقوله الحق : «إلا ما شاء ربك» تفيد أن الخلود عندهم يتهى . مادام هناك استثناء ، فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأييداً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفي هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء للدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المتتبعين إلى العلم : «كلهم طالب صيد» . إلا عمرو بن عبيد ، وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات هزة إيمانية تعلو على صفات الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأي ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : «يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي : لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له . قال فقرأت الآية : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذي جاءه أو الرؤيا التي لراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفنى بالآ توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك .

نقول ذلك لنعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذي علم عليهما . . ولكن عمرا ذكر ما جاء في قول الحق : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سناً ، فقلت له : لو كنت معك لقلت كما قلت : «فجزاءه جهنم خالداً فيها» وقلت أيضاً :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟ . تفيد ألا نأخذ كلمة « خالدين فيها » بمعنى التأييد الذي لا نهاية له ، لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أى أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بألة لا تقتل عادة فموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بألة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الألة التى لا تقتل غالباً ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحاً كقتل المسلمين الكافرين فى الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا : يجب أن نحناطوا فى هذه المسألة احتياطاً لتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول : .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ

كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ أَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيا أيها المؤمنون حين تضربون في سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تثبتوا : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعاني ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمان حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فليأكد أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » ، أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك في متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شيء ، ولذلك نقول : الشيء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى الآن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب الخمر ، وعندما يحلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر - على سبيل المثال - نجده قد تليف ، وأن أي جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر لماذا امتنع ؟ . لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان لمتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهي ؟ . لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى في الأشياء غير الضارة ، فمن الذي قال : إن الله لا يحرم إلا الشيء الضار ؟ إنه

قد يجرم امرأً تأديباً للإنسان . ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نجد الزوج يقول لزوجته : إياك أن تعطى ابناً بعضاً من الحلوى التي أحضرتها . هو يجرم على ابنة الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَيُظْلَمُ مَنْ أَلَدْنَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّت لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذي يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمه الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير في كثير من الأوقات حكمته في الأحكام حتى يرى الإنسان وجهها من الوجوه اللانهاية لحكمة الله التي خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف في حكمة كذا ، ثم بينت لي الأحداث والآيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا » والإيمان هو الحثية ، يا من آمنت بي إلهاً قادراً حكماً . . . اسمع مني ما أريده منك : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله » والضرب - كما نعرف - هو انفعال الجارحة على شيء آخر بعنف وقوة . وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب في الأرض ؟ . لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها ، يقومون بحراثتها حتى يهيئوها ، ويرموا البنود ، وبعد ذلك الرى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هي عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول :

﴿ وَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الزمل)

ومادامت المسألة ضرباً في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب من يهبها بالعزق والحراث . وكلما اشتدت حركة الإنسان في الأرض أخرجت له خيراً . والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الانفال)

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟ .

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد العدد . والعدد يحتاج إلى بحث في عناصر الأرض ، وبحث في الصناعات المختلفة لاختار الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصناعة . ولذلك يقال في الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد في سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذي يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضح النبل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم في سبيل الله فتيّنوا » ونعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . « وتهيّنوا » تعني ألا تاخلوا الأمور بطواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتت وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلم بن جثامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأصبط الأشجعي » إحن - أي شيء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » في سرية ، وهي بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعي » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلم » فقال « محلم » : « إن عامراً قد أسلم ليهرب مني . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صل الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟ . ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنه يقول : « السلام عليكم » لينقذ نفسه من القتل ؟ فقال « محلم » : استغفر لي يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لي يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حال طالب الاستغفار ، فإن قال رسول الله « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معلوماً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و« عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحن والبيضاء هي التي جعلته لا يدقق في أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدف جبل وألقوا عليه الحجارة)^(١) .

وعندما كانت تأتي آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبي يريد ألا يفتن الناس في هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبي .. انكسفت الشمس .. وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا يتكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »^(٢) .

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخاري .

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتن أحد ولا يقولن أحد . إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك ، فهذا كان يحدث ؟ . قد تحدث هزة قليلة في جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكن أبو جهل في حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور في وضعها الصحيح ؛ لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألا يعودوا^(١) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » .

وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتبينوا) بدل من (فتبينوا) في قوله الحق :

﴿ إِنْ جَاءَكَ كُفْرٌ فَاسِقٌ يُنَبِّئُ فَتَّبِنُوا ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول : هذه قراءة من القراءات ، والمعاني دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليتبين » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا ؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصورة . فـ « الباء » تتشابه مع كل من : « الياء » ، والـ « نون » ، والـ « تاء » ، والـ « ذاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفي ، وكانوا يقرأون من ملكة العريية ومن

(١) رواه أحمد وابن جرير .

تلقين واتباع للوحي ، ولذلك : « فتبينوا » ممن تتكون ؟ تتكون من : الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقية الحروف هي الـ « باء » والـ « ياء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف في النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذي تتبعه في ذلك هو ما ورد عن الوحي الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) .

ولم يحدث خلاف في الـ « صاد » ولكن حدث خلاف في الـ « باء » فهي صالحة لتكون باءً أو نوناً ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عينا » وقراءة هذه الآية في قراءة « حفص » :

﴿ مِصْبَغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ مِصْبَغَةً ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذي لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحي الذي نزل به جبريل - عليه السلام - من عند الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركاناً هي :

- ١ - أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
- ٢ - أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
- ٣ - أن يصح إسنادها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق يقين متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالاً يحوى
وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هي قراءة « حفص » وقرا الحسن : (قال عذابى أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهى من الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعث بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقرأ مرة « فتبينوا » ومرة تُقرأ « فتبينوا » ، سواء فى هذه الآية التى نحن بصددھا ، أو فى الآية التى يقول فيها الحق :

﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِلَبٍّ فَتَبَيَّنْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وه التبين ، القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفطنة فىرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ الْبَكْرُ السَّلَامَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يظن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبى يحزم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟ فلقول : لا إله إلا الله ، حرمة .

وقد روى أن الذي نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » وقال : كان رجل في غنمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخلوا غنيمته ، فأنزل الله في ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً »^(١) .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء في بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيها رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لي المقداد . يا مقداد أقتلت رجلاً يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله »^(٢) .

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » « ألقى إليكم السلام » يعني جاءكم مستسلماً ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقي الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها في المعنى اللغوي : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرار أو ثبات . ونحن البشر أعراض ، لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ، لأن

(١) روى البخارى .

(٢) روى البزار .

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله الذى نراه هو عرض وسياق يوم
ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا
تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمعة والنحافة ، ولون البشرة إذا
ما لوحته الشمس قد يتغير من أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شيء
يمكن أن يذهب في الإنسان ويحىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان
جوهرًا بالنسبة له . فإذا قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ،
فهذا أمر نسى ، وإلا فكل شيء عرض ، وكل شيء زائل « ويبقى وجه ربك
فوالجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » .
وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد
يكون عرض الحياة الدنيا - هنا - هو كبرياء نفس الإنسان عندما يتقم من إنسان بينه
وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض في « الحياة الدنيا » نفهم - إذن - أنه
عرض فيها لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينها يحزن
لفقدان شيء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى
للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة

فكيف آسى على شيء لها ذهباً

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهي
من « الدنو » ومقابلته « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة
الدنيا التقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ؛ لذلك لا يأخذ هذا
العرض عن سيقنته عندما يلقى إليه بالسلام ، لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ
الحياة الدنيا عن خلقها . والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب
الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بدليل أنه معرض
للقتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التي تنفعها أو تضرها ، مثال ذلك : أن الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئناناً عندما يملك في مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد في جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ، ألا تنشئ ولدك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجيء الحق النفس البشرية التي تهفو إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأمر بالحكم الذي يظهر الخواطر التي تجول في النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادي يبيعون فيه البضائع التي يعيشون من ريعها وروبحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم في أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذي سيحدث في أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » ينطبق في كل عصر وفي كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومساكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَامٌ كَثِيرٌ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتمتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبونا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وفي هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذي يلقي السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذي ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترى على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم .

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق بمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شيء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتيبونا » مرة أخرى بعد أن قالها في صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر في

المسألة الاقتصادية ، وما هوذا يعيد سبحانه كلمة « تبتنوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيشية ، وهي قوله : « تبتنوا عرض الحياة الدنيا » وتأتى هاهنا نتيجة للحيشية « فتبتنوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقد أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخزلنا في نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لتكون نمودجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا في رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمراً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحاسب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يتثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدله صاحبه بالسلام ، ويُذكر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فلذا كتتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا بتمام الثقة أن الله عليم خير ، لا يجوز عليه - سبحانه - ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية لئبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد في سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ
وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ١٥ ﴾

ولهذه الآية قصة .. واقتصر الخواطر من هذه القصة يتطلب بقطة تعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف^(١) ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

- كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيت السكينة -وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحي على رسول الله- فوقعتم فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترزها .

أى أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحي ساعة كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما كان يصنع في كياوية رسول الله تأثيراً مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تنط تحتها فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللخاف : حجارة يمشى رفاق ، واحداً لحلة .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحي .
قال زيد : خشيت أن ترض فخذ فخذى - أى تصيبها باللق الشديد أو الكسر .
فلما سرى عنه قال اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم
مكتوم ، وكان - كما نعلم - ضريباً مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين
يا رسول الله ؟

إنها الیقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه
لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية مستظل على هذا فلن يكون مستويا مع
من جاهد ، ولهذا قال قولك الیقظة : فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانية ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب :
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » .

فكانها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم . ولقائل أن
يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟ .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من
الله أن يتدبر ويتبين موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم
فيها سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها .
وحيثما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريد الحق من
خلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبها .

إنها الدقة في أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً
« لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون »
بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولى الضرر » فأين تكتب ؟

كان زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولى الضرر »
بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « والمجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت : لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحدها وكان أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف - فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم - والكتف التي كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن ينبه المؤمنين إلى أنهم حين يتلقون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع أذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقفه منها ، وتجر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر في ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى في هذه الآية : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتي الفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لا بد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : شارك زيد وعمرو . وعندما نصف لاعبي الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوي للآخر ؟ . كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان في الإعراب « فاعلاً » ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ولا يساوى القاعدون المجاهدين ، لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فما هو مقابل « القاعدين » في الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن المقابل في الحياة العادية للـ « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . فما الحكمة في مجيء القاعدين والمجاهدين ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه في بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جتدياً في حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ، فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء ، بل في تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى

النداء ، وكأن القاعد هو الذي ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على منته ، كلما سمع هَيْعَةً أو فرجة طار إليها يتنقى القتل والموت مَطَاطَةً ، أو رجل في غنيمة في رأس شعبة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير » (١) .

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد - كما نعرف - هو ضد القائم .
والحق يقول :

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُضِعَ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعليها أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضي أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعا فجلس ، وكان قائما فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر »
فالقعود مقابل القيام ، فكان المجاهد حالته القيام دائما ، وهو لا يتنظر إلى أن يقوم ،
لكنه في انتباه واستعداد . ويومع الحديث الشريف الدائرة في مسئوليات المجاهد
فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس ومعكك باللجام حتى
لا تدمه أية مفاجأة .

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطلاب : « إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب » وهذه

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الْإِمَارَةِ وَابْنُ مَاجَهَ فِي الْفَتَنِ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ . وَ (الْحَيْمَةُ) هِيَ الصَّوْتُ عِنْدَ حُضُورِ الْعَدُوِّ . وَ (الْفَرْعَةُ) هِيَ النَّهْضُ إِلَى الْعَدُوِّ . وَ (الشَّعْفَةُ) هِيَ أَعْلَى الْجَبَلِ .

مسألة بديية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة في بؤرة شعور التلميذ فيلتفت لمسئوليائه .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً في زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدنا قضية إيمانية في بلاغ إيمان من الله . وبعد ذلك بلغت الانظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذي يفسد الشيء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٩١
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٢ ﴾

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرضى ضرر ، والذين لا يجدون ما لا ينفقون منه ، ولا الذين يبحثون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ٩٢ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق : إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولي ، هم لا يدعمون أمام

النبي ، ولكنهم يدمعون في حالة توليهم ، وهذا انفعال نفسي من فرط التأثر ؛ لانهم لا يشتركون في القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ؛ لأن الذي يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويذل جهداً للمرأة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم تفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التي لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء - إذن - هم أولو الضرر .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » وماداموا لا يستوون فمن الذي فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التي تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كلا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولي الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن نتنبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن ؛ لأن الذي أصابته آفة فناله منها ضرر ، فصبر لحكم الله في نفسه ، ألا يأخذ ثواباً على هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولا بد - إذن - أن يعطى الحق من لم يأخذ ثواباً مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع في الاستطراق الإيمان سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى في أولي الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التي أصابته ، والذي لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

« وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً » .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففي صدر الآية جاء بـ « درجة » أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا « أجر عظيم » . ما تفسير هذا الأجر العظيم ؟ . التفسير يجيء في قوله :

﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١٦)

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضل المجاهد في سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة . وساعة نسمع كلمة « درجة » فهي المنزلة ، والمنزلة لا تكفي فقط للإيضاح الشامل للمعنى ، ولكن هي المنزلة الارتقائية . أما إن كان التغبر إلى منازل أخرى أقل وأدنى ، فنحن نقول : « دركات » ولا نقول : « درجات » .

ولكن هل الدرجات هي لكل المجاهدين ؟ . لا ، لأننا لا بد أن نلاحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ، وعملية الجهاد في ذاتها ، فعملية الجهاد في ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ، ولذلك جاء الحق بنص في سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهم

﴿ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ، لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسبرون في مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدوئنا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أي التعب ، وثالث أصابته خمصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجد ما يلي : للإصابة بالظمأ ، النصب - أي التعب - الجوع ، ولا يظأون موطئاً يغيظ الكفار أي لا يتزلون في مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويسيطرون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النيل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أي واد في سبيل الله ، وهذه هي الدرجات السبع التي يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً :

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿٣٥﴾ دَرَجَاتٍ لِّئِنَّهُ مَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣٦﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرَغِّبُ المؤمنين في أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هي العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيماني ، لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلم لا ينضم إلى ركب من ينفع سواء بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعي كل مَنْ مَسَّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً في مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضياً إلى إخوته المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواء ويعبر عملياً عن حبه للناس عما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال في سبيل الله . فيأبى القرآن بقطع العذر لأي إنسان يتخلف عن ركب الجهاد في سبيل الله وسبيل نصرته دين الله فيقول الحق :

﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣٨﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة في الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . وه التوفى « معناه « القبض » ؛ فيقال : « توفيت ذنبى » أى قبضته مستوفياً . ويقال : « توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً . والقبض له أمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهي تنسب مرة لله ، فالله يتوفى : لأنه الأمر الأعلى ، وتنسب الوفاة للملائكة في قوله :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿ قُلْ بِتَوَقُّعِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة في وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب في أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التي صنعها الله ، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفي حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل - والله المثل الأعلى - فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قائلاً : لقد وجدت نفسي راسباً ، والسبب في ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إنجاحي .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التي وضعتها الوزارة لتصحیح الامتحانات هي التي جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلني الناظر راسباً . وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التي يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحاً أو راسباً . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلني راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التي يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال التلميذ : لقد جعلني الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة . وأي حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً . ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ أَفَلَا يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِتَوَقُّعِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ؛ لأنها تتعلق بمدارج الأمر .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، والظلم هو أن تأتى لغير ذى الحق وتعطيه ما تأخذ من ذى الحق ، والظلم يقتضى ظالماً ومظلوماً وأما وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتوفاه الملائكة على ذلك ؟ لا بد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك . فساعة تأتى للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ؛ ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التى تقبل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التى تلح عليه بالانحراف . ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه : إنك إن طوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكوى بها فى آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث فى حياتنا العادية : عندما تدلل الأم ابنها بينما يطلب منه والده الاستذكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئولته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها . وكذلك يعطينا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التى تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ١٧ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هابيل لقابيل :

- ولماذا تقتلنى ؟ . إننى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله فما ذنبى ؟ .

ويأتى بعد ذلك الحوار :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رُبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٨﴾

(سورة المائدة)

وللتفت إلى هذا القول الحكيم :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

كان هناك صراعاً في نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و « لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شجرة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيشيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً يبحث ويحفر في الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿أَعِزَّتْ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَةً أُنِى﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذي لا خلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كتمتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم : « فيم كتمتم » أى فى أى شىء كتمتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتعريض أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلاً فعل إخوانكم وهاجرتهم وانضممتم لموكب الإيمان وموكب الجهاد ؟ ، ولماذا ظلمتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الفكك ؟ ونكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : « قالوا كنا مستضعفين في الأرض » . وبالله عندما يحكى لنا الله هذه الصورة التى تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها ؟ طبعاً لا ، لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصحح الخطأ .

والحق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبه لكل منا : احذروا أن يأتى موقف ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستترك الحياة ليصنع العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض » وكلمة « كنا مستضعفين في الأرض » تفيد أن قوماً استضعفهم ، أى أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يلىق ولا ينفع « تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ، لأن الذى يحسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شيء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانع ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً وأسكنهم في الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضيق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديدًا للمكان . فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التى تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة في الأرض ؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما . ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة في الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٦)

(سورة الرحمن)

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مذلة للإنسان ، والأرض هي أى أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم يتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم في فساد وشقاء . فالذى يجعل الحياة في الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التى تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك في حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيد عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض في بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس في بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن نسيح المسألة فتأخذ الأرض التى بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التى لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذى يعلو في الكون سببه أنه يوجد في كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضايق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن يتقضى هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة في الأرض بغير شروطها ، فالذى يفسد الأمر في الأرض أن الإنسان الخليفة في الأرض نسي أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً في الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً في الكون فهذا هو الفساد :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٧)

(سورة النساء)

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضميم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أما الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم من يقول عنهم الحق في الآية التالية :

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى » ومستضعف حقيقى ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً . هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يحدد لهم الحق : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عاجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمل نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة ؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة فى الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتياط ، والاحتياط هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتياط قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأتى بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليخرج الصخرة ، هذه هى حيلة من الحيل ، وكذلك السفالات التى نبى عليها ، إنها حيلة .

والذى قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذي جلس لينحت مسلة من الجرانيت طوها يزيد على العشرة الأمطار ، ثم نقلها وأقامها . إنه فعل ذلك بالحيلة . فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة في زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمناهات ، وحينها قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير في مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولنتظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ

عَفُوًّا غَفُورًا ۝ ٩٩ ﴾

« فأولئك » إشارة إلى من جاء ذكرهم في الآية السابقة هذه الآية :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حَبْلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

سَبِيلًا ۝ ٩٨ ﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفِرَ عَنْهُمْ ۝ ٩٩ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ « عسى » ليحثهم على رجاء أن يغفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتي بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عسى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفي هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذى يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التى تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل في أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ؛ ومع ذلك فالذى يضع في نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٍ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجْدِ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا
كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٠﴾

فالذى يهاجر في سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع في نفسه العملية الإيمانية . وفي البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين في مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة في الكون ، فلم يقبل النبي إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة في ذلك الزمان هي أرض بلا فتنة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختار النبي أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية في الجنوب أو في الشمال ؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها ، فكل القبائل تحج عند قريش ولم تكن هناك أى بيثة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعلة في الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل في ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان . وعلينا أن نعرف نحن الذين نعيش في هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)^(١) .

وهناك هجرة باقية لنا وهى الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الأحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية في هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط في طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم في هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على - كرم الله وجهه - يقول : عجبت للقوم يَسْتَعُونَ فيما ضمين - بالبناء للمفعول - لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا :

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَعَبًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(سورة النساء)

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمر .

وقد يقول الإنسان : إننى أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك فى مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرة .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفنى بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هى « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . وما دام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شىء ، لكنه رفض وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف فى التراب ، ويقال فى المثل الشعبى : أريد أن أكرس أنف فلان .

وعندما يهاجر من كان مستضعفاً ويعانى من الذلة فى بلده ، سيجد أرضاً يعثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : برغم أننى ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هى اسم مفعول ، وتعنى مكاناً إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذى كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا ؟